أسترِيد ليندجرين

رونيا

بنتُ قاطعِ الطَّرِيق

مكتبة الطفل

دار المنى

مكتبة ياسمين

رونيا

بنتُ قاطِعِ الطَّريق



ISBN 978 91 87333 73 6

Translation has been sponsored by the Swedish Art Council

Dar Al Muna, Box 127, 182 05 Djursholm, Sweden
www.daralmuna.com

أسترید لیندجرین

رونیا

بنتُ قاطِع الطَّریق

النص العربي: سكينة ابراهيم
مراجعة دار المنى



دار المنی

١



ليلةَ وُلدَت رونيا ، كانت هناك عاصفةٌ رعديةٌ تثورُ فوق الجبال وشِدَّتها البالغةُ جعلت جميعَ المخلوقات والعفاريت في غابة ماتيس تتقهقرُ زاحفةً برعبٍ إلى جحورها وأوكارها . لم يكن هناك من يطيقُ هذا الجوَّ العاصف غير تلك المخلوقاتِ الطائرةِ المرعبة التي تُدعى الخطّافات . فطفقَتْ أسرابهنّ تحلّق وهُنَّ يزعقن ويصرخَن حول قلعة قُطّاعِ الطرقِ القائمة على جبل ماتيس . ولما أزعجَت ضَوضاؤهن لوفيس التي استلقَت في برجِ القلعة تعاني آلامَ المخاضِ ، قالت لماتيس : «اُطرد هذه الخطّافات المجنونة ووفّر لي شيئًا من السكينة . وإلا لن أستطيع سماع ما أغنّيه!»

في الحقيقة أحبَّت لوفيس أن تغنّيَ بينما هي تضعُ مولودها ، فهذا يخفّفُ عنها . وقد أصرَّت على ذلك أيضًا ، إذ رأت أن المولودَ سيكون على الأرجح أكثر انشراحًا إذا جاء إلى الأرض على وقع أغنيةٍ .

أخذ ماتيس القوسَ والنشّاب وأطلَقَ بضعة سهام من خلال أحد شقوقِ السهام في القلعة وصاح بالخطّافاتِ : «اِرحلن من هنا يا خطّافات ، سأُرزَق بمولودِ الليلةَ ، هل تستوعِبن هذا أيتها المخلوقات المؤذية!»

«هوه هوه هاه ، سيُرزقُ بمولودٍ الليلة .» نعقَت الخطّافات . «مولودُ رعدٍ وبرقٍ ،

صغيرًا وقبيحًا سيكون ، هاه هوه هاه .»

عاد ماتيس وصوّبَ سهامه على السّربِ من جديد ، لكن الخطّافات سخِرن منه وحلّقن فوق قممِ الأشجار وهُنَّ يزعقن بجنونٍ .

بينما كانت لوفيس مستلقيةً تُنجب مولودَها وتغنّي ، وبينما قمعَ ماتيس الخطّافاتِ الجامحات بقدرِ ما استطاع ، كان أتباعُه اللصوص يجلسون قرب النار في الأسفلِ في القاعة الحجرية العظيمة ، يأكلون ويشربون ويتصرّفون بفظاظةٍ كأسرابِ الخطّافات تمامًا ؛ فهُم في النهاية لا بدَّ من أن يفعلوا شيئًا أثناء فترةِ الانتظار . جلسَ أولئك اللصوصُ الاثنا عَشر يترقّبون بشغفٍ ما يحدثُ في الأعلى في حُجرة البرج ، إذ لم يسبِق قطّ أن وُلِدَ أي طفلٍ في قلعة ماتيس مُنذ أن امتَهنوا اللصوصيةَ .

وكان سكاليبر أكثرهم ترقّبًا .

«يُستحسنُ أن يأتيَ ذلك المولود اللصّ في أسرع وقتٍ .» قال . «أنا كبير السِّن وواهِن ، وأيامي في قطعِ الطريق لن تلبثَ أن تنتهي . ومن الجيّد أن أرى زعيمًا جديدًا هنا قبل أن أموتَ .»

ولم يكَد يتوقّف عن الكلام حتى فُتح البابُ واندفعَ ماتيس داخلًا وقد أعمَته السعادةُ . اندفَع يدور في القاعة وهو يقفزُ من الفرحِ ويصيحُ كالمجانين .

«رُزِقتُ بمولودٍ! أتسمعون؟ رُزِقتُ بمولودٍ!»

«ما جنسُ هذا المولود؟» سأله سكاليبر وهو قابعٌ في ركنه .

«بنتُ قاطعِ طريقٍ! مسرّةٌ وفرح!» صاح ماتيس . «بنتُ لصٍّ وها هي تأتي!»

ومن فوقِ العتبةِ العالية خطَت لوفيس ومولودَتُها بين ذراعيها . فخمدَت ضوضاءُ اللصوص في الحال .

«أعتقدُ أنّ هذا المشهد جعل الجِعة تخطئُ طريق نزولها في جوفِكم ،» قال ماتيس . ثم أخذ المولودةَ من لوفيس وطافَ بها بين أفراد عصابته من اللصوصِ .

«هاكُم انظروا! أتريدون رؤيةَ أجمل رضيعةٍ على الإطلاق وُلدت في قلعة قطّاعِ طرق؟»

أما المولودةُ فاستكانت بين ذراعيه تنظرُ إليه بعينَين واسعَتين لامِعتين .

«هذه المولودةُ تكادُ تستوعبُ كلَّ شيء من الآن . يمكنكم أن تروا هذا .» قال ماتيس .

«ماذا ستُسميها؟» سأله سكاليبر .

«رونيا ،» سارعَت لوفيس إلى القول ، «هذا ما قرّرتُه منذ زمنٍ بعيد .»

«وماذا لو كان المولود صبيًا؟» استفسرَ سكاليبر .

ألقَت عليه لوفيس نظرةً هادئةً وصارمةً . «إذا قرّرتُ أن يكون اسمُ المولود رونيا ، فهو رونيا!»

ثم التفتَت إلى ماتيس وأردفَت : «أيمكنُ أن آخذَها الآن؟»

لكن ماتيس لم يرغَب في التخلّي عن ابنتهِ . وقف هناك يحدّقُ بإعجاب في عينيها الصافيتين ، وفمِها المنمنم ، وخصلاتِ شعرها الأسود ، ويديها الضعيفتين ، وسَرَتْ فيه قشعريرةُ الحبِّ .

«يا صغيرتي أنتِ مِن هذه اللحظةِ تحملين قلبيَ اللصّ بهاتين اليدين الصغيرتين .» قال . «لا أفهمُ كيف ، لكن هكذا هو الأمر .»

«أيمكنُ أن أحملَها برهةً؟» سأله سكاليبر ، فوضع ماتيس رونيا بين ذراعيه كما لو أنها بيضةٌ ذهبيةٌ .

«أُسلِّمكَ زعيمة قطّاعِ الطرقِ المستقبليةِ التي ما فتئتَ تتمنّى مجيئها منذ زمنٍ

بعيدٍ . لا توقِعها مهما حدث ، وإلا تكون هذه ساعتكَ الأخيرة!»

اكتفَى سكاليبر بمنح رونيا ابتسامَته الخالية من الأسنان ، وقال مشدوهًا وهو يؤرجِحها إلى الأعلى والأسفل بضع مراتٍ : «إنها لا تزنُ شيئًا .»

أغضبَ هذا ماتيس فانتزع طفلتَه منه وهو يصيح :

«ماذا توقّعتَ يا أبلَه؟ زعيمة لصوصٍ سمينة وضَخمة مع بطنٍ منفوخ ولحيةٍ مدبّبة ، ها؟»

عندئذٍ أدركَ جميع اللصوص أنهم يجب ألا يُعلّقوا بأي كلمةٍ عن هذه الرضيعة إذا أرادوا أن يبقى ماتيس في مزاجٍ جيّد . وحقًا لم يكن من الحكمةِ في



شيء أن يزعجَه أحد. ولذا انطلقوا إلى أشغالهم فورًا وهم يمدحون المولودة ويمجّدونها. وكذلك أفرغوا كميةً هائلةً من أباريق الجِعة على شرفها، وهذا أسعدَ ماتيس. ألقى جسمَه على مقعدِه العالي بينهم وتفاخَر بطفلته الرائعةِ مرارًا وتكرارًا.

«هذا سيُسمِّم حياةَ بوركا،» قال ماتيس. «يمكنه أن يجلسَ هناك في عرين اللصوص البائسِ ويصرّ أسنانَه حسدًا. نعم، موتٌ ودمارٌ! صدِّقوني، سيكون هناك صريرٌ هائل بحيث تضطرُّ الخطّافاتُ المخيفاتُ والأقزام الرمادية إلى سدِّ آذانها في غابة بوركا!»



هزَّ سكاليبر رأسَه بابتهاج ، وقال من خلال ضحكةٍ مكبوتة : «مؤكّدٌ تمامًا ، سيُسمِّمُ هذا حياة بوركا . فالآن يستمرّ نسلُ ماتيس ، لكن نسلَ بوركا مآلهُ إلى الزوالِ والفناءِ .»

«نعم ،» وافقَ ماتيس ، «الزّوال والفناء ، هذا حتميٌ كالموت! وحسب علمي لم يفلح بوركا في إنجاب طفلٍ ، ولا يبدو أنه سيفعل أيضًا .»

فجأةً ، دوّت قعقعةُ رعدٍ لم يسبق قطّ أن سُمع لها مثيلُ في غابة ماتيس . بل حتى جعلَت اللصوصَ الأشاوسَ يشحبون ، وتداعَى سكاليبر المسنُّ الواهن على ظهره ، وعلا صوتُ رونيا ببكاءٍ يائسٍ وضعيف على حين غرّة ، وهذا زعزعَ ماتيس على نحوٍ أسوأ مما زعزعه قصفُ الرعدِ .

«طفلتي تبكي!» زعقَ . «ماذا نفعلُ؟ ماذا نفعل؟»

لكن لوفيس التي بقيَت واقفةً بهدوء ، أخذت المولودةَ منه ولقّمتها ثديها وما عادَ هناك مَزيد من البكاء .

«تلك كانت قَعقَعة عَظيمة ،» قال سكاليبر بعد أن أفرخَ رَوعه قليلًا . «أُقسم بيميني الفانيةِ أنّ صاعقةً قد سقطَت .»

نعم ، نجمَت عن الرعد والبرق صاعقةٌ ، صاعقةٌ ذات شأن أيضًا ، كما تبيّن لهم عندما طلعَ الصباح . فالقلعةُ العتيدة على جبل ماتيس شُقّت من وسطِها ، من قمّةِ أسوارها إلى أعمق أقبيةِ سراديبها ، وغدت مشطورةً إلى نصفين وثمة هاوية تفصلُ بينهما .

«لقد استُهلّت حياتكِ اليانعة ببدايةٍ عظيمة يا رونيا ،» قالت لوفيس بينما وقفَت والرضيعةُ بين ذراعيها تُعاينُ الكارثةَ قرب الجدار المدمَّر .

أما ماتيس فتسمّرَ هناك والهياج يستعِر فيه مثل حيوان برّي .



متسائلًا كيف يمكنُ السماح لهذا أن يحدثَ في قلعةِ أسلافِه العتيدة؟ إلا أن ماتيس لا يستطيع أن يبقى غاضبًا من أي شيءٍ فترةً طويلة ، وفي وسعه دائمًا أن يعثرَ على الأسباب ليواسيَ نفسه .

«أوه ، حسنًا ، لن نضطرَّ الآن إلى أن نلفَّ وندور كثيرًا ، ولن تكون هناك حُفر أقبيةٍ ونفايات نبقيها تحت المراقبة . وربما لا أحدَ سيضلُّ طريقه في قلعة ماتيس من الآنِ فصاعِدًا . تذكّروا ماذا جرى عندما تاهَ سكاليبر ولم يظهر طوالَ أربعةِ أيام!»

لم يُسرّ سكاليبر إزاء تذكيره بهذه الحادثةِ . أكان الخطأ منه عندما ضلّ طريقه؟ آنذاك حاولَ فقط أن يكتشفَ ما مدى اتساع قلعة ماتيس وكم هي متعرّجة الممرات . وقد وجدها بالفعل ضخمةً بما يكفي لأن يتيهَ المرء فيها . ولمّا اهتدى أخيرًا إلى طريق القاعة الحجرية العظيمة بدا أقرب إلى الميتِ .

من حُسن حظّه يومذاك أن اللصوص عمدوا إلى إثارةِ ضجيجٍ صاخب ،

وجعجَعوا ، وخبطوا الأرضيةَ بكعوبِ نعالهم ، ليسمعَهم من مسافةٍ بعيدة ؛ وإلا لما تمكّن مطلقًا من أن ينجحَ في العودة .

«نحن على أي حالٍ لم نستخدم قطّ القلعةَ بأكملها ،» قال ماتيس ، «وسنواصلُ حياتنا في قاعتنا وغرفِ النوم وغرف البرج كما فعلنا دائمًا . الشيءُ الوحيد الذي يزعجني أننا فقدنا مرحاضَنا الخارجي . نعم ، موتٌ ودمارٌ! لقد أصبح في الطرفِ الآخر من الهوّةِ الآن ، وإني لأشعرُ بالأسف على أي فردٍ يعجزُ عن ضبطِ نفسه إلى أن ننتهيَ من بناءِ مرحاضٍ جديدٍ .»

لكن سرعانَ ما جرى التعاملُ مع تلك المشكلة ، واستمرّت الحياة في قلعةِ ماتيس كالسابق تمامًا ، ما عدا أنه أصبح فيها الآن طفلة . طفلةٌ صغيرة ، استطاعت تقريبًا وعلى مراحل ، كما رأت لوفيس ، أن تدفعَ ماتيس وجميعَ أفراد عصابته من اللصوص نحو الجنون . ولا يعني ذلك أنّه مِن المؤذي لهم أن يصبحوا ألطفَ قليلًا وأكثر دماثة ، إنما ينبغي أن يكون هناك اعتِدال في جميع الأمور . وقد كان من الغريب حقًا أن يرى المرءُ اثني عشر قاطع طريقٍ وزعيمهم يجلسون سعداءَ وفي غايةِ الحبورِ لمجرّد أن طفلةً صغيرةً تعلّمَت كيف تحبو في أرجاءِ القاعة الحجرية ، كما لو أنّه ما كانت هناك من قبلُ مُعجزةٌ أعظم على الأرض . صحيح أن رونيا حبَت في القاعة بسرعةٍ غير اعتيادية لأنها أتقنَت خدعةَ دفعِ جسمِها بقدمها اليسرى ، وهذا اعتبرَه اللصوص شيئًا مدهشًا بكلّ ما في الكلمةِ من معنى . لكن ، في النهاية ، يتعلّم معظمُ الأطفال الحبوَ ، كما قالت لوفيس ، بلا هتافاتٍ عالية ، ومن غيرِ أن يتخذَ منه الأبُ سببًا لينسى كلّ ما عداه ويهملَ عمله إهمالًا تامًا .

«أتريدون أن يستوليَ بوركا على الغنائِم كلّها في غابةِ ماتيس أيضًا؟»

سألتهم لوفيس بصوتٍ حادّ عندما اندفع اللصوصُ عائدين إلى البيت باكرًا

وماتيس على رأسِهم ، فقط لأنهم يريدون أن يروا رونيا تتناولُ عصيدتها قبل أن تضعها لوفيس في مهدِها المعلّقِ لتنام .

إلا أن ماتيس صمَّ أذنيه عن هذا الكلام .

«رونيتي ، يا حمامتي الصغيرة ،» صاح ، بينما راحت رونيا تدفعُ نفسها بعزمٍ بقدمها اليسرى ، وأقبلَت نحوه مجتازةً الأرضيةَ بسرعةٍ حالما دخل من الباب . ثم جلس وحمامتهُ الصغيرةُ على ركبتيه ولقّمها العصيدةَ ، واللصوص الاثنا عشر وقفوا مُتسمّرين يتفرّجون . كان وعاءُ العصيدة على الموقد وفي متناولِ اليد ، وبما أن ماتيس لم يكن بارعًا في استخدام قبضتيه الخشنتين المعتادتين على السلبِ والنّهب ، انسكبَ الكثيرُ من العصيدة على الأرضية ، وبين حينٍ وآخر خبطَت رونيا الملعقةَ بيدها ، بحيث جعلت كميةً كبيرةً من العصيدة تتناثر وتتطاير وتحطّ على حاجبي ماتيس . لما حدث هذا أولَ مرةٍ جلجلَت أصوات اللصوصِ بالضحك ، ففزعَت رونيا وبدأت تبكي ، إلا أنها سرعان ما أدركَت أنها اهتدَت إلى شيء مسلٍّ ، ففعلَت ذلك ثانيةً ، وهذا بالطبع أبهج اللصوصَ ولم يسرّ ماتيس كثيرًا . وما عدا ذلك ، رأى ماتيس أن كلّ ما تفعله رونيا لا يُضاهى ، وأنها هي بحدّ ذاتها لا نظيرَ لها على الأرض .

بل حتى لوفيس لم تستطع مقاومةَ الضحك وهي ترى ماتيس جالسًا هناك وطفلته على ركبتيهِ والعصيدةُ على حاجبَيه .

«ماتيس يا عزيزي ، مَن قد يخطرُ على باله في يوم أنكَ كنتَ أقوى زعيم عصابة قطّاع طرق في جميع الغابات والجبال! لو رآكَ بوركًا الآن لانفلقَ من شدّة الضّحك .»

«لن ألبثَ أن أضعَ حدًّا لهذا ،» قال ماتيس بهدوءٍ .

بوركا . . . بوركا كان العدوَّ اللدود . تمامًا كما كان والد بوركا وجدّه ألدّ أعداء والد ماتيس وجدّه . نعم ، منذ زمن سحيق والخصومةُ قائمة بين البوركيين والماتيسيين . هم لطالما كانوا قطّاع طرق ، ومصدرَ ترهيبٍ للناس المسالمين الذين يضطرون إلى عبور أعماقِ الغابات بخيولهم وعرباتهم حيث يكمنُ اللصوص في حالةِ ترصّد .

كان الله في عونِ أي شخصٍ تقوده الطريقُ إلى مسلكِ قطّاع الطرق . هذا ما قاله الناس دائمًا في إشارةٍ منهم إلى المجازِ الجبلي الضيّق بين غابة بوركا وغابة ماتيس . فهناك دأبَ اللصوص على الكمون والترقّب ، وسواء كانوا عصابةَ بوركا أو عصابةَ ماتيس لم يشكّل ذلك اختلافًا كبيرًا ، على الأقلّ بالنسبة إلى الذين يتعرّضون للسرقة . بيد أن الاختلافَ بالنسبة إلى ماتيس وبوركا كان جسيمًا . فقد تنازعوا على الغنائم من أجل البقاء ، بل حتى سلبَ بعضهم من بعضٍ بلا تردّدٍ إذا لم يعبر تجارٌ كُثر مجازَ اللصوص .

ما عرفَت رونيا شيئًا من هذا كلّه ؛ كانت أصغرَ من أن تدركَ . لم تعرف أن أباها زعيمَ عصابةِ لصوص يُخشى جانِبه . بالنسبة إليها كان ماتيس اللطيف الملتحي الذي ضحكَ وغنّى وصاحَ ولقّمها عصيدتها . ماتيس الذي تحبُّه .

لكنّها بدأت تكبرُ مع مرور الأيام ، وسرعانَ ما عمدَت إلى استكشاف العالمِ من حولها . لفترةٍ طويلة اعتقدَت أنّ القاعةَ الحجرية العظيمة هي العالم بأسره . وأحبّت المكان هناك ؛ شعرت بالأمان وهي تقبع تحت مائدة الطعام الطويلة الهائلة ، تلهو بالحصى وأكوازِ الصنوبر التي يحضرها لها ماتيس . وتلكَ القاعةُ الحجرية ليست بأي حالٍ مكانًا سيئًا بالنسبة إلى طفلٍ ، فالمرء يمكنُ أن ينعمَ بمرحٍ عظيم فيها ، ويمكنه أن يتعلّمَ الكثير .

أحبَّت رونيا كثيرًا الاستماعَ إلى اللصوصِ عندما كانوا يغنون حولَ النار في المساء . درجَت على الجلوسِ بهدوء تحت الطاولة تستمعُ ، إلى أن حفظَت أناشيدهم عن ظهرِ قلب . ثم بدأت تشاركهم الغناء بصوتٍ واضح كوضوحِ رنين الجرس ، ولطالما شُدِه ماتيس بطفلته الفريدةِ التي أجادت الغناء . بل حتى علّمت نفسَها الرقصَ أيضًا . إذ اعتادَ اللصوص إذا كانوا في مزاجٍ جيّد على القفزِ والرقص في أرجاءِ القاعة كالمجانين ، وسرعانَ ما استوعَبت رونياً ما ينبغي عمله . وهكذا رقصَت وطفرَت وأدّت قفزات اللصوص مُفرحةً قلبَ ماتيس . وبعد ذلك ، عندما يكلُّ اللصوص ويطرحون أجسامَهم إزاء الطاولة الطويلة لإرواء عطشهم بأباريق الجعةِ ، يبدأ ماتيس في التفاخرِ بابنته .

«اِعلَموا أنها بجمالِ الخطّافات الجامحات! مَرنةٌ مثلهن ، وتشبهُهن بسواد عينيها وشعرها . ما رأيتم قطّ في حياتكم مثلَ هذه الطفلةِ الرائعة ، نعم ينبغي أن تعرفوا هذا!»

واللصوصُ هزّوا رؤوسهم دائمًا ووافقوه . وغالبًا ما كانت رونيا تجلس مستكينةً تحت الطاولة مع أحجارها الصغيرةِ وأكواز الصنوبر ، وكلما وقعَت عيناها على أقدام اللصوص في نِعال الفراء الكثيف ، تخيّلت أنها قطيعُ ماعزٍ صعبُ المراس ، إذ سبق لها أن رأت بعضَها في زريبة الماعزِ لما اصطحبتها لوفيس معها لتحلبَها .

بَيد أن رونيا لم ترَ إلا ما يزيدُ قليلًا عن ذلك في تلك الفترة القصيرة من حياتها . وما عرفَت أي شيءٍ عمّا يقع خارج قلعةِ ماتيس . وفي يومٍ جميل أدركَ ماتيس ، وإن لم يرُقْهُ الأمر ، أنّ الوقتَ قد حان .

«لوفيس ،» قال لزوجته ، «يجب أن تستكشفَ طفلتُنا الحياةَ في غابة ماتيس . فاسمحي لها أن تذهب .»

«آها! أرى أنكَ لاحظتَ هذا أخيرًا ،» أجابت لوفيس . «لو تُرك الخيارُ لي لحدثَ هذا قبلَ الآن بوقتٍ طويل .»

ومنذُ ذلك الحين أصبحَت رونيا حرّةً في التجوّلِ كما تشاء . لكن أولًا كان هناك شيءٌ أو شيئان في جعبةِ ماتيس ليحذّرها منه .

«اِحترسي من الخطّافات الهمجيات والأقزامِ الرمادية ولصوص بوركا ،» قال .

«كيف لي أن أميّزَ بين الخطّافات والأقزامِ الرمادية أو لصوصِ بوركا؟» سألته رونيا .

«ستكتشفين ذلك ،» أجاب ماتيس

«حسنًا ،» قالت رونيا .

«وانتبهي لِئلا تضلّي طريقكَ في الغابةِ ،» قال ماتيس .

«ماذا أفعلُ إذا ضللتُ طريقي في الغابة؟» سألته رونيا .

«اعثري على الدربِ الصحيح ،» أجاب ماتيس .

«حسنًا ،» قالت رونيا .

«واحذري من السقوطِ في النهر ،» تابعَ ماتيس .

«ماذا أفعل إذا سقطتُ في النهر؟» سألته رونيا .

«اِسبحي ،» أجاب ماتيس .

«حسنًا ،» قالت رونيا .

«وانتبهي لِئلا تهوي في فوّهةِ الجحيم ،» أردفَ ماتيس ، وعنى بذلك الهوّةَ التي فلقَت قلعةَ ماتيس إلى نصفين .

«ماذا ينبغي أن أفعلَ إذا هويتُ في فوّهة الجحيم؟» سألته رونيا .

«حِينها لن تفعلي أي شيءٍ آخر ،» قال ماتيس ، ثم أطلق خوارًا عاليًا كما لو



أن الأشياءَ الشريرة كلّها وخزَت قلبه .

«حسنًا ،» قالت رونيا بعد أن توقّفَ ماتيس عن الخوار . «لن أهويَ في فوّهةِ الجحيم . أهناك شيءٌ آخر؟»

«نعم بالتأكيد هناك شيءٌ آخر ،» اختتمَ ماتيس . «لكنكِ ستكتشفين ذلك مع مرورِ الأيام . اِنطلقي الآن!»

٢

وهكذا انطلقَت رونيا . وسرعانَ ما أدركَت كم كانت مُغفلةً : كيف تراءى لي أنّ القاعةَ الحجرية العظيمة هي العالم بأسرهِ؟ العالمُ بأسرهِ ليس قلعة ماتيس الضّخمة ، وليس حتى جبلَ قلعةِ ماتيس العتيدة . لا ، العالمُ أكبر بكثير من ماتيس . هو عالم كبير جدًا إلى درجة أنه يخطفُ أنفاس المرء . طبعًا سبق لها أن سمعَت ماتيس ولوفيس يأتيان على ذكرِ أشياء خارج قلعة ماتيس ، تحدّثا عن النهرِ ،لكنها لم تستوعب ما هو النهر إلا بعد أن شاهدته يتقدّم مندفعًا في الأسفل عند سفحِ جبل ماتيس . وتحدّثا عن الغابة ، لكنها لم تستوعِب ما هي الغابة إلا بعدما رأتها ؛ مُغرقة في غموضِها وإبهامها ، بكلّ أشجارها الوارفة . وضحكَت في سرّها لأن الأشجار والغابات كانت هناك . وبالكاد صدّقَت ما تراه عيناها .

تتبّعت الدربَ مباشرةً نحو مناطق الغابة البِكر ووصلَت إلى البحيرة . كان





ماتيس قد طلبَ منها ألا تمضي إلى ما هو أبعد من ذلك . وهناك استقرّت البحيرةُ قاتمةً تتوسّط أشجار الصنوبر الداكِنة ، فقط زنابق الماء العائِمة على سطحها سطعَت بلونها الأبيض . لم تعرف رونيا أن تلك زنابق الماء ، غير أنها تأمّلتها طويلًا ، وضحكَت في سرّها لأن زنابق الماء كانت هناك .

بقيَت قربَ البحيرةِ طوال النهار ، وفعلَت أمورًا كثيرةً لم يحدث أن حاولَت فعلها من قبل . ألقَت أكواز الصنوبر في البحيرة ، وجرّبت دفعها بعيدًا بتحريكِ قدميها في الماء فقط . رأت أنها لم تحظَ في يوم بمثل هذا المرح . وعندما خاضت قدماها الماء ، بدا لها أنهما تشعران بالحريةِ وبسعادةٍ كبيرة ، بل حتى رأت أنهما سعدَتا أكثر عندما جعلتهما تختبران التسلّق ، فقد كانت هناك صخور طحلبية كثيرة حول البركة لترتقيها ، وأشجار صنوبر وأشجار تنوب لتتسلّقها . وهكذا تسلّقت رونيا وصعدت إلى أن بدأت الشمسُ تغرقُ وراء التلال المشجرة . عندئذٍ ، تناولت ما جلبَته معها من خبزٍ وحليب ، ثم استلقَت على الطحالب لتنال قسطًا من الراحة ، وأوراق الأشجار تحفّ فوق رأسها . استلقَت وراقبَتها ، وضحكت في سرّها لأن الأشجار كانت هناك ، ثم ما لبثت أن غفَت .

عندما صحَت اكتشفَت أن المساء قد جنحَ إلى العتمة ، وتسنّى لها أن تشاهدَ النجومَ المشعّة فوق قمم الأشجار . حينئذٍ أيقنَت أن العالم هو أكثر بكثير مما تراءى لها . وأحزنها أن ترى النجومَ ولا تتمكن من الوصول إليها مهما بالغَت في مدّ ذراعيها نحوها .

خمّنت أنها بقيَت في الغابة مدّة أطول مما سُمح لها ، وأنْ لا بدّ من أنْ تعود إلى البيت ، وإن لم تفعل فهي واثقة من أن ماتيس سيفقدُ عقلَه .

كان كلّ شيء غارقًا في الظلام من حولها ، باستثناء ضوء النجوم المنعكسِ على سطح البحيرة . إلا أنها لم تفزع من الظلام لأنها كانت على أُلفة معه . ففي ليالي الشتاء في قلعة ماتيس ، عندما تخمدُ شعلةُ النار ، تسود ظلمةٌ أشدّ حلكة من ظلمةِ أي غابة ، لا ، لم تشعر بالخوف من هبوطِ الظلام .

وبينما هي تهمُّ بالذهاب ، تذكّرت حقيبتها الجلدية التي جلبَت فيها زادها . كانت الحقيبة مستقرةً على الصخرة حيث جلسَت لتأكل ، لذا تسلّقت الصخرةَ في الظلام لتُحضرها . وخطرَ لها وهي تعتلي الصخرةَ أنها أصبحت أقرب إلى النجومِ ، فمدّت ذراعيها على أملِ أن تلتقط بعضها لتأخذها معها إلى البيت في الحقيبة الجلدية . إنما كان هذا بلا جدوى طبعًا ، وبالتالي حملَت حقيبتها وباشرت النزولَ .

ثمّ لمحت شيئًا أفزعها . أينما نظرَت بين الأشجار أبصرَت عيونًا تلمع ، وحول الصخرة حلقات عيونٍ مستديرة تسمّرت تحملقُ فيها ، لم تكن قد انتبهَت إليها ، وهي لم تر قطّ من قبل عيونًا تشعُّ في الظلام ، وما رأته لم ترتَح له .

«مَن أنتم وماذا تريدون؟» صاحت ولم تتلقَ أي جواب . بدلًا من ذلك بدأت العيون تزداد اقترابًا ، ببطءٍ ، مسافة قصيرة كلّ مرة . اقتربَت واقتربَت وأصواتها تدمدمُ في أذني رونيا . أصوات قاتمةٌ غريبة ومُغرقةٌ في القِدم تتمتمُ وتُدندن معًا .

«يا أقزام رمادية هيّا! بشريةٌ هنا! بشرية في غابة الأقزام الرمادية ، عضّي واضربي يا أقزام رمادية! يا أقزام رمادية هيّا! عضّي واضربي!»

فجأة أصبحَت تلك الأقزام أسفلَ الصخرة تمامًا ؛ مخلوقاتٌ رمادية غريبة تضمِر لها الشّر . لم تميّزها رونيا جيّدًا ، لكنها عرفَت أنها هناك ، وهذا جعلها تقشعرُّ .



أدركَت في تلك اللحظة مدى خطورة تلك الأقزام! الأقزام الرمادية التي حذّرها ماتيس منها . إلا أنها أدركت أيضًا أن أوان الحذرِ قد فات .

بدأت الأقزام في تلك اللحظة تضربُ الصخرةَ بالعصي والهراوات وبأي شيء آخر في متناولها . كان هناك قرعٌ وخبطٌ ودقّ رهيب في لجّة السكون العظيم ، فارتفع صوتُ رونيا بالصراخ خوفًا على حياتها!

عندما صرخَت ، توقّفت تلك المخلوقات عن خبطِ الصخرة ، إلا أنّ الصوتَ الجديد الذي سمعته جاء أسوأ ، إذ بدأت الأقزامُ الرمادية تتسلّق الصخرة ، وراحت تتزاحمُ في الصعودِ من جوانبها كلّها في الظلام . وسمعت رونيا حفيفَ أقدامها وتمتمتها : «يا أقزام رمادية هيّا ، عضّي واضربي!»

صرخَت رونيا بصوتٍ ثاقب من شدّة يأسها ، ولوّحت مستميتةً بالحقيبة الجلدية . أيقنَت أن يومها الأول في الغابة سيكون يومها الأخير في الحياة ، فتلك الأقزام لن تلبثَ أن تنقضّ عليها ، وبالتأكيد ستعضّها حتى الموت .

في تلك اللحظةِ بالذات سمعَت صياحًا أشبه بالزئير ؛ ولا أحدَ ، على حدِّ علمها ، يزأرُ بتلك الطريقة الرهيبة سوى ماتيس . نعم ، لقد جاء ، جاء مُنقذها

ماتيس يرافقه لصوصه كلّهم ومصابيحهم تشعّ بين الأشجار ، وصدى زئير ماتيس يتردّد في الغابة : «اِرحلي أيتها الأقزام الرمادية! ارحلي قبل أن أمزقكِ إربًا!»

عندئذٍ سمعت رونيا وقع ارتطامِ أجسامٍ صغيرة هرعَت تلقي نفسها من الصخرة ، وعلى ضوءِ المصابيح رأتها ؛ رأت مخلوقاتٍ رماديةٍ صغيرةِ الحجم تطلقُ سيقانها للريح في الظلام وتختفي .

تربّعت رونيا على حقيبتها الجلدية وانزلقَت عن الصخرة العالية . وفي غمضةِ عينٍ هبّ ماتيس والتقطها بذراعيه ، فاسترسلَت في البكاء وخضَبت لحيتَه بدموعها ، بينما حملها وعاد بها إلى القلعة .

«أصبحتِ تعرفين ما هي الأقزام الرمادية الآن ،» قال ماتيس لما جلسا قرب النار ليسرِيَ الدفءُ في قدمي رونيا الباردتين .

«نعم ، بتُّ أعرف الآن ما هي الأقزام الرمادية ،» أجابت رونيا .

«صحيح ، لكن ما لا تعرفينه هو كيف تتعامَلين معها ،» قال ماتيس . «إن خفتِ منها تشمُّ رائحةَ خوفكِ فورًا ، وحينها تصبحُ خطرةً .»

«نعم ،» تدخّلَت لوفيس . «هذا يشملُ مختلف الأشياء . لذا أفضل وسيلةٍ لكِ لتبقي في أمان هي ألا ينتابكِ الخوفُ في غابة ماتيس .»

«سأتذكّر هذا ،» قالت رونيا .

فتنهّد ماتيس وضمّها إليه بقوةٍ ثم قال : «أنت طبعًا تتذكّرين كلّ ما حذّرتكِ منه؟»

بالفعل تذكّرت رونيا كلّ ذلك . وفي الأيام التي تلت أولَت انتباهها لأي شيء يمكن أن يتضمّن الخطر ، وتدرّبت على ألا تخاف . وهكذا ، أخذَت حذرَها لئلا

تسقطَ في النهر كما قال ماتيس، فقفزَت وطفرَت ونطّت بتيقّظٍ على الأحجار الملساء على طول ضفّة النهر، حيث جرى بمزيدٍ من الاندفاع. أرادت أن تنزلَ نحو منبع الماء، ولتصلَ إليه كان عليها أن تنحدرَ من أعلى جبلِ ماتيس الشاهق بسفحهِ المتغلغلِ في النهر. وبهذه الطريقة تدرّبت أيضًا على ألّا تخاف. كانت محاولتُها الأولى شاقّةً، ومن شدّة فزعها اضطرت إلى إغلاق عينيها، ثم أصبحَت شيئًا فشيئًا أكثر جسارة، وما لبثَت أن عرفت مواضِع الشقوق، وأين يمكن أن تضع قدميها، وأين ينبغي أن تتشبّث بأصابع قدميها لترتكزَ عليها، ولا ترتمي إلى الوراء وتسقط في الماء المتدفّق بسرعةٍ.

يا له من حظٍّ طيبٍ، قالت لنفسها، أن أعثرَ على موضعٍ يمكنني فيه أن أحتاط كي لا أسقط في الماء، وأن أتدرّب على ألّا يعتريني الخوف!

وعلى هذا النحو مرّت أيامُها. احتاطَت رونيا من كلّ شيء، وتدرّبت أكثر مما توقّع ماتيس ولوفيس. وفي النهاية أصبحَت مثل حيوانٍ بري مُعافى، قويةً وسريعةً ولا تخشى شيئًا. لا من الأقزام الرمادية، ولا الخطّافات المؤذيات، ولا من أن تضلَّ طريقها في الغابة أو تسقطَ في النهر. وإلى ذلك الحين لم تكن قد استكشفت فوّهة الجحيم بعد، وخطّطت أن تفعلَ في أقرب وقتٍ.

إضافةً إلى ذلك، استكشفت قلعةَ ماتيس صعودًا إلى المتاريس. ووجدت طريقها إلى الغرفِ المهجورة كلّها؛ غرف لم يضع أحدٌ قدمًا فيها قطّ، ولم تضل طريقها وهي تتفقّد السراديب السفلية، ولا التجاويف المظلمة أو الأقبية.

أصبحت مُلمَّة بكافة ممراتِ القلعة السرّية، ودروب الغابة الخفية. إلا أنها أحبّت الغابة أكثرَ من أي شيء آخر، وفيها جرت بحرّيَّة بقدرِ ما دام النهار.

وعندما يحلّ المساء ويخيّم الظلام والنار تشتعل في موقدِ القاعة الحجرية ، تعود إلى البيت مرهقةً بعد كلّ بحثها وتدرّبها . وآنذاك يكون قد حان موعد عودة ماتيس وعصابته من حملاتهم الاستطلاعية ، فتجلس رونيا أمام النار معهم وتردّد أناشيد اللصوص . أمّا بالنسبةِ إلى حياة اللصوصية التي يحيونها فلم تعرف عنها شيئًا . ولطالما رأتهم يعودون إلى البيت في المساءِ ومعهم بضائع على ظهورِ خيولهم ؛ مختلف أنواع البضائع في أكياسٍ وحقائبَ جلدية وعلبٍ وصناديق . لكن لم يخبرها أحد من أين جاءت تلك الأشياء ، وهي لم تتساءل من أين أتَت أكثر مما تساءلت من أين يأتي المطر . فالأشياء كانت هناك فقط ، وهي سبق أن لاحظَت ذلك من قبل .

سمعَتهم أحيانًا يتحدّثون عن لصوص بوركا ، وفي تلك الأحيان تتذكّر أن عليها التزام جانبِ الحذر منهم أيضًا ، غير أنها حتى تلك الآونة لم تلمح أيًّا منهم .

«لو لم يكن بوركا نذلًا ، لشعرتُ تقريبًا بالأسى عليه ،» قال ماتيس في مساء يوم ما . «علمتُ أن الجنودَ يتعقّبونه في غابة بوركا ، وما عادوا يتركونه لحظةً واحدة بسلامٍ في هذه الأيام . وقريبًا يرغمونه على الخروج من عرين اللصوص الذي يحتمي فيه . نعم ، نعم ، إنه شيطان وضيع . ولذا لا أهمية لما يحدثُ له ، وما يمكن أن يحدث لا يشكّل أي فرق . . .»

«لصوصُ بوركا مجرّدُ شياطين وضيعة ،» انبرى سكاليبر يقول . ووافقَه جميع الحضور على ذلك .

أليسَ من حُسن الحظّ أن لصوصَ ماتيس أفضل بكثيرٍ؟ فكّرت رونيا وهي

تتأمّلهم بينما جلسوا إلى الطاولة الطويلة يبتلعون حساءهم. كانوا مُلتحين ومُتسخين وصاخبين وطائشين، لكن لن يصلَ إلى سمعها أن أحدًا سيقول عنهم إنهم شياطين وضيعة. سكاليبر وبيليه وفولوكس وجوتو وجوب وكاليس ونوتي وتايبر وشاغي وتريم وبمبر وليتل سنيب. كانوا كلّهم رفاقها، وهي تدركُ تمام الإدراك أنهم على استعدادٍ لأن يخوضوا الجحيم ويعانوا الأمرّين من أجلها.

«يسرّني أنني أعيش في قلعة ماتيس،» قال ماتيس. «نحن آمِنون هنا كالثعلب في وِجاره والنسرِ في عشّه. وإذا كان الجنود حمقى بما يكفي ليأتوا إلى هنا سعيًا وراء المشاكل فسيندمون أشدّ ندمٍ!»

«حينذاك نرسلهم إلى الجحيم مباشرة،» هتف سكاليبر بحماسةٍ. ووافقه اللصوص، وسخروا من مجرّد التفكير في الحمقى الذين قد يحاولون اقتحامَ قلعة ماتيس. القلعة المتربّعةُ على قمةِ جبل شاهق، يتعذّر الوصول إليها من أي جانب ما عدا الطرف الجنوبي حيث يمتدّ معبرُ خيولٍ ضيق يتعرّج نزولًا نحو سفح الجبل ويختفي في الغابة. أمّا الجهات الثلاث الأخرى فتحيط بها مُنحدرات عمودية، ومَن ذاكَ الأبله الذي قد يحاول تسلّقها؟ تهكّمَ اللصوص وسخروا من غير أن تكون لديهم أي فكرةٍ عن الأماكن التي ارتادتها رونيا لتتدرّب على قهرِ الخوف.

«وإذا صعدوا ليسلكوا معبرَ الخيول سيتسمّرون في أرضهم عند عَطفةِ الذئاب،» قال ماتيس. «فهناك يمكن أن نحتجزَهم بدحرجة الصخور عليهم، وأشياء أخرى غيرها إذا استدعَى الأمر!»

«أشياء أخرى غيرها إذا استدعى الأمر!» ردّدَ سكاليبر وهو يقهقه متخيّلًا طريقةَ اعتراضِهم سبيل الجنود عند عَطفة الذئاب. ثم أضاف: «في أيام عِزّي

اصطدتُ الكثير من الذئاب هناك . أما الآن فأنا أكبر سنًا من أن أصطاد أي شيء ما عدا براغيثي . أوه ، واه ، نعم!»

لم يغِبْ عن ذهن رونيا أن الشعور بالتقدّمِ في السنّ يُحزن سكاليبر ، لكنها لم تفهم لماذا قد يأتي الجنود وغيرهم من الأغبياء ليثيروا المتاعبَ عند عَطفة الذئاب . كانت على أي حال تشعرُ بالنعاس ، ولم ترغب في إعمالِ فكرها لتعرفَ السبب . بدلًا من هذا تسلّلت إلى سريرها واستلقَت صاحيةً هناك إلى أن سمعَت لوفيس تنشدُ أغنية الذئاب ، كما درجت أن تفعل كلّ مساء عندما يحين الوقتُ ليغادرَ اللصوص أماكنهم حول النار ويذهبون إلى حجرات نومهم . إذ لا أحدَ نام في القاعة الحجرية سوى رونيا ولوفيس وماتيس . وقد أحبّت رونيا دائمًا الاستلقاء في سريرها ، ومراقبةَ نار الموقد تتوهّجُ وتخمد من خلال الفرجة بين الستائر ، بينما تصدحُ لوفيس بأغنيتها . تلك الأغنية التي ، بقدرِ ما تتذكّر رونيا ، لطالما سمعَت أمّها تنشدها ، معلنةً بها أن وقتَ النوم قد حان . لكنها اعتادت قبل أن تُطبِق جفنيها أن تقول لنفسها بسعادة ؛ غدًا أنهضُ ثانيةً!

في اليوم التالي قفزَت رونيا من سريرها حالما طلع نهارٌ جديد ، وفي نيّتها الخروج إلى الغابة مهما كانت حال الجوّ ، ولم تلبث لوفيس أن ناولتها حصّتها من الخبز لتضعَها في حقيبتها الجلدية التي تأخذها معها .

«أنتِ طفلةُ عاصفةِ ليل رعدية ،» قالت لها لوفيس . «وأنتِ طفلةُ ليلةٍ من ليالي السحر . ومعروف أنّ مثلَ هؤلاء الأطفال يمكن أن يتحوّلوا بسهولة إلى همجٍ صغار . لذا ما عليكِ إلا أن تحترسي من الوقوع في براثن الخطّافات!»

سبق أن شاهدَت رونيا أكثر من مرّة الخطّافات الهمجيات يحلّقن فوق الغابة ،

وكلّما رأتهن زحفت مبتعدةً واختبأت منهن . فتلك الخطّافات تعتبر الأشدّ خطرًا من أي شيءٍ آخر في غابة ماتيس . اِحذري منهن إذا أردتِ أن تبقي حيّة! كان ماتيس قد قال لها . وبسببهن على الأغلب سعى ماتيس إلى إبقاءِ رونيا في القلعة مدّة طويلة . كانت الخطّافات جميلات ومجنونات وشرسات ، ولطالما فتّشن بعيون



مُتحجرة الغابةَ بحثًا عن ضحية يمزقنها إربًا بمخالبهن الحادّة إلى أن تنزف منها الدماء .

لكن ولا أي واحدة من الخطّافات الهمجيات يمكن أن تخيفَ رونيا وتصدّها عن دروبها وأماكنها التي عاشت فيها حياةَ عُزلتها في الغابة . نعم ، كانت تعاني من الشعور بالوحدةِ ، إلا أنها لم تفتقِد أحدًا معينًا . إذ مَن يمكن أن تفتقدَ؟ لكن أيامَها التي عَمرت بالحيوية والمرح ، مرّت بسرعة . وما لبثَ الصيفُ أن انقضى وأقبل الخريف . كان جنونُ الخطّافات مع قدومِ الخريفِ يزداد أكثر بكثيرٍ من ذي قبل . وفي يومٍ طاردن رونيا عبر الغابة إلى أن شعرَت أن الخطرَ باتَ وشيكًا . طبعًا كان باستطاعتها أن تجري مثل ثعلب ، وطبعًا عرفَت مخابئ الغابة كلّها ، لكن الخطّافات طاردنها بعناد ، وصراخهن الثاقب يدوي في أذنها : «هوه هاه ، بشريةً صغيرة وجميلة ، سينزف الدّم الآن! هوه هاه!»

غاصَت رونيا في البحيرة ، وسبحت تحت الماء إلى الضفّة الأخرى ، ثم تسلّلت زاحفةً واختبأت تحت شجرة تنوب وارفةٍ . ومن مكمنِها سمعت سرب الخطّافات وهو يحلّق باحثًا عنها ويزعق من شدّة الغيظ .

«أين البشرية الصغيرة ، أين هي ، أين هي؟ اخرجي لنخدشكِ ونمزقكِ شرّ تمزيق! الدّم سيسفك الآن! هوه هاه هوه!»

بقيَت رونيا متواريةً إلى أن لمحت الخطّافات تبتعد وتختفي فوق رؤوس الأشجار . لم تشأ بعد ذلك أن تبقى في الغابةِ أكثر مما بقيَت . وبما أنّه ما زالت هناك عدّةُ ساعات قبل حلولِ المساء وسماعِ أغنية الذّئاب ، بدا لها أن الوقت قد حان لتفعلَ ما خطّطَت له منذ مدّةٍ ؛ الصعود إلى سطح القلعة وتفقّد فوّهة الجحيم .

كانت قد سمعَت عدّة مرّاتٍ كيف انشقّت قلعةُ ماتيس إلى نصفين ليلة وُلدت . وماتيس لم يسأم قطّ من سردِ هذه الواقعة .

«موتٌ ودمارٌ ، يا لَه من فلق! ليتكِ استطعتِ سماعَه . . . حسنًا ، مؤكّد أنه بلغَ مسمعكِ . مولودةٌ مُنمنمة ورائعة كنتِ ، ثم بووم! أصبح لدينا قلعتان بدلًا من واحدةٍ ، تفصلهما هوّةٌ . ولا تنسي أبدًا ما قلته لكِ ، احترسي من فوَّهة الجحيم!»

وذاك ما نوَت أن تفعلَه بالضبط . رأت أنّه أفضل ما يمكنها القيام به بعدما جنّ جنون الخطّافات اللاتي اقتحمن الغابة وطاردنها .

صحيح أن رونيا صعدت إلى سطح القلعة بين حينٍ وآخر ، إلا أنها لم تقترب مطلقًا من الهوّةِ الخطرةِ الفاصلةِ فصلًا حادًّا بين شَطري القلعة ، بلا سورٍ واقٍ . وهكذا زحفت قُدمًا على بطنِها واسترقَت النظر إلى الأعماق . ياه ، كانت بلا شكّ أسوأ مما خُيّل إليها!

التقطَت إحدى الأحجار الفالتةِ المستقرّة على الحافة ورمتها في فوَّهة الجحيم ، وعندما سمعَت الحجر يحطّ عميقًا ، عميقًا جدًّا ارتعشت . جاء وقعُ ارتطامه مكتومًا وفي منتهى البُعد . نعم ، تأكّدَت من أنّ هذه هوّة يجب حقًّا الحذر منها! لكن الفرجةَ الفاصِلة بين شطري القلعة لم تكن واسعة كثيرًا . ويمكن أن يجتازها المرءُ بقفزةٍ واحدةٍ مِقدامةٍ! إنما لا أحد حتمًا بلغ به الجنونُ هذه الدرجة . لا ، إنما ربما هذه طريقة مناسبة لتتدرّبَ وفقَ أسلوبها المعتاد . تفحّصت الهوّة مرّة أخرى . . . أوف . . . كم هي عميقة! ثم تلفتَت تنظرُ بحثًا عن البقعة الأنسب للشروع في أداء قفزتها . وفي تلك اللحظة رأت شيئًا كادت بسببهِ تسقط في فوَّهة الجحيم من هولِ المفاجأة .

على مسافةٍ غير بعيدة من طرف فوَّهةِ الجحيم الآخر ، أبصرَت شخصًا جالسًا ، شخصًا يماثلُ حجمُه حجمَها تقريبًا ، جلس مدلّيًا ساقيه في الهوّة .

تعرفُ رونيا أنها ليست الطفلةَ الوحيدة في العالم . وأنها ببساطة الطفلةُ الوحيدة في قلعةِ ماتيس وفي غابة ماتيس . وقد أخبرتها لوفيس أن هناك الكثير جدًّا من الأطفال في الأماكن الأخرى ، وأنهم من نوعين : أطفالٌ عندما يكبرون يصبحون مثل ماتيس ، وأطفال يكبرون ويصبحون مثل لوفيس . وفي ذلك اليوم أدركَت ضمنًا أن الشخصَ الجالس وساقاه متدليتان في فوَّهة الجحيم سيصبح مثل ماتيس عندما يكبر .

لم يكن قد لاحظَها بعد . فراقبته وهو جالسٌ هناك ، وضحكَت بينها وبين نفسها لأنه كان هناك .

٣

والصَّبي رآها ، وهو أيضًا ضحك .

«أعرفُ مَن أنتِ ،» هتف . «أنتِ بنت ذلك اللصّ الذي يصولُ ويجول في الغابة . رأيتكِ هناك مرّةً .»

«ومَن أنتَ؟» سألته رونيا . «وكيف بحقِّ السماء جئتَ إلى هنا؟»

«أنا بيرك بوركاسون ، وأنا أعيش هنا . انتقلنا ليلةَ أمس .»

حملَقت رونيا فيه . «مَن تقصدُ بـ نحن؟»

«أنا وبوركا وأنديس واثنا عشر لصًا .»

مرّت فترةٌ قصيرة من الوقت قبل أن تستوعبَ رونيا الكلمات التي لا تُصدَّق ، وأخيرًا قالت : «أتعني أنّ القلعةَ الشماليةَ مكتظّةٌ الآن بشياطينَ قذرةٍ؟»

ضحكَ . «لا ، لا أحدَ هنا سوى عصابة بوركا ، لكن هناك حيث تعيشين ، المكان مكتظّ بشياطينَ قذرةٍ . هذا ما يقوله أهلي دائمًا .»

هذا إذًا ما يقولونه دائمًا! سرعانَ ما بدأت رونيا تغلي حنقًا ، بيد أنّه كان بانتظارها ما هو أسوأ .

«على أي حالٍ ،» قال بيرك ، «هذه ما عادت القلعة الشمالية . منذُ ليلة أمس أصبح اسمها مَعقِلَ بوركا . ما عليكِ إلا أن تتذكّري ذلك!»

لهثَت رونيا من شدّة الغضبِ . مَعقِل بوركا! هذا يكفي حقًا لأن يصيبَ المرءَ بالاختناق! يا لهم من محتالين لصوص بوركا هؤلاء! وذاك النذلُ المبتسمُ الواقف هناك ليس إلا واحدًا منهم!

«موتٌ ودمارٌ ،» صاحت . «اِنتظر حتى يسمعَ ماتيس عن هذا . حينها سترى بوركا ولصوصَه كلّهم يتشتتون بضربةٍ واحدة!»

«هذا ما يتهيأ لكِ ،» قال بيرك .

كانت رونيا في تلك اللحظة تفكّر في ماتيس ، فارتعشَت من مجرّد التفكير في ذلك . إذ سبق أن رأته يحتدمُ غضبًا ، ولم يغِب عن ذهنها كيف يكون الوضع آنذاك . أدركت أن قلعةَ ماتيس ستنشطر إلى نصفين من جديد ، وهذه الفكرة جعلتها تئنّ .

«ماذا أصابكِ؟» سألها بيرك . «ألستِ على ما يرام؟»

لم تجِب رونيا . لقد سمعَت ما يكفي من الكلام . كلام كافٍ من النذالةِ والوقاحة . لا بدّ من القيام بعملٍ ما . قريبًا يعود لصوصُ ماتيس إلى البيت ، وبعد ذلك الموت والدمار ، وسيُطرد من قلعة ماتيس ، وعلى نحوٍ أسرع مما جاء ، كلّ شيطانٍ وضيعٍ وقذر من عصابة بوركا!

نهضَت وهمّت بالذهاب ، لولا أنها رأت ما ينوي بيرك القيامَ به . كان يستعدّ ليطير عبر فوّهةِ الجحيم! وقفَ عند الطرفِ الآخر من الهوّة ، مقابلها تمامًا ، وبدأ يجري .

فصاحت ، «إذا جئتَ إلى هنا ، سألكمكَ لكمةً هائلة تجعل أنفكَ يسقط!»

«ها ، ها ،» سخرَ بيرك منها وقفز . أصبح فوق فوّهة الجحيم . «حاولي تقليدي إذا استطعتِ ،» صاحَ وهو يبتسم .

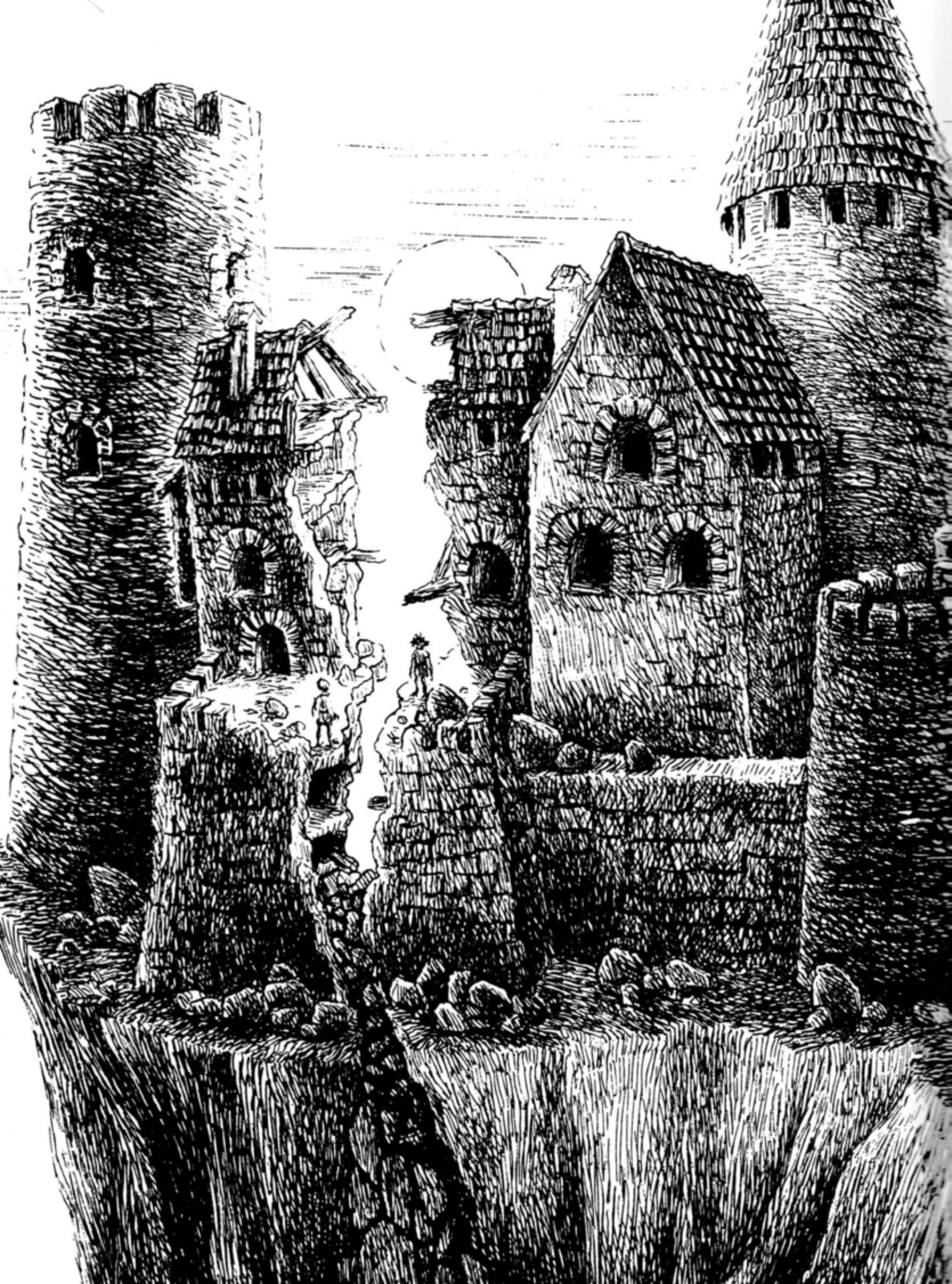
بالتأكيد ما كان يجدرُ به أن يقولَ ما قاله ، فذاك أكثر مما تستطيع تحمّله . وبالفعلِ ، حطّ هو وجزمته القذرة على سطحِ قلعة ماتيس . لكن ، قالت لنفسها : لا أحدَ من لصوصِ بوركا سيفلحُ في إنجاز قفزات يعجز أي فردٍ من لصوص ماتيس عن تقليدها!

وقلّدَت تلك القفزة . هي نفسها لم تُدرك كيف فعلَت ذلك ، فقط ، وجدَت نفسها تطير فجأة فوق فوّهة الجحيم وتحطّ على الجانبِ الآخر منها .

«لستِ سيئة جدًا ،» قال بيرك ، وبعد ثانيةٍ قفزَ وراءها .

بيد أنّ رونيا لم تنتظرْه . بقفزةٍ أخرى طارت متجاوزةً فوّهة الجحيم . وفي وسعه أن يقفَ ويحدّق فيها بقدر ما يحلو له!





«نويتِ أن تلكميني ، فلماذا لم تفعلي؟» قال بيرك . «أنا قادمٌ إليكِ!»

«هكذا إذًا ،» هتفَت رونيا . وهذه المرّة لم تنتظره أيضًا ، بل سارعت إلى القفز من جديد ، وفي نيّتها ألا تتوقّف عن القفز جيئةً وذهابًا إلى أن لا يتبقّى نفَسٌ واحد في جسدها إذا استدعى الأمر ، كي تظلّ بمنأى عنه .

وهكذا ، توقّف كلاهما عن الكلام ، واكتفيا بالقفز . بشراسة وعلى نحو مسعورٍ قفَزا ذهابًا وإيابًا فوق فوَّهة الجحيم ، ولا شيء يُسمعُ منهما سوى لهاثهما . الغربان فقط التي قبعَت على المتاريس أخذت تنعقُ من وقت لآخر . ما عدا ذلك كان



الصمتُ يلفُّ كلَّ شيء . بدا الأمرُ كما لو أنّ قلعةَ ماتيس بأكملها المستقرّة على قمّة الجبل قد حبسَت أنفاسها بانتظار حدوث شيء فظيع حقًّا في أي لحظةٍ .

نعم ، فكّرَت رونيا ، قريبًا ننتهي معًا في قعر فوَّهةِ الجحيم . إنما على الأقل سيضعُ سقوطنا حدًّا لهذا القفزِ الأبدي!

عاد بيرك وأقبلَ طائرًا فوق الهوّةِ من جديد ، قادمًا نحوها مباشرةً ، واستعدَّت لتقفز بدورها . ما عادت تملكُ أدنى فكرة عن عدد المرّات التي قفزَتْها . شعرَت أنها ما فعلت قطّ أي شيءٍ آخر في حياتها سوى القفز ذهابًا وإيابًا فوق الهوّة لتتحاشى نفايةَ بوركا ذاك!

ثمّ فجأةً رأت بيرك يفقدُ توازنه ويزلّ بسبب حجرٍ مخلخلٍ يستقرّ على الحافة حيث حطّت قدماه تمامًا ، وسمعَته يزعق قبل أن يختفي في الأعماق .

بعد ذلك لم تسمع سوى الغربان . أطبقَت جفنيها وتمنّت لو أن هذا اليوم لم يأتِ قطّ . وأن بيرك لا وجودَ له . وأنهما لم يقفزا مطلقًا .

أخيرا تلوّت زاحفةً على بطنها ونظرَت في فوّهة الجحيم . هناك رأت بيرك . كان يقف على نتوءٍ أسفل منها بالضبط ، يقف على حجرٍ أو دعامةٍ أو أيٍّ ما كان ذاك البارز من الجدار الصخري المهشَّم . وليست هناك أي فسحة سوى ما يكفي قدميه ، لا أكثرَ من ذلك . هناك تشبّثَ وأعماق فوّهةِ الجحيم تحته ، يداه تتحسّسان باستماتةٍ أيّ موضعٍ لتتشبثا به ، أي شيء يمكن أن يحولَ بينه وبين التهاوي نحو أعماق الجحيم . لكنه عرف ، ورونيا أيضًا عرفَت أنه لن يخرجَ بلا مساعدة ، وإلا يبقى في مكانه متشبثًا إلى أن يفقد القدرةَ على الاستمرار . معًا أدركا ذلك . وفي هذه الحال لن يكون هناك ، أي بيرك بوركاسون .

«اصمُد ،» قالت رونيا .

فأجاب مع ابتسامةٍ صغيرة : «حسنًا ليس هناك شيءٌ آخر أكثر من هذا لأفعلَه هنا!»

كان خائفًا طبعًا ، وفي وسع أيّ شخصٍ أن يلاحظ ذلك .

انتزعَت رونيا الحبلَ الجلدي المجدولَ الذي علّقته دائمًا في حزامها ملفوفًا على شكلِ كرةٍ . وذلك الحبل ساعدها عدّة مرّات خلال تسلّقِها وصعودِها في حياة الغابة التي مارسَتها . صنعَت حلقةً كبيرةً عند نهاية الحبل وربطَت النهاية الأخرى حول جسمها . ثم دلّت الحبل لبيرك . لمحت وميض الأمل في عينيه بينما تدلّى الحبلُ فوق رأسه . نعم ، رأت أن طولَه مناسبٌ ، وهذا أيضًا ما تبيّنه ذلك المحتالُ البوركي!

«ضعه حولكَ إذا استطعتَ أن تفعل ،» قالت . ثم يمكنكَ أن تباشر التسلّق عندما أُعلِمك ، وليس قبل ذلك!»

كانت العاصفة التي اهتاجَت ليلةَ وُلدت رونيا ، قد قصمَت كتلةً حجرية من المتاريس . وبضربة حظّ استقرّت تلك الكتلة على مسافةٍ ليست بعيدة عن حافة الهوّة . انبطحت رونيا وراءَ الكتلةِ الحجرية العظيمة ثم صاحت : «ابدأ الآن!»

وفي الحال شعرت بالحبل يضغطُ حول خصرها ويَضيق . آلمها ذلك . جعلتها كلّ جذبةٍ من الحبل تشهقُ من هول الوجع ، بينما أخذ بيرك يتسلّق .

قريبًا سأُشطرُ إلى نصفين مثلَ قلعة ماتيس تمامًا ، فكّرَت وهي تُطبق أسنانها لتمنعَ نفسها من الصراخ .

ثم فجأةً توقّف الضغط ، وإذا ببيرك يقف أمامَها ينظر إليها . بقيَت منبطحةً

حيث هي ، متسائلةً ما إذا كانت ما زالت قادرةً على التنفّس . أما هو فانبرى يقول : «هذا حيثُ أنتِ إذًا!»

«نعم ، هذا حيثُ أنا ،» أجابت رونيا . «اكتفيتَ من القفزِ الآن؟»

«لا ، علي أن أقفزَ مرةً أخرى لأعود إلى الطرف الآخر . يجب أن أعود إلى البيت ، إلى مَعقِل بوركا كما تعلمين .»

«اِنزع عنكَ حبلي الجلدي أولًا!» قالت رونيا وهي تنهضُ . «لا أريد أن أبقى معلّقةً بكَ أكثر مما ينبغي .»

سحبَ الحبل وقال : «لا ، طبعًا لا . لكن بعد هذه الحادثةِ ربما سأبقى أنا معلّقًا بكِ بلا أي حبل ، على الرغمِ من كلّ شيء .»

«ليس في حياتكَ ،» تصدّت له رونيا . «أنتَ ومَعقِل بوركا ذاك . اِرحل من هنا!»

كوّرَت قبضتها ولكمَته على أنفه مباشرةً .

ضحكَ . «حسنًا ، لا تكرري هذا مرّةً أخرى ، خُذي بنصيحتي! لكن كان لطيفًا منكِ أن تنقذيني ، وأنا أشكركِ على ما فعلتِه .»

«قلتُ اِرحَل من هنا ،» صاحت رونيا ، وسارعت تجري بعيدًا من غير أن تلتفتَ .

عندما وصلت إلى الدَّرج الحجري الذي يقودُ من المتاريس إلى قلعة ماتيس ، سمعَت بيرك يصيح ، «يا أنتِ ، يا بنتَ اللصّ ، سأراك من جديد!»

التفتَت برأسها ورأته يستجمعُ قواهُ ليقفز قفزته الأخيرة .

«أتمنّى أن تزلّ قدمكَ ثانية ، أيها الشيطانُ القذر!» ردّت صائحةً .



* * *

كان ما حدثَ بعد ذلك أسوأ مما توقّعَت . فالغضبُ الهائل الذي اجتاحَ ماتيس جعلَ حتى أفراد عصابته من اللصوص يَفرَقون .

وفي البداية لا أحدَ صدّقها ، وللمرّةِ الأولى في حياتها غضبَ عليها ماتيس .

«قد يكونُ في القليل من الكذب والزعمِ الباطل شيءٌ من المرحِ أحيانًا . ولكن عليكِ أن تتوقّفي عن الادّعاء . لصوصُ بوركا في قلعة ماتيس ، فعلًا! أي هراءٍ هذا! إنه يجعل دمي يغلي حتى مع عِلمي بأنها كذبةٌ .»

«إنها ليسَت كذبة ،» اعترضَت رونيا . ومِن جديد حاولت أن تروي له ما علِمَته من بيرك .

«أنتِ تكذبين ،» صاح ماتيس . «بوركا ليسَ لديه ولد في المقامِ الأول . لا يمكنه أن ينجبَ الأطفال ، هذا ما قِيل دائمًا .»

اِلتزم اللصوصُ الصَّمتَ إزاء ما سمعوه ، ولم يتجاسَر أحدٌ منهم على النُّطق بكلمةٍ . وفي النهاية فتح فولوكس فمَه .

«حسنًا ، يُقال أنّه قد أنجب صبيًا ، على الرّغم من كل شيء . يُقال إن آنديس أنجبته في جوّ من الرعب الشديد ليلةَ هبّت تلك العاصفة العاتية ، عندما وُلدت رونيا ، أتتذكّر؟»

اِتسعَت عينا ماتيس . «ولا أحدَ أخبرني! أهناكَ شيءٌ آخر شيطاني يجب أن أطّلعَ عليه؟»

نظرَ من حوله محتدمًا ، وانتزعَ وهو يجأرُ إبريقي جِعة ، واحِدًا في كلّ قبضةٍ ، وقذفهما نحوَ الجدار ، وفي الحال فارت الجِعة وتدفّقَت .

«والآن فرخُ الثعبان البوركي يتنعّمُ بالجلوس على سطح قلعة ماتيس؟ وأنتِ يا رونيا تبادلتِ معه الحديث؟»

«هو من بادَرني بالكلام ،» قالت رونيا .

بصرخةٍ أخرى تناول ماتيس فخذَ الضأنِ المستقرّ على مائدةِ الطعام الطويلة وقذفه نحو الجدار بعنفٍ ، فسالَ الدّهنُ منه وتطايرَ .

«وفرخُ الثعبانِ ذاكَ زعمَ ، كما تقولين ، أنَّ أباه البربري انتقل إلى القلعةِ الشمالية مع لصوصِه السفلة؟»

خشيَت رونيا من أن يستعِر غضبُ ماتيس أكثر فأكثر بحيث يفقدُ عقله إذا سمع المزيد عن ذلك . إلا أنّ الهياجَ مطلوبٌ إذا كانت عصابة بوركا ستُطرد ، ولذا

أجابت : «نعم ، وأطلقوا عليه اِسم مَعقِل بوركا ، ما عليكَ إلا أن تتذكّر هذا!»

بصرخةٍ ثالثةٍ استولى ماتيس على قدرِ الحساء المعلّقِ فوق النار وقذفه نحو الجدار ، فتناثر في الأرجاء شلّالٌ من الحساء .

بقيَت لوفيس جالسةً بصمتٍ تستمع وتراقِب . وفي النهاية بانَ عليها الغضبُ بوضوح . فتناولَت سلّة بيضٍ جُمِع مؤخّرًا من قنّ الدّجاج ، وتقدّمت نحو ماتيس قائلة : «خُذ ، ولكن عليكَ أن تنظّفَ ما تخلّفه بعد ذلك ، لا تنس هذا!»

أخذ ماتيس البيضَ وبعواءٍ مرعبٍ قذف البيض تجاه الجدار ، بيضة تلو بيضة ، إلى أن أصبح صفار البيض يجري في المكان . ثم صاح : «آمنون مثل الثعلبِ في وِجاره والنّسر في عشّه . . . هذا ما قلتُه . والآن . . .»

ارتمى ماتيس على الأرضية وهو على ما هو عليه من ضخامة ، وبقيَ منبطحًا هناك ، يصيح ويجأر ويشتمُ إلى أن تعبَت لوفيس منه وملّت .

«هذا يكفي الآن ،» قالت أخيرًا . إذا كان لديكَ قملٌ في معطفكَ فالزئير لن يخلّصكَ منه . اِنهض وافعَل شيئًا بخصوصه .»

في هذه الأثناء كان اللصوص جالسون حول الطاولة . فالتقطَت لوفيس فخذَ الخروف المستقرّ على الأرضية ومسحته قليلًا .

«أصبح على الأرجح أطرى نوعًا ما ،» قالت بنبرة مواسية وبدأت تقتطعُ شرائح سميكة لأفرادِ العصابة .

تحامَل ماتيس على نفسه ونهض بوجهٍ مكفهرٍّ وأخذ مكانه إلى الطاولة مع الآخرين . إلا أنه لم يأكل . قبعَ هناك ورأسه الأسود الأشعث بين يديه ، وهدرَ بينه وبين نفسه ، مطلقًا أحيانًا آهة هائلةً تردّد صداها في كافة أرجاءِ القاعة الحجرية .

وفي النهاية ذهبَت رونيا إليه ، لفّت ذراعيها حول عنقه ، ووضعَت خدّها على خدّه وقالت : «لا تحزن . ما عليكَ إلا أن تركلَهم خارج القلعة!»

«وهذا قد يكون صعبًا ،» قال ماتيس بصوتٍ مُجهَد .

جلسوا أمام النار طوال المساء يحاولون استنباطَ ما يمكن أن يفعلوه . كيف يمكنُ أن يتخلّص المرءُ من القملِ في معطفه ، أو بالأحرى كيف يمكن طردُ بوركا وعصابته من قلعة ماتيس بينما هم مُسيطرون على الوضع بقبضةٍ من حديدٍ . . . هذا ما أراد ماتيس أن يعرفَه . إنما أولًا وقبل كلّ شيءٍ أراد أن يعرفَ كيف تدبّرت



تلك الثعابينُ الزاحفة ، تلك الجرذانُ الوضيعة أمرَ الدخول إلى القلعة الشمالية من غير أن يلاحظَ فردٌ واحدٌ من لصوصِ ماتيس أي شيء . فكلّ من يسعى إلى دخول القلعة الشمالية على ظهور الخيل أو سيرًا على الأقدام يجب أن يمرّ عبر عَطفة الذّئاب ، والحراسة هناك قائِمة ليلًا ونهارًا . ومع ذلك لا أحد لمح إشارةً أو علامةً تدلّ على لصوص بوركا .

ضحكَ سكاليبر باستخفافٍ . «حسنًا ، ماذا ظننتَ يا ماتيس؟ أنهم أتَوا يمشون عبر عَطفة الذّئاب وقالوا للحارس بلطفٍ بالغ تنحّى جانبًا يا رفيق ، نحن ننوي الانتقال إلى القلعة الشمالية الليلة بالتحديد؟!»

«من أي طريقٍ أتوا إذًا ، ما دمتَ على درايةٍ واسعة بهذا؟»

«حسنًا ، ليس عبر عَطفةِ الذّئاب أو بوابةِ القلعة الحصينة بكلّ تأكيد ،» أجاب سكاليبر . «مِن الجهةِ الشمالية حتمًا ، حيث لا حراسةَ لدينا هناك .»

«لا ، ولماذا يجب علينا أن نحرسَ تلك الجهة؟ لا منفذَ للقلعة منها ، أضِف إلى ذلك أن لا شيء هناك سوى جدارٍ صخري عمودي . أتعتقدُ أنهم مثل الذبابِ يستطيعون الارتفاع مباشرةً في الهواء؟ ثم يتلوون ويقحمون أجسامهم عبر واحدة أو اثنتين من فتحات السهام الضيقة؟»

فجأةً خطر له شيءٌ آخر ، فنظر إلى رونيا مُضيّقًا عينيهِ . «ماذا كنتِ تفعلين على السطح في جميع الأحوال؟»

«كنتُ أتدرّب على توخّي الحذر لئلا أسقطَ في فوّهة الجحيم ،» أجابت رونيا .

ندمَت لأنها لم توجِّه إلى بيرك بضعةَ أسئلة . إذ ربما رضيَ أن يخبرَها كيف نجح بوركا ولصوصُه في دخول القلعة الشمالية . إلا أن الأوان قد فاتَ للتفكير في ذلك .

عَيّنَ ماتيس الحراس لتلك الليلةِ ، ليس فقط عند عَطفةِ الذّئاب ، بل أيضًا على السطح .

«وقاحةُ بوركا لا حدودَ لها ،» قال . «في أي لحظةٍ قد يأتي مسرعًا ويجتاز فوّهة الجحيم مثل ثورٍ همجي ويطردنا من قلعة ماتيس ، جملةً وتفصيلًا .»

تناولَ إبريق الجِعة وقذفه بعنفٍ نحو الجدار ، فانتشرَت الجعة في كافَة أنحاء القاعة الحجرية .

«سأوي إلى الفراشِ الآن يا لوفيس! لا لأنام ، ولكن لأفكّرَ وأشتمَ ، والويلُ لمن يزعجني!»

رونيا أيضًا استلقَت في فراشها صاحيةً تلك الليلة . فجأةً أصبح كلّ شيء من حولها بائسًا وسيئًا . لماذا يجب أن يكون كذلك؟ فهي على أي حال قد سُرّت بالفعل أول ما وقعَت عيناها على بيرك ذاك! والآن ، بعد أن قابلَت شخصًا في مثل سنّها أخيرًا ، ما الداعي لأن يكون مجرّد لصٍّ بوركي صغيرٍ ومقزّزٍ؟

٤

استيقظَت رونيا باكرًا في الصباح التالي. كان ماتيس يتناولُ عصيدَته في هذه الأثناء، وكان يحقّقُ تقدّمًا بطيئًا في الأكل؛ يرفع الملعقةَ نحو فمه بذهنٍ شارد، وينسى أحيانًا أن يفتحَه. وبالتالي لم يدخل الكثير من العصيدةِ إلى جوفه. وازداد الأمر سوءًا عندما اندفعَ ليتل سنيب فجأةً داخلًا القاعة الحجرية وهو يصيح. كان ليتل سنيب هو من تولّى حراسة فوَّهةِ الجحيم في الليلة الفائتة مع بمبر وشاغي.

«بوركا ينتظركَ يا ماتيس! إنّه عند الناحيةِ المقابلة من فوَّهةِ الجحيم، وهو يتابع التقدّم إلى الحافةِ، ويريد التحدّث إليكَ فورًا!»

وبعجالةٍ قفز ليتل سنيب إلى الوراء، وهذا كان تصرّفًا ذكيًا منه، ففي الثانيةِ التالية طارَ في الهواء الطبق الخشبي الكبير مع عصيدة ماتيس ومرَّ قربَ أذنه قبل أن يرتطمَ بالجدار، وتبعثرَت العصيدةُ فوق كلّ شيء.

«عليكَ أن تنظّفَ ما خلّفته من فعلتكَ هذه!» ذكّرته لوفيس بصرامةٍ. بيد أن ماتيس لم يكن يستمع إليها.

«إذًا يريد بوركا أن يكلّمني! موتٌ ودمارٌ، هذا ما سيحلُّ به، وبعد ذلك لن

يصبحَ في وسعه أن ينطق بكلام كثير على مدى فترةٍ جدُّ طويلة ،» زمجرَ ماتيس وهو يضغطُ أسنانَه إلى أن صرَّت .

في هذه الأثناءِ بدأ اللصوصُ يتوافدون إلى القاعةِ من غرفِ نومهم ، مُتلهّفين ليطّلعوا على ما يجري .

«اِبتلعوا عصيدتَكم كما لو أنّ المكان يحترق ،» أمَرهم ماتيس . «لأننا بصددِ القبض على ثورٍ من قرنيه وقذفِه في فوَّهة الجحيم!»

هرعَت رونيا إلى ارتداء ملابسها . ولم تستغرِق وقتًا طويلًا . ما كان عليها إلا أن تلبس سترةً قصيرةً من جلد الفرس فوق قميصها مع بنطلون يناسبها . كانت تمضي دائمًا حافيةَ القدمين إلى أن يحلّ الشتاء ، لذا لم تجد ضرورة إلى هدرِ وقتها على النِعال والأحذية ما دامت في عجلةٍ من أمرها .

لو أنّ كلّ شيء بقي كالمعتاد لما توانَت عن الخروجِ إلى الغابة في أسرع وقت ، إنما ما عاد أي شيءٍ كما درجَ أن يكون ، وعليها أن تصعدَ معهم إلى السطح لترى ما يحدث .

حَثَّ ماتيس لصوصَه ليسرعوا ، وعلى الفور تقدّموا بعزمٍ وأفواهُهم ما زالت ممتلئةً بالعصيدة ، وصعدوا درجَ القلعة الحجري إلى السطح . وحدَه سكاليبر بقي أمام طبقِ عصيدته ، ومرارةُ الغيظِ تعتملُ فيه ، لأنه ما عاد قادرًا على الانضمامِ إلى العصابةِ كلما لاحَ في الأفق شيء من المرحِ المتوقَّع .

«ثمّة سلالم أكثرَ مما تستدعي الحاجةُ في هذه الدار ،» غمغمَ بينه وبين نفسِه ، «مع هاتَين السَّاقين الواهنتين اللتين تعجزان عن تسلّقها .»

كان صباحًا صافيًا وباردًا .

والغابة توهّجَت بأولِ شعاع شمس أحمر تغلغلَ في أعماق الغابة حولَ قلعة

ماتيس . وتسنّى لرونيا أن تراه من فوق أحدِ المتاريس ، وتمنّت لو أنها هناك في الأسفل ، في عالمها الأخضر الهادئ ، وليس عند فوّهةِ الجحيم حيث اصطفّ لصوصُ ماتيس ولصوصُ بوركا يتبادلون النظرات السّاخطة عبر الهوّة التي تفصلُ بينهم .

حسنًا ، فكّرت رونيا بينها وبين نفسِها لما رأت بوركا واقفًا هناك ، يستعرضُ وقاحتَه وجسارتَه أمام عصابتهِ من اللصوص ؛ هذا إذًا ما يبدو عليه ثعبانُ الأرضِ الزاحف ، ومع أنه ليس بطولِ ماتيس ووسامته ، وهذا شيءٌ جيد ، لا يمكن أن ينكرَ المرءُ أنه بدا قويًا . ربما هو قصيرٌ نوعًا ما ، إلا أنه عريضُ الكتفين وضخم ، وخصلاتُ شعره الأحمر مُتطايرة في جميع الاتجاهات . إلى جانبه وقفَ شخصٌ آخر أحمر الشعر ، إنما كان ذلك الشعر متهدّلًا ومستقرًا كخوذةٍ نحاسية مصقولةٍ على رأسه . نعم ، بيرك كان هناك أيضًا ، ولم يخفَ عليها أنه مستمتعٌ بالمشهد ، لوّح لها بيده سرًا ، كما لو أنهما من الأصدقاء القدامَى . هذا ما يظنّه إذًا ، ذلك الجرو المختلِس!

«أحسنتَ إذ أتيتَ بسرعةٍ غير اعتيادية ،» قال بوركا .

واجَه ماتيس عدوَّه بنظرةٍ قاتمة . «أردتُ أن آتيَ في وقتٍ أسرع من هذا ،» ردّ ماتيس ، «لولا أنه كان عليَّ أن أُنهيَ شيئًا أولًا .»

«أي نوع من الأشياءِ؟» سأله بوركا بتهذيبٍ .

«قصيدةٌ بدأتُ أؤلِفها باكرًا هذا الصباح ؛ وعنوانها رثاءُ قاطعِ طريقٍ ميت اسمه بوركا . لعلّها تُواسي آنديس عندما تصبحُ أرملةً .»

ربما ظنّ بوركا أنه يمكنُ التفاهُم مع ماتيس بالمنطقِ ، وبالتالي لا يعودُ هناك أيّ

شجار بينهما بخصوص مَعقِل بوركا . إلا أنه اقترفَ بذلك خطأ كبيرًا ، وقد أدرك هذا في تلك اللحظة وبدأ الغضبُ يغلي فيه .

«يجدرُ بكَ يا ماتيس أن تفكّرَ في مواساةِ لوفيس المضطرّة إلى تحمُّلِ فمكِ الثَّرثار طوالَ الوقت .»

عند ناحية كلّ منهما من فوَّهة الجحيم ، وقفَت آنديس ولوفيس اللتان تحتاجانِ إلى المواساةِ ، بأذرعٍ مكتوفةٍ ، تتبادلان النظرَ في العينين مباشرة . وبدا عليهما كما لو أنهما قادِرتان على التكيّفِ مع وضعِهما من غير الاحتياج إلى أي مواساةٍ .

«اِستمِعْ لي الآن يا ماتيس ،» بدأ بوركا . «ما عادَ لدينا مأوى في غابةِ بوركا ، فالجنودُ محتشدون هناك كأنهم الذّباب ، ولذلك اضطررتُ إلى اصطحاب زوجتي وابني وأفراد عصابتي إلى مكان ما آخر .»

«لعلّ القضيةَ كما تزعم ،» أجاب ماتيس ، لكن أن تستوليَ زورًا وبهتانًا على مكان لتستقرّ فيه من غير أن تستأذنَ فهو شيء لا أحدَ يملك ذرّة حياءٍ يمكن أن يقدِمَ عليه .»

«كلامٌ غريبٌ من قاطعِ طريق ،» قال بوركا . «أَلم تأخذ دومًا ما راقَ لكَ من غير أن تستأذِن؟»

«امم ،» همهَم ماتيس الذي لم يملك جوابًا على ذلك ، ولم تفهم رونيا لماذا حارَ في الجواب . ورأت أن عليها اكتشافَ ما ذاك الذي أخذَه ماتيس بلا استئذانٍ .

بعد فترةِ صمتٍ قصيرةٍ قال ماتيس : «بمناسبةِ الانتقالِ من موضوعٍ إلى آخر ، من المسلّي أن نسمعَ كيف وصلتَ إلى هنا ، لنستطيعَ في هذه الحالة أن نقذفكَ بعيدًا من حيث دخلتَ .»

«اِكتفينا من الحديثِ عن طردنا ،» قال بوركا . «كيفَ وصلنا إلى هنا ، حسنًا ، كما ترى ، لدينا قردٌ صغير هنا يستطيع أن يتسلّق أكثرَ الجدران حدّةً بوساطةِ حبلٍ طويلٍ متين كأنه ذيلٌ يجرّه وراءه .»

وقبل أن يتابعَ ربَّتَ يافوخ بيرك الأحمر الذي ندّت عنه ابتسامةٌ .

«وقد أحكمَ قردُنا الصغير هذا ربط الحبل جيدًا في الأعلى ليتاحَ لنا أن نتسلّقَ ونصعد وراءه . وبعد ذلك ما كان علينا إلا أن نمشي مباشرة إلى مَعقِلنا ونبدأ في تأسيسِ الوكر النظامي الخاصّ بعصابة بوركا .»

صرّ ماتيس أسنانه برهةً وهو يتفكّرُ في ما سمعه ، ثم قال : «حسب علمي ليس ثمّة مدخَل في الجانب الشمالي .»

«حسب علمكَ! حقًا ليس هناك الكثير مما تعرفه أو تتذكّره عن هذه القلعةِ مع أنك عشتَ فيها طوالَ حياتك!



كما ترى ، في الأيام الغابرةِ ، عندما كانت القلعةُ مأوى رجلٍ أنبلَ ممن يحتلّها الآن ، كان يجب أن يكون للخادمات باب صغير يمكن أن يخرجن منه ليطعمن الدواب . ولا ريب في أنكَ على الأقل تتذكّر موقع حظيرة الخنازير القديمة عندما كنتَ طفلًا . حين اعتدَنا أنا وأنت على اصطيادِ الجرذان فيها ، إلى أن عثر علينا أبوكَ ولَكَمَ أُذني بقوةٍ جعلتني أعتقد أنّ جمجمتي ستنفجرُ .»

«نعم ،» قال ماتيس ، «فعلَ أبي الكثير من الأشياءِ الجيدة . حرصَ على إبقاء الثعابين البوركية بين حشيشِ الأرض حيث تنتمي ، كلّما صادفَها .»

«صحيحٌ ، فعلًا ،» قال بوركا . «وذاكَ المتنمِّر هو من علّمني أن أي فردٍ من عشيرة ماتيس هو عدوّي ، حيًا أو ميتًا . قبل ذلك ما كنتُ أعي أننا أنا وأنت ننتمي إلى عشيرتين مختلفتين ، ولا أعتقدُ أنكَ أنتَ أيضًا كنتَ تدركُ ذلك .»

«أما اليوم فأنا أعرفُ ،» أجاب ماتيس . «والآن ، إما أن يكون هناك رثاءٌ للصَّ



ميتٍ اسمه بوركا ، أو أنكَ ورعاعك ستغادرون قلعة ماتيس كما دخلتموها .»

«ربما يكون هناك رثاءٌ من نوعٍ أو آخر ،» قال بوركا . «إلا أنني أسَّستُ لنفسي الآن مأوى في مَعقِل بوركا ، وهنا سأبقى .»

«سنرى قريبًا كيفَ تنتهي الأمور ،» قال ماتيس ، وفي الحال زمجر أفراد عصابته بسخطٍ ، وهمّوا بتصويب سهامِهم فورًا ، إلا أنّ لصوص بوركا كانوا مسلّحين أيضًا . وأدرك ماتيس وبوركا أن أي معركةٍ تجري عند فوَّهة الجحيم هي بكلّ بساطة نذير شؤمٍ لهم كلّهم . وهكذا افترقوا في الوقت الراهن ، بعد تبادل الإهانات مرّةً أخيرة من باب الشكليات .

لم يبدُ ماتيس كالفاتحِ المنتصر بالضبط عندما عاد إلى القاعة الحجرية ، ولم يبدُ كذلك أي واحدٍ من لصوصه . تفحّصَهم سكاليبر بصمتٍ ، ثم أسفرَ فمُه الأدردُ عن ابتسامةٍ ماكرة .

«ذلك الثور البرّي ،» قال ، «ذاكَ الذي كنت بصددِ القبض عليه من قرنيهِ وقذفِه في فوَّهةِ الجحيم ، أأفترض أنني سمعتُ دويَّ ارتطامٍ رجَّ في أنحاء قلعة ماتيس كلّها؟»

«كُلْ عصيدتَكَ ، إن استطعتَ أن تمضغها ، واترك الثيران البرية لي ،» زمجرَ ماتيس . «سأتعاملُ معها عندما يحينُ الوقت .»

وبما أنه لم يبدُ أن الوقتَ قد حان ، أسرعَتْ رونيا إلى غابتها . فالأيامُ أصبحت أقصر ، والشمس ستغيبُ بعد بضع ساعات ، وقد رغبَت في أن تلهوَ في غابتها وبحيرتها إلى ذلك الحين . كانت البحيرة تستقرُّ تحتَ أشعة الشمس مسالمةً ومتوهّجة مثل الذّهب الدافئ .

بَيد أن رونيا عرفَت أن بريقَها الذهبي مخادعٌ ، وأن المياهَ ببرودة الثلج . مع ذلك ، نَزعتْ عنها ملابسَها بسرعة وغاصَتْ . ندَّت عنها صرخةٌ في البداية ، ثم ضحكَت بسرورٍ بالغ ، ومضَت تسبح وتغوص إلى أن اضطرّها البردُ إلى الخروج . وضعَت سترتها عليها ثانيةً وأسنانها تصطكُ ، والسترةُ لم تدفئها ، فأدركَت أن عليها أن تجريَ لتسريَ الحرارة فيها . جرَت كأنها مخلوق خرافي بين الأشجارِ وعلى الصخورِ حتى تورّدَت وجنتاها ونفضَت الصقيع عن جسدها . وبعد ذلك واصلَت جريها لمجرّد أن تشعرَ كم أن ذلك سهلٌ عليها . انطلقَت مندفعةً وهي تطلقُ صيحات ابتهاج بين مجموعةٍ من أشجار التنوب الناميةِ على نحو متقارب ، واصطدمَت مباشرةً ببيرك . وفي الحال تدفّق فيها الغضبُ ثانيةً من مرآه . كيفَ لا ، وهي ما عادت تستمتعُ بالسلام في أي مكان ، ولا حتى في الغابة!

«اِنتبهي إلى طريقكِ يا بنت اللصّ ،» قال بيرك . «أأنتِ حقًّا على هذه الدرجةِ من الاستعجال؟»

«لا شأن لكَ باستعجالي مَهما كان سببه ،» زمجرَت وتابعَت الجري . ثم عادَت وتباطأت . خطرَ لها أنها تستطيعُ التسلّلَ رجوعًا لتكتشف ماذا يفعلُ بيرك في غابتها . رأته يجلسُ القرفصاء خارج وِجار الثعالب التي تخصّها ، وهذا فاقَم انزعاجها ، فتلك الثعالب هي أولًا وأخيرًا ثعالبها وحدَها . ما فتئَت تتابِعها منذ أن وُلد الصغارُ في الربيع ، ومع أنهم كبروا الآن إلا أنهم ما زالوا يحبّون اللعبَ . وبينما راحوا يقفزون ويطفرون ويعضُّ أحدهم الآخر خارج الوِجار ، جثم بيرك وراقبهم . كان يُوليها ظهرَه ، ومع ذلك ، بطريقةٍ غامضة عرف أنها تقفُ خلفه ، فصاح من غير أن يلتفتَ : «ماذا تريدين يا بنت اللصّ؟»

«أُريدُ أَن تتركَ صغار ثعالبي وشأنها وتخرجَ من غابتي!»

عندئذٍ نهضَ وتقدّم نحوها . «صغارُ ثعالبكِ! غابتكِ! ألا تعرفين أنّ صغارَ الثعالب لا تنتمي إلا لأنفسِها؟ وهي تعيش في غابة الثعالب التي هي أيضًا غابة الذّئاب والدِّببة والأيائل والخيولِ البرية . وكذلك البوم والصقور والحمام البرّي والوقواق ، والحلازين والعناكب والنمل .»

«أعرفُ أحياءَ هذه الغابة كلّهم ،» أجابت رونيا . «لذا لا تظنّ أن عليكَ أن تُعلّمني أي شيء!»

«في هذه الحال أظنّ أنه لا يخفَى عليكِ أنها أيضًا غابة الخطافات الهمجيات والأقزام الرمادية وصيادي الليل والمخلوقات الروحانية!»

«حدّثني عن شيءٍ أجهله ،» قالت رونيا ، «أي شيء تعرفه أفضلَ مما أعرفه ، وإلا أغلِق فمكَ .»

«إنها على أي حالٍ غابتنا! غابتي وغابتكِ يا بنت اللصّ! نعم ، غابتكِ أيضًا! وإذا أردتِ الاستئثارَ بها وحدكِ ، أنتِ في هذه الحالة أسخف مما اعتقدتُ عندما رأيتكِ أول مرةٍ .» نظر إليها شزرًا ، عيناه الزرقاوان عكّرهما الاستياء . رأت أنه لا يقيم وزنًا كبيرًا لها ، وهذا سرّها . فهو في جميعِ الأحوال يمكنه أن يفكّرَ كما يحلو له ، أما هي فلا تريد شيئًا سوى أن تعود إلى القلعةِ ولا تضطرَّ إلى رؤيته بعد ذلك .

«يُسعدني أن أشاركَ الثعالب والبوم والعناكب هذه الغابة ، لكن ليس أنتَ ،» قالت ومضَت مبتعدة .

فجأةً لاحظَت أنّ السديم بدأ ينتشر في الغابة ، انبثق ثخينًا ورماديًا من

الأرض ، والتفّ بين الأشجار وحولها . وما هي إلا هُنيهة حتى غابت الشمس وتلاشى الوهجُ الذَّهبي . وما عاد من الممكن أن يُلمَح أي غصنٍ أو حجرٍ . لكنها لم تخَفْ ، فهي تستطيع أن تتلمّسَ دربها نحو قلعةِ ماتيس حتى أثناء انتشار أكثَف ضبابٍ ، وحتمًا ستصلُ إلى البيت قبل أن تُنشدَ لوفيس أغنية الذّئاب .

إنما ، ماذاً عن بيرك؟ فكّرت رونيا . لعلّه مُطَّلع على دروب غابة بوركا وممّراتها كلّها ، أمّا هنا ، في غابة ماتيس فهو ليسَ في دياره . في هذه الحالة يمكنه أن يبقى هناك مع الثعالبِ ، إلى أن يشرق يوم جديدٌ لا ضبابَ فيه .

ثم سمعَته ينادي من خلالِ السديم المتكاثف : «رونيا!»

حسنًا ، إنّه يعرف اسمها أيضًا! ما عادت الآن مجرد بنت لصّ .

مرةً أخرى ناداها : «رونيا!»

«ماذا تريد ،» صاحَت . إلا أنه في تلك اللحظة كان قد وصلَ إليها .

«هذا الضبابُ يخيفني قليلًا ،» قال .

«فهمتُ . أنتَ تخشى ألّا تعود إلى مأواكَ حيث أهلكَ اللصوص؟ يجدر بكَ إذًا أن تشاركَ الثعالب وِجارها ، بما أنكَ مولعٌ كثيرًا بالمشاركة!»

ضحك بيرك . «أنتِ أقسى من الحجرِ يا بنت اللصّ! لكنني أعرف أنكِ تستطيعين تلمّسَ طريقك إلى قلعة ماتيس أفضل مني . لذا ، أتسمحين لي أن أمسكَ طرف سترتكِ إلى أن نخرجَ من الغابة؟»

«مستحيل ،» هتفَت رونيا ، ثم حلّت حبلَها الجلدي ، الحبل الذي أنقذه في المرّة السابقةِ وسلّمته أحد طرفيه .

«هاكَ ، وعليكَ أن تبقى بعيدًا عني بطولِ الحبل . أنا أُحذّركَ!»



«كما تشائين ، يا بنت اللصّ العُدوانية ،» قال بيرك .

وعلى هذا النحوِ بدأت رحلتهما . أحكمَ الضبابُ الخناق عليهما ومشيا بصمتٍ . تفصلهما مسافةُ طول الحبل ، كما قرّرَت رونيا .

يجب ألا يحيدا عن الطريقِ الآن . أي خطوة غير صحيحة يمكن أن تجعلهما يَتيها وسط الضباب . لم يغِب هذا عن رونيا ، لكنها لم تكن خائفة . تلمّست طريقها قُدمًا بيديها وقدميها . كانت الأحجار والأشجار والأجمات العلامات التي استهدَت بها . تَقدّما ببطء . كانت على يقينٍ من أنها ستعود إلى البيت قبل



أن تُنشد لوفيس أغنية الذّئاب . لم تجد أنّ هناك ما يستدعي منها الخوف .

هي في جميع الأحوال لم يسبق لها أن قامَت برحلة على هذه الدرجةِ من الغرابة . ومن حولها بدا أن جميع الأحياءِ في الغابة قد صمتوا وتلاشوا . فاستبدّ بها الشعورُ بالاضطراب . أهذهِ غابتها؟ الغابةُ التي تأنسها وتحبّها؟ ما السبب في أن كلّ شيءٍ غارقٌ في الصمت ومنذرٌ بالوعيد؟ وما ذاك المختبئ في الضباب؟ نعم ، كان هناك شيء ما ، شيءٌ مجهولٌ وخطير ؛ لم تتبيّن كنهَه ، وهذا أفزعها . لن ألبثَ أن أصلَ إلى البيت ، فكّرَت لتسرّيَ عن نفسها . ولن ألبثَ أن أستلقيَ في

فراشي ، وأستمعَ إلى لوفيس تردِّدُ أغنية الذّئاب .

بيد أن تفكيرها ذاك لم يأتِ بنتيجة ، وازداد خوفها ، خوفٌ أعظم من أي خوفٍ اختبرَته في حياتها . نادَت بيرك ، إلا أنّ صوتها لم يتجاوز الصريرَ الخافِت . بدا وقعُه سيئًا جدًّا بحيث جعلها ذلك تخافُ أكثر . سأفقِد تركيزي هكذا ، فكّرَت ، وهذه ستكونُ نهايتي!

ثمّ ، من أعمقِ أعماق الضَّباب الكثيف تصاعدَت نغماتُ أغنيةٍ عذبةٍ ، مُطعّمة بحزنٍ حلو . كانت الأغنيةَ الأروع التي لم يحدث أن سمعَت لها مثيلًا . أوه يا لروعتِها ، فكّرت رونيا ، وكم ملأت غابتَها بالجمال ، وانتزعَت مخاوِفها كلّها وهدّأت من روعِها . وقفَت بلا حراكٍ ، وأرخَت العنانَ لنفسها لتنعمَ بالطمأنينة . أوه يا لجمالها! ويا لعذوبتها التي سحرتها وألّحت في إغرائها . نعم ، تولّدَ لديها شعورٌ بأن مَن يردّدون تلك الأغنية يريدون منها أن تحيدَ عن دربها وتتبعَ الموسيقى الساحرة المنبعِثة من قلب الظلام .

غدا وقعُ المِرثاةِ أعلى ، فارتعشَ قلبها . وعلى بغتةٍ منها نسيَت أغنيةَ الذّئاب التي تنتظرها في البيت . نسيَت كلّ شيء ؛ ما رغبَت إلا في أن تمضي إلى أولئك الذين يستدعونها من بين الضباب .

«نعم ، أنا قادِمة ،» صاحَت وحادَت عن الدربِ بضع خطوات . عندئذٍ شعرَت بالحبل الجلدي يُشدُّ بعنفٍ بالغ جعلها تخرُّ أرضًا .

«إلى أين أنتِ ذاهبة؟» صرخَ بيرك . «إذا سمحتِ للمخلوقاتِ الروحانية أن تغويكِ تضيعين . . . وأنتِ تدركين هذا!» المخلوقاتُ الروحانية! لقد سمعَت عنها من قبل . وتعرفُ أنها لا تخرج إلى الغابة من مكامِنها المظلمة تحت الأرض إلا عندما يُحكِمُ الضباب الخِناق . لم يسبق لها أن التقَت أحدًا منها ، ومع ذلك

أرادت أن تتبعَها حيثما تكون .

أرادت أن تعيشَ مع ترانيم تلك المخلوقات ، حتى لو عنَى هذا أن تقضيَ ما تبقّى من حياتها تحتَ الأرض . «نعم ، أنا قادِمة .» صاحَت مجدّدًا وحاولت أن تمضي إليها . لكن بيرك كان في تلك اللحظة قد أصبحَ قربها يمسكها بإحكام .

«اُتركني أذهب .» صاحت وهي تقاومه بجنونٍ . بيْدَ أنه بقي متشبثًا بها بعزمٍ .

«لا تنفَعلي .» قال . إلا أنها لم تسمعْه بسبب الأغنية التي صدَحت عاليًة جدًّا ، وملأت برنينها الغابة بأسرِها ، وملأت روح رونيا بتوقٍ تستحيل مقاومتُه .

«نعم ، أنا قادِمة!» صاحت للمرةِ الثالثة ، وجاهدت لتتحرّرَ من قبضةِ بيرك . ضربَت وخمشَت وزعقَت وصرخَت وعضّت خدَّه بقوةٍ . لكنه حافظَ على تمسّكه بها بثباتٍ . احتجزَها بقوةٍ فترةً طويلة ، ثم فجأة انقشعَ الضباب بسرعةٍ كما انتشر . وفي تلك اللحظة عينها ماتَت الأغنية . تلفّتَت رونيا تنظرُ من حولها كما لو أنها صحَتْ توًّا من حلم . ميّزت الدربَ الذي يقود إلى البيت ولمَحت الشمس الحمراء تغرقُ وراء تلال الغابة . وبيرك! كان يقفُ هناك ، إلى جانبها تمامًا .

«قلتُ تحافظُ على مسافةِ طول الحبلِ بيننا .» ذكّرته ، ثم وقعَت عيناها على خدّه المدمّى فسألته : «أعضّكَ الثعلبُ؟»

لم يجِب بيرك . لفَّ الحبلَ الجلدي وأعادَه إليها .

«شكرًا! يمكنني أن أعثرَ على طريقي نحو مَعقِل بوركا الآن .»

اختلسَت رونيا النظرَّ إليه من تحتِ أهدابها . فجأةً شعرَت أنّه من الصعبِ حقًّا أن تراه سيئًا ؛ ولم تعرف لماذا .

«اِذهَب إذًا .» قالت بلطفٍ وانطلقَت تجري مبتعدةً .

٥

في تلك الأمسيةِ جلسَت رونيا أمام النار مع أبيها فترةً من الوقت ، ثم تذكّرَت ما أرادت أن تستفسرَ عنه .

«ما ذاكَ الذي أخذتَه من غير أن تستأذنَ كما قال بوركا؟»

«امم ،» همهَم ماتيس . «خشيتُ كثيرًا من ألا تعثري على طريقِ العودة إلى البيت في الضبابِ يا رونيتي .»

«لكنني عُدتُ ،» أجابت رونيا . «اِسمَع ، ما ذاكَ الذي أخذتَه من غير أن تستأذنَ؟»

«أُنظري هناك ،» قال ماتيس وهو يشير إلى النار بعصبيةٍ . «أترين؟ إنها تبدو مثل رجلٍ متهالكٍ! تبدو مثل بوركا . يا للفظاعة!»

لم تستطع رونيا أن تلمحَ أي علامة لبوركا في النار ، وهي لم تكن مهتمةً بذلك مطلقًا .

«ما ذاكَ الذي أخذتَه من غير أن تستأذنَ؟» أصرَّت .

عندما لم يجِب ماتيس تدخّلَ سكاليبر ليجيبَ عنه .

«أشياء كثيرة! أوه ، ها ، ها ، نعم ، أشياء كثيرة! وأُقدِّرُ أنها حوالي . . .»

«كُفَّ عن هذا ،» نهرَه ماتيس بغضبٍ . «سأعالجُ الأمر بنفسي!»

في تلك الآونةِ كان اللصوص كلّهم باستثناءِ سكاليبر قد غادروا إلى غرفهم ، ولوفيس في الخارج تجهّزُ دجاجاتها وخرافها وماعزها من أجل الليل . وحده سكاليبر هو من سمعَ ماتيس يشرح لرونيا ما معنى قاطع الطريق : شخص يأخذُ الأشياء من غير أن يستأذنَ .

لم يكن لدى ماتيس ما يخجلُ منه ، بل على العكس ، إذ لطالما تفاخَر وتبجّحَ بكونه أعظم زعيم عصابةِ قطّاعِ طرقٍ في الغابات والجبال بأسرها . بيد أنّه واجَه شيئًا من الصعوبة حيالَ اضطراره إلى إخبارِ رونيا بالحقيقة . كان في نيّته طبعًا أن يُطلِعها على كلّ شيءٍ عاجلًا أو آجلًا حالما تستدعي الحاجة ، إلا أنّه أراد الانتظار قليلًا .

«أنتِ يا رونيتي طفلةٌ بريئة ، ولذلك لم أفصح لكِ عن شيءٍ من قَبل .»

«لا ، أنتَ لم تنطق بكلمةٍ واحدة .» أكّدَ له سكاليبر ، «ولم تسمح لنا قطّ أن نتلفّظَ بأي شيءٍ أيضًا .»

«أمَا حانَ وقتُ نومكَ أيها الشيخ الهرم؟» قال ماتيس . فأجاب سكاليبر أنَّ الوقت لم يحن ، وأنّه يريد أن يسمعَ الحديث .

فهمَت رونيا الحقيقةَ . أدركَت أخيرًا من أين يأتي كلُّ شيءٍ . الأشياء التي يحملها اللصوص على ظهورِ خيولهم عندما يعودون إلى البيت في المساء ؛ تلك البضائع في الأكياسِ والرزم ؛ تلك الأشياء الثمينة في العلبِ والصناديق . تلك الأغراض لم تنبت على الأشجار في الغابة طبعًا . بل أخذها أبوها بكل بساطةٍ

من أناسٍ آخرين .

«ألا يعتريهم غضبٌ ساحق عندما تسلبهم أغراضهم؟» سألَته رونيا .

قرقرَ سكاليبر . «تجتاحهم نوباتُ غضبٍ عاصفة ،» أكّدَ لها . «أوه يا ربي ، أوه ، أوه يا ربي ، ليتكِ فقط تسمعينهم!»

«يُستحسنُ أيها الشيخ الهرم أن تذهبَ الآن إلى النوم ،» قال ماتيس .

لكن سكاليبر أصرَّ على ألّا يغادرَ ، وأردفَ مخاطبًا رونيا : «بل حتى بعضهم يبكي .»

عندئذٍ زمجرَ ماتيس ، «اصمُت الآن! وإلا أرميكَ خارجًا!» ثم ربّت خدَّ رونيا . «ما عليكِ إلا أن تتفهّمي الأمر يا رونيتي! فتلكَ هي الحال . وتلك هي الحال التي كانت دائمًا . إنها لا شيء يستدعي إثارةَ البلبلةِ حوله .»

«لا ، فعلًا ،» قال سكاليبر . «لكن الناسَ لا يعتادون أبدًا على الأشياء . ولا يكفّون عن الصّراخ والعويل إلى أن يصبحَ سماعهم ممتعًا .»

وجّهَ إليه ماتيس نظرةً ساخطة . ثم عاد والتفتَ إلى رونيا . «اِعلمي أن أبي كان زعيم عصابة قطّاعِ طرقٍ ، وكذلك كان جدّي ، وجدّ جدّي . وأنا لم أخذلهم . أنا أيضًا زعيمُ عصابةِ قطّاعِ طرقٍ ، الزعيمُ الأعظم في الغابات والجبال كلّها . وهذا ما ستصبحين عليه أنتِ أيضًا يا رونيتي .»

«أنا ،» صاحَت رونيا . «أبدًا ، ليس إذا كان الناسُ يغضبون ويبكون .»

حكَّ ماتيس رأسَه وقد اعتراه القلقُ . أراد أن تحبَّه رونيا وتُعجَبَ به بقدرِ ما يحبّها ويعجبُ بها . وها هي تصيح : أبدًا! وترفضُ أن تصبحَ زعيمةَ عصابةِ لصوص مثل أبيها . هذا أحزنه ، ورأى أنه لا بدَّ له من العثور على طريقة ليجعلها تصدّقَ أن ما يفعله جيّد وصائِب .



«أترَين يا رونيا يا حبيبتي . أنا لا آخذ إلا من الأغنياء ،» قال مبرّرًا . ثم فكّر لحظةً . «وبعد ذلك أعطي الفقراء . نعم ، أنا أفعلُ ذلك حقًّا .»

قرقَرَ سكاليبر مجدّدًا . «أوه يا ربي ، نعم ، هذا صحيحٌ بما يكفي! فقد أعطيتَ تلك الأرملة الفقيرة أمّ الأطفال الثمانية كيسًا كاملًا من الطّحين ، أتذكُر؟»

«صحيحٌ تمامًا ،» قال ماتيس . «هذا ما فعلتُه بالتأكيد .»

مسّدَ لحيتَه السوداء بارتياحٍ . وبانَ عليه الرضا في تلك اللحظة . الرضا على نفسه وعلى سكاليبر أيضًا .

عاد سكاليبر وقرقَر . «ذاكرتكَ جيّدةٌ يا ماتيس . نعم ، هذا صحيح! لنرى الآن ، لا بدَّ من أن هذه الواقعة حدثت قبل عشر سنوات . أوه ، نعم ، أنتَ طبعًا تعطي الفقراء . تعطيهم كلّ عشر سنوات ، أنقِص أو زِد عليها سنةً .»

عندئذٍ زمجرَ ماتيس . «إذا لم تنصرف إلى سريركَ أعرفُ مَن يمكن أن يساعدكَ لتصلَ إليه!»

هذا لم يكن ضروريًا ، ففي تلك اللحظةِ دخلَت لوفيس وغادر سكاليبر القاعةَ الحجرية بلا مساعدةٍ من أحد . وكذلك أوَت رونيا إلى سريرها ، وبينما ردّدت لوفيس أغنيةَ الذّئاب بدأت النار تخمدُ . استلقَت رونيا في فراشها تستمعُ من غير أن تشغلَ فكرها بحقيقةِ أبيها ، فهو ماتيس الذي يخصّها وهي تحبّه ، سواء كان زعيم عصابة قطّاع طرقٍ أو لم يكن .

في تلك الليلة لم تنم جيدًا ، وحلمَت بالمخلوقات الروحانية وأغنيتها السّاحرة ، وعندما استيقظت نسيَت كلّ شيء عنها .

ما تذكّرته كان بيرك . وفي الأيام التي تلَت ، فكّرَت فيه أحيانًا ، وتساءلت

كيف يتدبّر أحواله هناك في مَعقِل بوركا ، وكم سيستغرق الأمر قبل أن يُقدِمَ ماتيس أخيرًا على طرد بوركا وعشيرتِه من اللصوص خارج القلعة .

ويوميًا ، عكَف ماتيس على رسم خططٍ جديدة وذكية تتعلّق بذلك ، إلا أن أيًا منها لم تسفر عن شيءٍ فعّال كثيرًا .

«لا فائدة ،» درجَ سكاليبر على أن يقول ، مهما كان ما فكَر فيه ماتيس . «عليكَ أن تكون ماكرًا كثعلب ، لأن البطشَ لن يأتيَ بنتيجة .»

لم يناسِب ماتيس أن يكون ماكرًا كثعلب ، ومع ذلك بذلَ قُصارى جهدِه . وبينما هو يتابعُ التطورات لم تأخذ سرقات كثيرةٌ مجراها . وكان لدى عصابة بوركا أمور أخرى تشغلُ تفكيرها أيضًا . وقد دُهشَ المسافرون الذين اضطرّتهم الظروفُ إلى عبور مجاز قطّاعِ الطرق إزاء خلوِّه من اللصوص في تلك الفترةِ . ولم يعرفوا ما سبب الهدوء الذي يعمّه . فإلى أين ذهبَ قطّاع الطرق؟ والجنودُ الذين لاحقوا بوركا بلا هوادةٍ عثروا على الكهف الذي كانت عصابة بوركا تتخذه عرينًا لها ، إلا أنهم وجدوه مهجورًا وخاليًا من الغنائِم .

لم يعثر الجنود على أي أثرٍ لبوركا ، وهذا فرّجَ عنهم ، لأنه صار في وسعهم أن يغادروا غابةَ بوركا أخيرًا . الغابةُ التي غدت مظلمةً وباردةً وماطرةً مع قدوم الخريف . لم يغب عن أذهانهم طبعًا أن هناك قطّاع طرقٍ آخرين بعيدًا في غابة ماتيس ، لكنهم آثروا أن يُغفلوا التفكير في ذلك . إذ ليس هناك مكان أسوأ من ذلك المكانِ ، والقبضُ على زعيم عصابة اللصوص الذي يعيش هناك أصعبُ من اصطياد نسرٍ جاثم على قمّة جرفٍ . وفضّلوا أن يرحلوا بسلام .

قضى ماتيس معظم وقته وهو يحاول أن يستنتجَ ما يخطّطُ له لصوص بوركا في

القلعة الشمالية ، وما الطريقة الأمثل للوصولِ إليهم . وهكذا خرج يوميًا يتعقّبُ آثارهم . كان يمتطي مع رجلٍ أو رجلين من عصابته الخيولَ ويقصدون شطر الغابةِ الشمالي ، ولم يلمحوا قطّ أيَّ أثرٍ للغُزاة . كانت الغابة في أغلب الأحيان ساكنةً وصامتةً للغاية ، كما لو أنّ عصابةَ بوركا ليسَت هناك . وفي إحدى المرّات اكتشفَ أنهم صنعوا سلّمًا طويلًا من الحبال ليتيسّر لهم الصعودُ والنزول على الصخور بلا مشقّة . ولم يلمحه ماتيس متدلّيًا سوى مرّةٍ واحدة فقط .

هذا أفقدَه عقله تمامًا ، فاندفع كمجنون ليتسلّقه ، وفي أعقابه رجال عصابته المتحرّقين شوقًا للمعركة . لكن السّهامَ أمطرت عليهم من الأعلى من منافذِ مَعقِل بوركا ، وأصاب أحدُها ليتل سنيب في فخذِه ، وأبقَته الإصابةُ طريحَ الفراش يومين . كان واضحًا أنّ سلّم الحبال لا يُدلّى إلا تحت حراسةٍ مُشدّدة .

في هذه الآونة حطَّت غيومُ الخريف بكثافةٍ فوق قلعة ماتيس ، ولم يكن اللصوصُ يستمتعون ببطالتهم . اعتراهم الضجرُ وتشاجروا أكثر من المعتاد ، إلى أن ما عادت لوفيس تطيقُ الوضع .

«لن تلبثوا أن تُفجّروا طبلتَي أُذني بتذمّركم ومشاحنتِكم . سأُكمّم أفواهكم كلّكم إذا لم تلتزموا الهدوء!»

صمتَ الجميع ، وأوكلَت إليهم لوفيس مهام القيام بأعمالٍ مفيدة . . . إزالة النفايات وتنظيف قنّ الدّجاج وحظيرة الخرافِ ومربط الماعزِ ، وقد كرهوا هذه المهام من صميم قلوبهم . إنما لا أحد أفلتَ منها ، ما عدا سكاليبر وأولئك الذين صدف أنهم يتولّون الحراسةَ عند عَطفة الذّئاب أو في الأعلى عند فوّهةِ الجحيم .

وماتيس أيضًا بذلَ قُصارى جهده ليبقي رجال عصابته نَشطين . واصطحبهم

في يوم لصيد الأيائل ، فانطلقوا في الغابة الخريفية متسلّحين بالرماح والأقواس ، ولما عادواً وهم يجرّون وراءهم أربعةَ أيائل ضخمة ، ابتسم سكاليبر ابتسامة رضا .

«تناولُ حساء الدّجاج وحساء لحم الضأن والعصيدة لا يخدم المرءَ طويلًا ،» قال . «الآن لدينا شيءٌ نمضغه ، والقطعُ الأطرى تذهبُ إلى من لا أسنان له ، كما يعرف الجميع .»

شَوَتْ لوفيس لحم الأيل ، ودخَّنت لحم الأيل ، وملَّحت لحم الأيل للشتاء ، لتدعم به الدّجاج المشوي وأفخاذ الضأنِ .

أما رونيا فقضَت أيامها في الغابة كالمعتاد . كانت الغابة في هذه الفترة هادئةً جدًّا ، مع ذلك فكّرت أنه من الممتع التجوّل فيها حتى في الخريف . كانت رائحةُ الخريف بديعة ، وأغصان الأشجار تتلألأ بالندى ، وتحت قدميها الحافيتين تحسَّست الطحالبَ الخضراء الطريةَ والرطبة . غالبًا ما أمطرَت السماء ، وراقها أن تتقوقعَ تحت شجرة تنوب وارفةٍ تستمع إلى صوتِ المطر . كان المطر يهطلُ أحيانًا بغزارة إلى أن يجري الماءُ في الغابة ، وهذا أيضًا راقَها ، لم تلمح في تلك الفترة الكثير من الحيوانات . وثعالبها لازمت وجارها . وأحيانًا رأت في الغسقِ أيلًا يتقدّم عَدوًا ، وفي أحيانٍ أخرى لمحَت خيولًا بريةً ترعى بين الأشجار . تاقت إلى الإمساك بأحدها واستخلاصِه لنفسها ، وحاولَت القيام بذلك مرارًا وتكرارًا من غير أن تتكلّلَ مساعيها بالنجاح . كانت الخيول البرية جامحةً ومن المؤكّد أن ترويضها صعبٌ . وإذ شعرَت أنه قد حان الوقت لتقتنيَ حصانًا عزمت على إخبار ماتيس بذلك .

«نعم ، عندما تصبحين قويةً بما يكفي لِتمسكي أحدَها بنفسكِ ،» أجابها .

سأفعل في أحد الأيام ، فكّرَت بينها وبين نفسها . سأقبضُ على حصانٍ صغير جميل وآخذه معي إلى البيت إلى قلعة ماتيس وأروّضه كما روّض ماتيس خيولَه .

وما عدا ذلك كانت غابةُ الخريف مهجورةً على نحو غريب ، اختفَت منها جميع المخلوقات التي لطالما ارتادتها . ولا شكّ هناك في أنها تسلّلت زاحفةً وأوَت إلى جحورها وأوكارها . في بعض الأوقات ، في حالات نادرة ، انقضّت الخطّافات البريّات من الجبال ، غير أنها بدَت أكثر هدوءًا ، وغالبًا ما لازمَت ملاجئِها الجبلية . والأقزام الرمادية بقيَت بمنأى أيضًا . مرّةً واحدة فقط لمَحت رونيا قزمين منها يسترقان النَّظر من وراء حجر ، إلا أنها ما عادت تخافُ من الأقزام الرمادية .

«اذهَبا من هنا ،» صاحت ، فهربا جريًا وهما يُهسهسان بخشونةٍ .

لم يظهَر بيرك مطلقًا في غابتها ، وطبعًا أسعدَها هذا ، أم تراه لم يسعِدها؟ في بعض الأحيان لم تكن واثقةً من مشاعرها .

ثم أقبلَ الشتاءُ وتساقط الثلجُ ، وازدادت حدّة البرد ، والصقيعُ حوّلَ غابة رونيا إلى غابةِ جليد بطريقةٍ أجمل مما يمكن أن تتخيّل . داومَت على الخروج لتتزلّج فيها ، وعندما تستديرُ لتعودَ إلى البيت مع الشفقِ يكون هناك جليدٌ على شعرها ، وأصابع يديها وقدمَيها متجمّدة على الرّغم من القفّازات الجلدية والجزمة . إنما لا البرد ولا الثلج يمكن أن يُبعداها عن غابتها . وفي اليوم التالي تعود إليها من جديد .

كثيرًا ما اعترى ماتيس القلَق وهو يراها تندفعُ على المنحدرات نحو عَطفةِ الذّئاب . وعند ذاك ، يقول للوفيس ، كما يفعلُ في الغالب : «آمل أن يكون كلّ شيء على ما يرام! آمل ألّا يصيبها مَكروه! لا يمكن أن أعيش إذا أصابها مكروه!»

«على أي شيءٍ تندب؟» تجيب لوفيس . «تلك الطفلةُ قادرة على الاهتمام

بنفسِها أفضل من أي لصٍّ . كم مرّة يتحتمُ عليَّ أن أخبركَ بذلك!»

طبعًا في وسعِ رونيا أن تهتمَّ بنفسها . لكن في أحدِ الأيام حدثَ شيءٌ من حسن الحظِّ أن ماتيس لم يدرِ به .

سقط مزيدٌ من الثلج في الليل وحجبَ مسالك تزلّج رونيا كلّها . ولذلك اضطرّت إلى تمهيد مسالِك جديدة ، مع ما في هذا العملِ من مشقّةٍ . كان الصقيعُ قد فرش غطاءً رقيقًا من الجليد فوق الثلج ، إلا أنه ليس صلبًا كثيرًا ، فواصلَت تكسيره ممّهدةً مسلك تزلّج حتى ما عادت تستطيعُ في النهايةِ أن تمهّدَ أكثر مما فعلَت ، ورغبَت في العودة إلى البيت .

شقّت طريقها إلى إحدى الهضاب ، ونوَت أن تندفع نزولًا من جانبها الآخر . كان مُنحدرًا حادًّا ، ومع ذلك اندفعَت غير هيّابة والثلجُ يتطاير بكثافةٍ من حولها . ثم فاجأها منخفَضٌ غير مُتوقّع في الأرض فاختلّ توازنها وطارت فوقه ، وخلالَ طيرانها فقدَت إحدى زلاجتيها ، وعندما حطّت أرضًا ، اقتحمَت قدمُها الثلج وعلقَت في حفرةٍ عميقة . وبينما هي عالقة في الحفرةِ إلى ركبتها شاهدَت زلاجتها تختفي أسفل المنحدرِ .

ضحكَت في البداية ، لكن سرعان ما توقّفَت عن الضحكِ حالما أدركَت سوءَ الموقفِ . عجزَت عن تحريرِ ساقها مهما جاهدَت في السّحبِ والشدّ . تناهَت إلى سمعها دمدمةٌ من الحفرة ولم تستطع في بادئ الأمر أن تخمّنَ ما مصدرها . ثم بعد فترةٍ قصيرةٍ رأت مجموعةً من أقزام الأرض الصّغارِ تكدحُ لتشقَّ طريقها صعودًا من بين الثلج على مسافةٍ ليست ببعيدةٍ . كان تمييزها سهلًا من أردافِها العريضة ووجوهها الصغيرةِ المكرمشة وشعرها الخفيفِ . كانت جماعاتُ أقزام

الأرض الصّغار مسالمةً وودودةً بالإجمال ولا تسبّبُ أي أذى . بَيْد أن تلك التي طلعَت ووقفت تحدِّق فيها بعيونها الساذجة ظهرَ عليها الانزعاج بوضوح . نخرَت وتنهّدَت ، وأحدها قال بصوتٍ كئيب : «أووف ، مَن . . أو مَن فعل؟»

وسرعانَ ما انضم إليه الآخرون . «أووف . . . مَن أو مَن فعل؟ من حطّم سقفنا ، مَن أو مَن فعل؟»

أدركَت رونيا أن قدمَها حُشرت في حفرةٍ تحت أرضية . فأقزام الأرضِ الصغار صنعَت تلك الحفرة لتأويَ إليها عندما لم تفلح في العثور على شجرةٍ عفنة مناسبةٍ تسكن فيها .

«لم أستطع تجنّبَ ذلك ،» قالت . «ساعِدوني لأحرّرَ ساقي!» لكن أقزام الأرض الصّغار اكتفَت بالتحديق فيها وتنهّدَت بكآبة كالسابق . «مَن أوف محشور في السطح ، أووف ، مَن . . أو مَن خرقَ السقف؟»

بدأ صبرُ رونيا ينفدُ . «ساعِدوني وسأرحل!» لكن بدا كما لو أنّ أقزام الأرض الصّغار لم تسمعها أو تستوعِب ما قالته . اكتفَت بالتحديق فيها بنظراتٍ خاليةٍ من التعبير وجرت بسرعةٍ عائدةً إلى حفرتها . سمعَت رونيا تذمّرها النزقَ في الأسفل ، ثم فجأةً سمعتها تزعقُ وتعوي مُهلّلةً ، كما لو أنها مسرورة من شيءٍ ما .

«هي هَدهدة!» زعقَت تلك العفاريت . «أرجوحة! هي هَدهدة!»

ثم شعرَت رونيا بشيءٍ يُعلّقُ على قدمها ، شيءٍ ثقيلٍ .

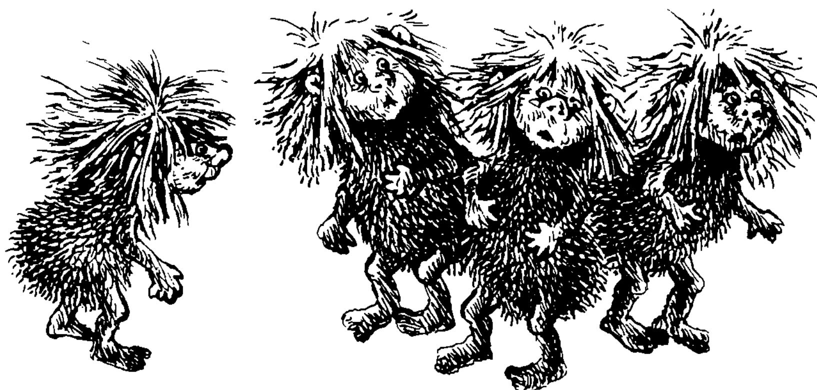
«ليلو فَتفوت ، قدمٌ جيّدة ، مهدٌ يتأرجحُ!» زعقَت أقزام الأرض الصّغار من الأسفل . «اُنظروا مهدَ ليلو! قدمٌ قبيحةٌ في السقف . نحن نستخدم .»

لم ترغب رونيا في أن تقبعَ وسط البرد والثلج وقدمها تحملُ مهدَ طفلٍ من

أطفالِ أقزام الأرض الصّغار الحمقاء . جاهدَت ثانيةً لتتخلّصَ من الأسْر ؛ شدّت وجذبَت وانتفضَت بكل ما أُوتيَتْ من عزمٍ لتحرّرَ ساقها ، فتصاعدَت أصواتُ أقزام الأرض الصّغار بالتهليل .

«انظروا . . . ليلو فتفوت هَدهدة . . . رائع!»

يجبُ ألا تخافي في غابةِ ماتيس ؛ لطالما قِيل لها هذا منذ نعومةِ أظفارها ، وهي بدورها حاولَت دائمًا أن تتسلّحَ ضدَّ الخوف . لكن ذلك لم يُفدها أحيانًا . وفي تلك اللحظة لم يُفدها على الإطلاق . ماذا لو فشلَت في تحرير نفسها؟ ماذا لو قبعَت هنا وتجمّدَت حتى الموت في هذه الليلة؟ رأت الغيومَ الداكنة الحُبلى بالثلج فوق الغابة . وأدركَت أن المزيد من الثلج سيتساقط . ثلجٌ كثير! ربما ليس لها من مفرّ سوى أن تجثمَ حيث هي وتختفي تحته ، تموت وتتخشّب من الجليدِ ، تهزّ مهدَ قزم أرضٍ صغير بقدمِها الميتة العالقةِ في السقف إلى الربيع! لأن ماتيس لن يتمكّن قبل قدوم الربيع من الخروجِ للعثور على ابنته الصّغيرة المسكينة التي تجمّدت حتى





الموت في الغابة الشتوية .

«لا ، لا ،» صرخَت . «النّجدة! ساعِدوني!»

ومَن كان هناك ليسمعَها في هذه الغابةِ المقفرة؟ لم تكن هناك ولا روح واحدة . لم يغِب عنها ذلك . ومع ذلك واصلَت الصراخ إلى أن ما عاد في وسعها أن تصرخَ أكثر .

ثم سمعَت أقزام الأرض الصغار تتذمّرُ من جديد . «أوف مَن هنا . . . وما عاد يهدهد ، مَن . . أو مَن فعل؟

ثم فجأةً كفَّت رونيا عن سماعها ، إذ وقعَ نظرُها على إحدى الخطّافات الهمجيات تحوم في الأرجاء ، ومثل طائرِ قنصٍ أسود جارحٍ وجميلٍ وضخم ، أقبلت الخطّافة طائرةً عبر الغابة ومتأهّبة للانقضاض ، حلّقت تحت الغيوم الداكنة ، ثم هبطَت وبدأت تقترب . ثم توجّهت نحو رونيا مباشرةً ، فأطبقَت رونيا عينيها . أدركَت أن لا شيءَ يمكن أن ينقذَها الآن .



حطّت الخطّافة إلى جانبها وهي تصرّ وتُوَطوِط . «بشريّة صغيرةٌ وجميلة ،» زعقَت بصوتٍ خشن بينما أخذَت تشدّ شعر رونيا . «بشريةٌ جلسَت هنا ترتاح! أوه ، نعم ، هوه هاه هيه!»

زعقَت ثانيةً بصوتٍ أفظع من أي صوتٍ على الإطلاق . «يجبُ أن تعملي عندنا! هناك في أعالي الجبال! إلى أن يسيلَ الدَّم! وإلا نخدشكِ ونغرز فيكِ مخالبنا!»

بدأت تمزّقُ وتخدشُ حول رونيا بمخالبها الجارحةِ ، وعندما بقيَت رونيا بلا حراك ، أصابتها نوبةُ غضبٍ .

«أتريدين أن أخمشكِ وأمزقكِ؟»

انحنَت فوق رونيا ، عيناها السوداوان المتحجّرتان تُومضان شررًا . ثم قامَت بجهودٍ آخر لتحرّرَ رونيا ، إلا أنها مهما شدّت ونبشَت لم تفلح ، وفي النهاية يئسَت من المحاولة .

«حسنًا ، سأذهب وأحضرُ أخواتي ،» زعقَت . «نصطادكِ غدًا . ولن تنالي أي راحةٍ أخرى هنا ، أبدًا ، أبدًا ، أبدًا!» وبذلك طارت مبتعدةً وحلّقت فوق رؤوس الأشجار ، ثم اختفَت عند قمم الجبال .

غدًا عندما تأتي الخطّافات لَن يجدن سوى كتلةٍ من الجليد هنا! فكّرَت رونيا .

ساد السكونُ في حفرةِ أقزام الأرض الصّغار . والغابةُ بأسرِها سادها السكونُ بانتظار هبوط الليل . أمّا رونيا فلم تكن تنتظرُ أي شيءٍ . جثمَت بلا حراك بعد أن استسلمَت وكفَّت عن المقاومة . قريبًا تخيّمُ ليلتي الأخيرةُ الباردةُ والمظلمةُ والمقفرةُ ، فكّرَت رونيا ، الليلةُ التي ستضعُ لي خاتمتي .

بدأ الثلجُ يتساقط ، وحطّت رقاقاتُه الكبيرة على وجهِها برفقٍ ، حيث ذابت وامتزجَت بدموعها لأنها كانت تبكي . فكّرَت في ماتيس ولوفيس . إنها لن تراهما ثانيةً أبدًا ، ولا أحدَ سيشعر بالسعادة مجدّدًا في قلعة ماتيس . ماتيس المسكين ، سيُجَنّ جنونه من الحزن! ولن يكون هناك أي رونيا لتخفّفَ عنه كما درجَت أن تفعل كلّما ألمَّ به الحزن . لا ، لا ، الآن لا مواساة هناك لتُمنحَ ، ولا مواساةَ يمكن أن تُمنحَ لاحقًا . لا شيء على الإطلاق!

ثم سمعَت شخصًا يناديها . سمعَت الصوتَ بوضوحٍ وجلاء ، مع ذلك تراءى لها أن ما سمعته لا بدّ مِن أنّه مجردُ هلوسة حلم . فبكَتْ من جديد . لا أحدَ أبدًا أبدًا ، ما عدا في الأحلام ، سينطقُ باسمها . وقريبًا لن يتسنّى لها أن تحلمَ .

ثم عادت وسمعَت الصوتَ مرةً أخرى .

«رونيا ، ألا يجبُ أن تعودي إلى البيت الآن؟»

فتحَت عينيها على مضضٍ ، وهناك وقفَ بيرك . . . نعم ، هناك وقف بيرك مُنتعلًا زلاجتيه .

«وجدتُ فردةَ زلاجتك في الأسفل ، وذاك جاء محضُ صدفةٍ طيبة ، وإلا لبقيتِ قابعةً هنا .» وضع فردةَ الزلاجة أرضًا على الثلج قربها . «أعتقدُ أنكِ بحاجةٍ إلى المساعدة ، أليس كذلك؟»

عندئذٍ انفجرَت تبكي بمرارةٍ عظيمةٍ ، بنشيج عالٍ جدًا ويأسٍ رهيب جعلها تخجلُ من نفسها . بكَت بقوةٍ إلى درجة أنها لم تستطع أن تردّ ، لكن عندما انحنى ليسحبها ، رمَت ذراعيها حولَه وهمهمَت بصوتٍ مسعور ، «لا تتركني ، لا تتركني ثانيةً أبدًا!»

ابتسم بيرك . «لا ، لن أفعلَ ، ما دمتِ تحافظين على مسافة طول حبلٍ بيننا! هيّا أفلتيني الآن وتوقّفي عن النحيب لأرى إن كنتُ أستطيع تحريرَ ساقكِ!»

نزع زلاجتيه وانبطحَ قربها . حشرَ يده بقدر ما يستطيع في الحفرة . وبعد أن انهمكَ يُعمِل يده مدّةً طويلة حصلت المعجزة! نجحَت رونيا في سحب ساقها . . . أصبحت حرّةً .

تعالَت صيحاتُ الغضبِ من أقزام الأرض الصّغار في الحفرة ، ونشجَ ليلو الفتفوت . «استيقظَ فتفوت ليلو ، ترابٌ في عينيه . مَن . . أو مَن فعل؟

عجزَت رونيا عن ضبط نفسها فاستسلمَت للبكاء ، وناولها بيرك زلاجتيها .

«كُفّي عن النحيب ،» قال ، «وإلا فلن تَصلي أبدًا إلى البيت .»

أخذَت رونيا نفسًا عميقًا لتهدأ . نعم ، انتهى البكاء الآن . وقفَت على قدميها واختبرَت ساقها لترى إن كانت ستحملها .

«عليّ أن أحاول ،» قالت . «وأنتَ قادمٌ أيضًا ، ألن تفعل؟»

«أنا قادمٌ أيضًا ،» قال بيرك .

انطلقَت رونيا على زلاجتيها ، ونجحَت في النزول إلى أسفل المنحدر وتَبعها بيرك ، طوال الوقتِ . وبينما تزلّجت تجاه البيت والألم يمضّها ، حرصَت على أن يبقى خلفَها . ومرةً تلو أخرى التفتَت لتتأكّدَ من أنه ما زال يتبعها . خافت أيّما خوفٍ من أن يختفيَ فجأة ويتركها وحدها . لكنه كان وراءها ، تفصله عنها مسافةُ طول حبل ، إلى أن أصبحا تقريبًا عند عَطفة الذّئاب . هناك تحتّمَ عليهما أن يفترقا . ومن هناك سيسلكُ بيرك دربًا سريةً ليعود إلى مَعقِل بوركا .

وقفا صامتَين برهةً تحت الثلج المتساقط ، يحاولان أن يقولا وداعًا . شعرت رونيا

أنّ ذلك صعبٌ عليها ، وأرادت بكلّ قوّتها أن تبقيه قربها .
«اِسمع يا بيرك ،» قالت أخيرًا ، «أتمنّى أن تكون أخي .»
ضحك بيرك . «وما المانع؟ ما دمتِ تحبّين ذلك يا بنت اللصّ!»
«نعم أحبُّ ذلك ،» أجابت رونيا ، «لكن فقط إذا ناديتني رونيا .»
«رونيا يا أختي ،» هتف بيرك ، ثم اختفى في حَنايا الثلج المدوِّم .



٦

استمرّ الثلجُ يتساقط بغزارة في تلك الليلة على قلعة ماتيس والغابة المحيطة بها. وحتى سكاليبر الهرم لم يتذكّر أنّه قد شهدَ في حياته عاصفةً ثلجية أسوأ. وتطلّبَ دفع بوابة القلعة العظيمة أربعة رجالٍ، فقط لمجرّد أن يتاح لشخصٍ واحد إقحام جسمه خارجها ليجرفَ أكوام الثلج المتراكمة. ولمّا حشر سكاليبر أنفه خارج البوابة لم يشاهد إلا دنيا بيضاء مُقفرة والثلج يخفي تحته كلّ شيءٍ. كانت عَطفةُ الذّئاب محجوبةً تمامًا بجدارٍ ثلجي. ما عنى، حسبَ ما قال سكاليبر، أن لا أحدَ سيكون قادرًا على عبور ذلك النفقِ قبل الربيع، في حال بقي الشتاء على النحو الذي بدأ به.

«اِسمَع يا فولوكس،» قال سكاليبر، إذا كان جرفُ الثلج هو أكثر ما تحبّ، فأنا أضمن لكَ مرحًا كثيرًا على مدى فترةٍ طويلة.»

كانت تنبؤات سكاليبر صحيحةً عادة، وقد أصاب أيضًا في هذه المرّة. فقد تواصلَ تساقط الثلج مدةً طويلة نهارًا وليلًا. وشُغلَ اللصوص بجرفه وألسنتُهم تُطلق الشتائم، لكن على الأقلّ كان هناك شيء واحد في صالحهم: ما عادوا يحتاجون إلى مراقبةِ أتباع بوركا، لا ناحية عَطفة الذّئاب، ولا عند فوّهةِ الجحيم.

«ذاك البوركا هو طبعًا أغبى من خنزير ،» قال ماتيس ، «إلا أنه ليس على ذلك الغباءِ الذي يجعله يسعى إلى العراك والثلج يصل إلى إبطيه .»

وماتيس أيضًا لم يكن ذلك الغبي ، وعلى أي حالٍ لم يكن موضوع بوركا يزعجه في ذلك الوقت ، فقد شغلَت فكره أشياءُ أخرى . إذ ، ولأول مرةٍ في حياتها مرضَت رونيا . ففي الصباح التالي لذلك اليوم في الغابة الثلجية ، اليوم الذي كاد أن يكونَ يومها الأخير ، استيقظَت وهي تعاني من حمّى شديدةٍ ، وأدهشها أن لا تجد في نفسها أي رغبة في النهوض وممارسة نشاطاتها ، كما درجَت أن تفعل .

«ما حكايتكِ؟» صاح ماتيس وهو يرمي نفسه على ركبتيه قرب سريرها . «ماذا تقولين؟ أنتِ لستِ مريضة حقًا ، أأنتِ كذلك؟»

أخذ يدها وشعر كم هي ساخنة ، بل تبيّن له في الحقيقة أن جسمها كلّه يحترق ، واستبدَّ به الخوف . لم يسبق له قطّ أن رآها هكذا من قبل . فهي طوال حياتها كانت تطفحُ بالصحة ، وها هي الآن طريحة الفراشِ ؛ رونيته هذه التي يحبّها حبًا جمًا . وفي الحال عرفَ ، عرف ماذا سيحدث! ستُسلبُ رونيا منه ، ستموت . أخذَت الفكرة بتلابيبه إلى أن تقرّحَ قلبه في صدره . ولم يمتلك أدنى فكرة عمّا يفعله بحزنه الفظيع . لَكَم أحبَّ أن أن يضرب رأسه بالجدارِ ويجأرَ كما اعتاد أن يفعل . لكنه أدركَ أن عليه ألا يُفزِع الطفلة المسكينة ؛ كان على الأقلّ عاقلًا بما يكفي ليدرك ذلك . ولذلك اكتفى بوضع يده على جبهتها المحمومة وغمغَم : «جيّد أن تبقي دافئةً يا رونيتي! هذا ما يجب أن يفعلَه المرء عندما يمرض .»

لكن رونيا كانت تفهم أباها جيدًا ، وعلى الرغم من الحمّى المشتعلةِ فيها حاولت أن تهدئ من روعه .

«لا تكُن سخيفًا يا ماتيس . هذا لا شيء .
كان يمكن أن تصبحَ الأمور أسوأ بكثير .»

وبينها وبين نفسها فكّرت ؛ كان يمكن أن تصبحَ الأمور أسوأ بكثير لو أنني بقيت مطمورةً تحت الثلج من الشتاء إلى الربيع . يا لماتيس المسكين ، ومرّة أخرى تخيّلت كم كان ذلك سيعذبه ، وترقرقَت الدموع في عينيها . رأى ماتيس دموعها وظنَّ أنها راقدةٌ هناك تندبُ حظّها لأنها ستموت في سنّ صغيرة جدًا .

«يا صَغيرتي ، لن تلبثي أن تتعافي ، لا تبكي .» غمغَم وهو يبتلعُ دموعه بشجاعة . «لكن ، أين أمّك؟» هدر واندفعَ نحو الباب باكيًا .

ما يجعل لوفيس لا تقفُ على أُهبة الاستعداد مع أعشابها المسكِّنةِ وحياة رونيا معلّقة بشعرةٍ ، إنه يودُّ أن يعرف!

بحث عن لوفيس في زريبة النّعاج ولم يجدها هناك . مأمأت النعاجُ الجائعة في مرابضها ، وسرعان ما خمّنت أن الشّخص المناسب لإسكاتِ جوعها لم يصِل بعد . فهذا الذي وقف أمامها برأسه الأشعث انحنى على سياجِ الزريبة واستسلم لبكاءٍ يائسٍ عظيم بحيث جعلها تخاف منه حتى الموت .

استمرّ ماتيس يهدرُ إلى أن أقبلت لوفيس عبر الباب بعد أن أنهت مهمّتها مع الخِراف والدّجاج . حينها زمجرَ : «لماذا لستِ مع طفلتكِ المريضة يا امرأة؟»

«ألديَ طفلة مريضة؟» جاء جواب لوفيس الهادئ . «لم أعرف ، وحالما أُعطي النِّعاج ما تحتاجه . . .»

«يمكنني القيام بهذا! اذهبي إلى رونيا!» صاح ، ثم نخر بصوتٍ أرقّ وأردف : «هذا في حالِ ما زالت على قيدِ الحياة!»

بدأ يُبعثر حزم الحورِ من مؤونة النّعاج ، وعندما انصرفَت لوفيس ، أطعم تلك

النّعاج وبثّها شكواه . «أنتِ لا تعرفين ما يعني أن يكون لديكِ أطفال! أنت لا تعرفين كيف يكون الشعور إذا فقدتِ حملكِ الصغير الغالي!»

صمتَ فجأة وقد تذكّر أن النّعاج أنجبَت حملانها في الربيع . وماذا حلّ بتلك الحملان؟ لا شيء سوى لحم ضأنٍ مَشوي .

أعطت لوفيس ابنتها خُلاصات أعشاب مسكِّنة لتشربها ، وخلال ثلاثة أيام ، ولدهشةِ ماتيس وبهجته ، تعافت رونيا ثانيةً . عادت رونيا إلى طبيعتها ، إنما ربما أكثر تعقّلًا من ذي قبل . خلال أيامِها الثلاثة في الفراش فكّرَت كثيرًا . ماذا سيحدث الآن مع بيرك؟ أصبح لديها أخ ، نعم ، لكن كيف سيُتاح لهما أن يلتقيا بأي حال من الأحوال؟ يجب أن يحدثَ ذلك في السرّ ، فهي لن تجرؤ أبدًا على إخبار ماتيس أنها اتخذَت بيرك صديقًا وأخًا . هذا سيكون مثل ضربةٍ على الرأس بمطرقة ثقيلة ، بل أسوأ بكثير ، وسيفجعُ ماتيس ، ويشتعلُ غضبه أكثر من أي وقت مضى . تنهّدَت رونيا . لماذا كان لزامًا على أبيها أن يتعاملَ بعنفٍ مع كلّ شيء؟ وسواء كان سعيدًا أو غاضبًا فالوضع هو نفسُه دائمًا : كانت همجيته وهياجه تعادلان همجية وهياج عصابةٍ كاملة من اللصوص .

لم تعتد رونيا على أن تكذبَ على أبيها . ولذلك التزمَت الصّمت بخصوص أي شيءٍ تعرف أنه قد يحزنه أو يغضبه . أو يحزنه ويغضبه معًا ، وهذا ما ستؤولُ إليه حاله إذا أخبرته عن بيرك . بَيد أن ما حدث لا مفرّ منه ؛ فالآن وقد أصبح لديها أخٌ تريد أن تكون معه ، حتى لو اضطرّت إلى التسلّلِ خلسةً لتلتقي به .

لكن من أين يمكن أن تتسلّل خلسةً وسط هذا الثلج الهائل؟ لن تنجح في الذهابِ إلى الغابة ، لأن مجاز عَطفة الذّئاب مسدودٌ ، والغابة الشتوية في جميع

الأحوال باتت تُفزعها قليلًا ، وقد نالت نصيبًا كافيًا منها لفترةٍ .

لم تتوقّف العواصفُ الثلجية عن العواء حول قلعةِ ماتيس ، وما فتِئت تزداد عتوًا طوالَ الوقت . وفي النهاية أدركَت رونيا فداحةَ الوضع : لن يتسنّى لها أن ترى بيرك ثانيةً قبل الربيع . رأت أنه بعيد جدًّا عنها كما لو أن هناك ألفَ ميلٍ بينهما .

هذا ذَنْب الثلج . غدَت رونيا أكثر فأكثر انزعاجًا منه مع مرور الأيام ، ونفور اللصوص منه ماثلَ نفورها . أجروا القرعة كلّ صباح ليحدّدوا من منهم يتولّى مهمةَ الحراسة . وكان يتحتم على مجموعةٍ منهم أن يشقّوا طريقهم نحو الينبوع الذي يجلبون منه الماء . وبما أنه يقعُ في منتصفِ الدرب المؤديةِ إلى عَطفة الذّئاب . عانوا أشدّ المعاناة في الوصول إليه بينما الثلج يُدوّم حول رؤوسهم ، وعانوا معاناةً أفظع في طريق العودة وهم يسحبون دِلاء الماء الثقيلةَ اللازمة لسدّ حاجة البشر والحيوانات .

«أنتم خامِلون كالثيران ،» وبّخَت لوفيس الرجال ، «ولا تعملون بجدّ إلا عندما تتعاركون وتنهبون .»

واللصوص الخامِلون تطلّعوا بشوقٍ إلى الربيع ، عندما يصبح ممكنًا أن تبدأ حياةُ قطع الطريق والنهب من جديدٍ . قضوا ساعات الانتظار الطويلة بجرف مزيدٍ ومزيدٍ من الثلج ، وإعدادِ زلاجات جديدة ، والاعتناء بأسلحتهم ، وترويض خيولهم ، ولعب النّرد ، وأداءِ رقصات قطّاعِ الطرق ، وترديد أناشيد اللصوص أمام النار كما درجوا أن يفعلوا دائمًا .

لعبَت رونيا النّرد معهم وغنّت ورقصَت أيضًا ، وكانت طوالَ الوقت تتطلّعُ بتشوقٍ إلى الربيع يماثل تشوّق اللصوصِ ، وتتلهّفُ للعودة إلى غابتها الربيعية .

حينها يمكنها أخيرًا أن ترى بيرك من جديد . وحينها يمكن أن يتجاذبا أطرافَ الحديث ، ويمكنها أن تكتشفَ ما إذا كان يريد حقًا أن يكون أخاها كما وعدَها سابقًا في العاصفة الثلجية .

كان الانتظارُ صعبًا ، وكرهَت رونيا أن تبقى محتجزةً . بدَت لها الأيام بالغة الطول ، ونهشها القلق . وهكذا ، شقَّت في أحد الأيام طريقها نزولًا نحو أقبيةِ الأنفاق التي لم تطأها منذ وقتٍ طويل . لم تكن تكترث بالزنزانات القديمة في الأسفل ، حيث العديد منها مُنهار على الجدران الصخرية . طبعًا ، أكّد لها سكاليبر أنّ أحدًا لم يُؤسَر ويُسجن فيها منذ زمنٍ سحيق ، عندما حكم رجال عظماء وبعض الملوك المحليين قلعة ماتيس ، قبل أن تتحوّلَ إلى عرين قطّاع طرق .

مع ذلك ، عندما نزلت رونيا إلى صقيعِ المدافن العفن ، تراءى لها أن شيئًا من نحيب السجناءِ وأنينهم مِن مضى على موتهم زمنٌ طويل ما زال ملتصقًا بالحيطان الصخرية ، وسبّب لها هذا شعورًا مخيفًا . أضاءت بفانوسها المخروطي ظلمةَ الزنزانات والزوايا التي قبع فيها التعساء المساكين بلا أملٍ في أن يروا الضوءَ ثانيةً أبدًا . وقفَت ساكنةً برهة ، تتأسّى على القسوة التي أخذت مجراها في قلعة ماتيس . ثمّ ، والقشعريرةُ تسري فيها أحكمَت لفّ معطفها من فراء الثعلب حولها ومضت خلال الممرات السفليةِ التي امتدت إلى ما بعد الزنزانات تحت القلعة بأسرها . سبق أن نزلَت إلى هناك مع سكاليبر ، وهو من أراها ماذا فعلت العاصفة ليلةَ أبصرَت النور . العاصفة التي لم تقنع بشقّ فوّهةِ الجحيم ، بل سحقت الصخر في أسفل الفوّهة أيضًا ، وبالتالي تجوّفَ الممرّ السّفلي في المنتصف واكتظّ بالركام .

هذه هي النهايةُ . عليكِ التوقّف هنا! قالت رونيا لنفسها تمامًا كما قال لها سكاليبر عندما اصطحبها إلى هناك .



بيد أنها بدأت تُعمِل فكرَها . فالممرّ لا بُدَّ من أنه يمتدّ إلى الجانب الآخر بعد الصخور المتراكمة ، عرفت هذا لأن سكاليبر أخبرها بذلك أيضًا . ولطالما اغتاظَت لأنها لا تستطيع المضي أبعد ، بل اغتاظت في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى . إذ مَن يدري؟ فبيرك بالتأكيد هو في مكان ما عند الجانب الآخر من هذه الأنقاض .

وقفت تُمعِن النظر في أكوامِ الصخور المتراكمة . وأخيرًا توصّلت في تفكيرها إلى شيءٍ ما .

على مدى فترةٍ من الوقت ما عاد روّادُ القاعة الحجرية يرون رونيا إلا لِمامًا . كانت تختفي في الصباح ، ولا أحدَ عرف أين هي ، ولم يتساءل لا ماتيس ولا لوفيس عن مكانها . وكالآخرين خمّنا أنها تجرفُ الثلج ، وكانا في جميع الأحوال معتادَين على مجيئها ورواحها كما تشاء .

في الحقيقة لم تكُن رونيا تجرف الثلج . بل واظبَت بانهماكٍ على نقل أنقاضِ الحجارة وتنحيتها إلى أن آلمتها ذراعاها وظهرها . ولا ترتمي ليلًا في سريرها إلا وطاقتها قد استُنزِفت ، ولا شيءَ في ذهنها سوى التيقّن من أنها لن تنقلَ مطلقًا مرةً أخرى في حياتها أي صخور ، كبيرة أو صغيرة . ومع ذلك لا يكاد الصباح يطلعُ إلا وتعود إلى السراديب السفلية ، وتباشِر مهمتها بطاقةٍ شرسة ، تملأ دلوًا تلو دلوٍ بالحجارة . كرهتها ، كرهت تلك الحجارة المتكوّمة إلى درجة أنه كان يجب أن تنصهرَ . طبعًا لم تنصهر ، بل بقيت مستقرّةً حيث هي ، وعلى رونيا أن تنقلها بدلوٍ تلو آخر ، وتفرغها في الزنزانة الأقرب .

ثم جاء يوم طفحَت فيه الزنزانة بالحجارة ، وكومة الأنقاض غاصت إلى نقطةٍ يمكن ربما بشيءٍ من الصعوبة تسلّقها إلى الطرف الآخر ، إذا تجاسرت! أدركت رونيا آنئذ أنه قد حان الوقت للتفكير . أتجرؤ على التقدّم مباشرة نحو مَعقِل بوركا؟ وماذا يمكن أن يحدثَ لها هناك؟ هذا لم تستطع أن تتكهّنَه . ما أيقنَت منه هو أنها باتت تقفُ على أرضٍ خطرة . على الرغمِ من ذلك ، لم يكن ليصدَّها أي شيءٍ مهما بلغ من خطورةٍ في سبيل الوصول إلى بيرك . اشتاقت إليه .

كيف حدث ذلك؟ لم تكن لديها فكرة . فهي في الحقيقة مَقتتهُ منذ البداية ، وتمنّت أن يستقرّ هو وعصابة بوركا كلّها في قعر فوّهةِ الجحيم . مع ذلك ، ها هي

تقف هناك ، لا تريد إلا العبور نحو طرفِ الأنقاض الآخر ، لترى إن كان يمكنها أن تعثرَ على بيرك .

ثمّ سمعَت حسًا . تناهَى إليها وقعُ خطوات شخص يتقدّم من ناحية الأنقاض الأخرى . ومن يمكن أن يكون إلا لصًا من عصابة بوركا؟ حبسَت أنفاسها ووقفَت بسكون تام ، لا تجرؤ على الإتيانِ بحركة ، تُرهف السمع وتتمنّى لو أنها في مكانٍ بعيد جدًا قبل أن يكتشفَ ذاك الذي عند الطرف الآخر من كومةِ الحجارة أنها هنا .

ثمّ بدأ اللصّ البوركي يصفّرُ لحنًا بسيطًا سبق أن سمعتَه من قبل . نعم ، سبقَ أن سمعته من قبل حقًا! كان بيرك يردّده وهو يجاهدُ ليحرّرَها من حفرة أقزام الأرض الصّغار . أيُعقلُ أن يكون بيرك هناك ، قريبًا جدًا منها ، أو هل يردّد جميع لصوصِ بوركا ذلك اللحن المعيّن؟

تحرّقَت شوقًا لتكتشفَ الحقيقة ، إلا أنها لم تجرؤ بأي حالٍ على المبادرة بالسؤال . فذاك شيءٌ خطر . وفي الوقت نفسِه تحرّقت شوقًا لتعرفَ من ذاك الذي يصفّرُ ، وبالتالي قرّرَت أن تصفّرَ هي أيضًا ، مردّدةً اللحن نفسه ، بصوتٍ جدّ منخفض .

ساد الصمتُ في الجانب الآخر . لفترةٍ طويلة طغى سكونٌ رهيب هناك ، وتأهّبت لتطلقَ ساقيها للريح في حال جاهدَ لصٌّ بوركي
مجهول ليشقّ طريقه فوق الأنقاض ويمسكَ بتلابيبها .

في تلك اللحظة سمعَت صوت بيرك . «رونيا؟!» قال بصوتٍ منخفضٍ ومتردّدٍ ، كصوت شخصٍ يجهلُ ما يمكن أن يتوقّعَه .

«بيركـ!» صاحت بسعادةٍ لا توصف إلى درجةِ أن أنفاسها كادت تنقطع .
«بيرك ، أوه ، بيركـ!»
ثمّ صمتَت . بعد لحظةٍ قالت : «أحقًا تريدُ أن تكون أخي؟»
سمعَته يضحك عند طرفِ الأنقاض الآخر . «أختي ،» قال ، «أحبُّ سماع صوتِك ، لكنني أفضّل أن أراكِ أيضًا . أما زالت عيناكِ بسوادِهما المعهود؟»
«تعالَ وانظُر بنفسكَ ،» أجابت رونيا .
إلا أنها لم تُضِف أكثر من ذلك ، فقد سمعت شيئًا آخر ، شيئًا قطع أنفاسَها وأبكمها . سمعت بابَ القبو الثقيل البعيد يُفتح ويُغلق ثانيةً بقوةٍ ، وثمة من يهبطُ الدرجَ . نعم ، كان هناك شخصٌ قادم ، وإذا لم تُعمِل ذهنها بسرعةٍ هائلة لتهتديَ إلى ما يجب أن تفعله ستهلَك ، ويهلَك بيرك معها! سمعت الخطوات تقتربُ أكثر فأكثر . كان أحدهم يتقدّم بهدوء وتصميم على طول السرداب الطويل . سمعَت وأدركَت ما يعني ذلك ، إلا أنها وقفَت هناك كالبلهاء ، متيبّسةً من الرعب . وكاد الأوان يفوت فعلًا عندما عادَ إليها رشدها ، فهمسَت بسرعة لبيرك : «غدًا .»
ثم جرت لتقابلَ أيًا من كان قادمًا . إنّ أيًا من كان القادم يجب ألا يرى ما فعلَته بالحجارةِ المنهارة . أخيرًا تبيّنَ لها أن القادم ليس إلا سكاليبر ، وحالما أبصرَها انفرجَت أساريره .
«كم بحثتُ عنكِ وبحثتُ!» قال . «ماذا كنتِ تفعلين بحقّ الخطّافات المخيفات؟»
أمسكَت ذراعه بخفّة ، وجعلته يستديرُ قبل أن يفوتَ الأوان .
«لا يمكن أن يجرفَ المرء الثلجَ طوال الوقت ،» قالت .
«تعال ، أريدُ أن أخرجَ من هنا .»

أرادت الخروج بالفعلِ! عندئذٍ فقط أدركَت فداحةَ ما قامت به . فتحَت طريقًا نحو مَعقِل بوركا . فقط لو عرف ماتيس!

هو ربما لا يتميّزُ بمكر الثعالب ، لكنه على الأقل سيدرك أنّه أصبح لديه أخيرًا مَنفذ يقوده إلى بوركا . كان يمكن أن يكتشفَ الأمر وحده منذ فترةٍ بعيدة ، فكّرت رونيا ، وقد أسعدها أنه لم يفعل ، واستغربَت من شعورها هذا . فهي ما عادت تريد أن تُطردَ عصابةُ بوركا من قلعة ماتيس . يجب أن يُسمح لهم بالبقاء هنا ، من أجل بيرك . يجب ألا يُطردَ بيرك ، ولا أحدَ ، لا أحدَ سيدخل مَعقِل بوركا من المنفذِ الذي فتحَته ، ما دامت تستطيعُ الحؤولَ دون ذلك . ولذا عليها أن تتأكّدَ من أن سكاليبر لم يبدأ في إعمال ذهنِه بأي أفكار غير ضرورية . هناك كان ، يمشي إلى جانبها ، ويبدو مُلمًّا بكلّ شيء ، ولو أن ذاك ليس إلا تعبير وجهِه المعتاد . كان من السهل تخيّل أنه مطّلعٌ على أسرار المرء كلّها ، إنما مهما بلغَ دهاؤه ، تبيّن هذه المرة أن رونيا أدهى منه . أو في أدنى الأحوال ، هو لم يكتشف سرّها بعد ، ليس في الوقت الراهن .

«لا ، لا ، لا يستطيعُ المرءُ أن يجرف الثلج طوال الوقت .» وافقها سكاليبر . «لكن يمكنه أن يلعب النّرد ليلًا ونهارًا ، ألا تظنين هذا يا رونيا؟»

«نعم ، يمكنكَ أن تلعبَ النّرد ليلًا ونهارًا ، خصوصًا الآن ،» أجابت رونيا وهي تجرّه بحماسةٍ نحو درج القبو المتعرّجِ .

وهكذا لعبَت النّرد مع سكاليبر إلى أن حان وقتُ النوم وأغنية الذّئابِ ، وبيرك يشغلُ ذهنها طوالَ الوقت .

غدًا! تلك كانت آخِر فكرةٍ راودتها قبل أن تستسلمَ للنوم . غدًا!

٧

أخيرًا هلَّ الصباح ، ورونيا سترى بيرك . عليها أن تمضيَ بسرعة ، بعد أن تترقّبَ اللحظة القصيرة التي تبقى فيها وحدها في القاعة الحجرية بينما ينهمكُ الآخرون بمهامهم الصباحيةِ المختلفة . وعليها أيضًا أن تحتاطَ لتتجنّب أسئلةَ سكاليبر الذي قد يظهر في أي لحظةٍ .

يمكنني علاوةً على ذلك أن آكلَ في الأسفل ، فكّرَت . وعلى كل حال لا مجالَ لأن يأكلَ المرء وجبةَ طعامه هنا بسلامٍ .

حشرَت الخبزَ بعجالةٍ في حقيبتها الجلديةً ، وصبَّت الحليب في جرتها الخشبيةِ . ومن غير أن يلمحها أحدٌ سلكت طريقها نزولًا إلى سراديب القبو . وسرعان ما وصلَت إلى كومة الحجارة .

«بيرك!» نادت والخشيةُ تعتملُ فيها من أن لا يكون هناك . لا أحد ردّ على ندائها من وراء الأنقاض . شعرت بخيبةِ أمل كادت تبكيها . ماذا لو لم يأت! ربما نسي تمامًا ، بل ربما هناك ما هو أسوأ ، في حال ندمَ على لقائهما . فهي أولًا وآخرًا تنتمي إلى عصابة لصوص ماتيس ومن أعداء بوركا ؛ ولعلّه في نهاية المطافِ لم يرغب في أن يكونَ له أي شأنٍ مع شخصٍ مثلها .

فجأةً، شدّ أحدهم شعرها من الخلفِ. صرخَت فزعًا. أَعليهِ أن يأتي مُتسلّلًا إلى هنا ذاك الـ سكاليبر! لكن من فعل ذلك كان بيرك. وهناك وقف يضحك وأسنانُه البيضاء تلمع في العتمة.

بالطبع لم تميّز منه ما هو أكثر من ذلك بكثيرٍ على ضوء الفانوس المخروطي.

«إني أنتظركِ منذ وقتٍ طويل،» قال بيرك.

شعرت رونيا بدفقٍ من البهجة يسري فيها من مجرّد التفكير في أن لديها أخًا لا يمانع أن ينتظر وقتًا طويلًا من أجلها!

«وأنا كذلك،» قالت. «ما فتئتُ أنتظر منذ أن أفلَتُّ من أقزام الأرض الصّغار.»

لفترةٍ من الوقت بعد ذلك لم يستطيعا التفكير في ما يمكنُ أن يقولاه. اكتفيا بالوقوف هناك، صامتَين وسعيدَين جدًّا لاجتماعهما من جديدٍ.

رفع بيرك شمعته الزيتية وحملها قريبًا من وجهها.

«ما زلتِ تحتفظين بعينيك السوداوين،» قال، «نعم، ما زلتِ كما أنتِ لولا أنكِ شاحبة قليلًا.»

آنذاك فقط لاحظت رونيا أن بيرك لا يبدو كما عَهدته وكما تتذكّره. أصبح نحيلًا؛ وجهُه هزيل وعيناه كبيرتان جدًّا.

«ماذا فعلتَ بنفسكَ؟» سألته.

«لا شيءَ،» أجاب بيرك. «لم أكن آكُل جيدًا. هذا مع أنني أنال حصّةَ طعامٍ أكثر من أي أحدٍ آخر في مَعقِل بوركا.»

استغرقت رونيا بعضَ الوقت قبل أن تستوعبَ ما قاله.

«أتعني أن لا طعامَ لديكم؟ ليس لديكم طعام يسدُّ رمقكم؟»

«لا أحدَ منّا نال كفايته من الطعام منذُ فترةٍ طويلة . مَؤونتنا في طريقها إلى النفاد ، وإذا لم يُقبِل الربيع في أقربِ وقت ، ينتهي أمرنا . تمامًا كما أردتِ ، أتذكرين؟» أجاب ضاحكًا .

«ذاك كانَ في السابق ،» قالت رونيا . «حينها كنتُ بلا أخٍ . والآن لدي أخ .»

فتحَت حقيبتها الجلدية وناولته الخبز . «كُل ما دُمتَ جائعًا ،» قالت .

ندَّ عن بيرك صوتُ غريب ، أقرب إلى الصرخةِ . أخذَ شرائح الخبز السميكة ، قطعة في كلّ يدٍ وأكل . بدا الأمر كما لو أن رونيا ليست هناك . كان وحدَه مع خبزه ، يبتلعه إلى آخر الفتاتِ . بعدئذٍ ناولته رونيا جرّةَ الحليب فوضعها بشراهةٍ على فمه وشرب ما فيها إلى آخر قطرةٍ .

في ما بعد نظر بخجلٍ إلى رونيا . «أليسَ من المفترض أن يكون هذا لكِ؟»

«لدينا المزيد في البيت ،» أجابت . «وأنا لا أتصوَّرُ جوعًا .»

ثم في عينِ خيالها رأت مؤونةَ لوفيس الوافِرة في المخزن الهائل : الخبز الرائع ، جبنة الماعِز وجبنة مصلِ الحليبِ الطرية ، والبَيض ، وبراميل الطّعام المملّح ، وأضلاع الخِراف المدخّنة تتدلّى من السقف ، الصناديق العامِرة بالطّحين والحبوب والبازلاء المجفّفة ، قدور العسلِ ، سِلال البندق وأكياس الأعشابِ وأوراق النباتاتِ التي جمعتها لوفيس وجفّفتها لتضيفها إلى حساءِ الدّجاج الذي تُعدّه أحيانًا . حساء الدّجاج ذاك . . . بدأت رونيا تشعر بالجوع عندما تذكّرَت كم هو لذيذ مذاقُ ذلك الحساء بعد كلّ الطعام المملّح والمدخّن الذي لا بدّ من أن يتناولوه طوالَ الشتاء .

إنما هناك حيثُ يعيش بيرك الناس يتضورونَ جوعًا . ولم تستطع أن تفهم لماذا .



بَيْد أنه أوضحَ لها . «نحن في الوقت الحاضرِ لصوصٌ فقراء . كان لدينا خراف وماعز أيضًا قبل أن نأتي إلى قلعة ماتيس . الآن لا نملكُ سوى خيولنا . وهذه أودعناها في إسطبل أحد المزارعين في الأسفل وراء غابة بوركا . والحمد لله أننا فعلنا ذلك ، وإلا كنّا أكلناها بما أن أحوالنا بهذا السوء . كانت لدينا كمية من الطّحين والملفوف والبازلاء والسمك المملّح ، وهي في طريقها إلى النفادِ حاليًا . أوف ، يا له من شتاءٍ يمرّ علينا!»

شعرَت رونيا كما لو أن الذنبَ ذنبها وذنب قلعة ماتيس لأن بيرك يعاني من المصاعبِ ولأنه أصبح هزيلًا وجائعًا . لكنه على الرغم من ذلك ما زال قادرًا على الضحك .

«لصوصٌ فقراء ، نعم ، هذا ما نحن عليه! ألا تشمّين رائحةَ القذارة والفقر التي تفوح مني؟» قال بوجهٍ متجهّم . «نادرًا ما نحصلُ على الماء أيضًا . علينا أن نذيبَ الثلج ، لأنه من المستحيل أحيانًا أن ننزل إلى الغابة لنستخرجَ ماء الجدول من تحت الثلج المتراكم . وبعد ذلك نسحب على طول سلّم الحبال دلو ماءٍ في العاصفة الثلجية . أحاولتِ يومًا أن تجربي ذلك؟ بالطبع لا ، لأنك لو فعلتِ لعرفتِ لماذا تفوح مني رائحة لصّ قذر .»

«لصوصنا تفوحُ منهم الرائحة نفسها ،» أكّدت له رونيا لتسرّيَ عنه . أما هي فقد كانت رائحتها طيبة ، لأن لوفيس تواظِب على فرك جسمها في الحوض الخشبي الكبير أمام النار كلّ ليلة سبت ، وتُفلّيها هي وماتيس في صباح كلّ يوم أحد بمشطِ القمل ، ولطالما اشتكى ماتيس من أنها تقتلعُ شعره أيضًا . لم يَرُقْ له قطّ أن تُفلّيه بالمشط ، لكنه اضطرّ دائمًا إلى الإذعان لها .

«يكفي أن لدينا اثني عشر لصًا بشعرِ أشعث يعجّ بالقمل ،» درجَت لوفيس

على القول. «وفي نيتي أن أفلّيَ الزعيم حيًا أو ميتًا، طالما أنا قادرة على حملِ مشط القمل.»

تأمّلَت رونيا بيرك على ضوء فانوسها باهتمام وهو واقف هناك. لاحظَت أن شعره وإن لم يكن قد فُلّي من القمل ما زال مستقرًا كخوذةٍ نحاسية على رأسه المتصل بأناقة بجِيدِه الأهيَف وكتفيه العريضتين.

إنّه أخٌ وسيم. فكّرت رونيا.

«لا يهمّ إذا كنتَ فقيرًا ومصابًا بالقمل وقذرًا،» قالت. «أنا فقطْ لا أُريدُكَ أن تجوع.»

ضحك بيرك. «كيف عرفتِ أنني مصابٌ بالقمل. هذا صحيح بالتأكيد! مع ذلك أنا حتمًا أُفضّلُ القملَ على الجوع.»

ثم عاد إلى الحديث الجدي. «اِنسي أمر الجوع! مع أنه كان في وسعي أن أحتفظَ بقضمةِ خبز من أجل آنديس في جميع الأحوال!»

«يمكن أن أجلبَ المزيد،» قالت رونيا بتأنٍ، لكن بيرك هزّ رأسه نفيًا.

«لا، لا أستطيع أن آخذَ الخبزَ لآنديس من غير أن أخبرَها كيف حصلتُ عليه. وعندئذ يحتدمُ غضب بوركا إذا اكتشف أنني آخذُ الخبز منكِ، وأننا تعاهدنا على أن نكون أخوَين.»

تنهّدَت رونيا. طبعًا كانت تدرك جيدًا أن بوركا يحتقرُ ماتيس وعصابته بقدرِ ما يحتقر ماتيس بوركا وعصابته. آهٍ، كم يفسد هذا الأمور عليها وعلى وبيرك!

«يستحيلُ أن نلتقي إلا في الخفاء،» قالت بصوتٍ حزين، ووافقها بيرك.

«صحيح! وأنا أكره القيامَ بالأشياء في الخفاء.»

«وأنا أيضًا،» قالت رونيا. «ليس هناك ما أكرهه أكثر من السّمك المعتّق

والمملّح وفصولِ الشتاء الطويلة ، بيد أنّ إبقاء الأمور في الخفاء في حين هي سخيفة جدًّا أسوأ من أي شيءٍ آخر!»

«لكنك مع ذلك ستُبقين هذا سرًّا؟ من أجلي؟ وفي الربيع يغدو الوضعُ أسهل .» قال بيرك . «حينذاك نستطيعُ أن نلتقيَ في الغابة بدلًا من حفرةِ القبو هذه الباردةِ كالثلج .»

نهش الصقيعُ في جسميهما بينما هما هناك ، إلى درجة أنّ أسنانهما أخذت تصطكُّ ، وأخيرًا قالت رونيا ، «أعتقدُ أنه يجدر بي الذهاب الآن قبل أن أتجمّدَ حتى الموت .»

«وتعودين غدًا؟ إلى أخيكِ المصابِ بالقمل؟»

«طبعًا ، ومعي مشط القملِ وغيره من هذا وذاك ،» أجابت رونيا .

ولم تنس وعدها طبعًا . باكرًا في كلّ صباح بقدرِ ما دام الشتاء قابلَت بيرك في سراديب القبو ، وأبقته حيًا بالطعام المجلوبِ من مخزن لوفيس .

شعر بيرك أحيانًا بالخجل من هداياها التي تلقّاها . «أشعرُ كما لو أنني أسرق منكِ ،» قال .

هذا جعل رونيا تضحك . «ألستُ بنتَ لصٍّ؟ لماذا إذًا لا أسرق؟»

كانت على أي حالٍ تعرف أن معظمَ ما في مخازن لوفيس منهوبٌ من التجارِ الأغنياء الذين يسافرون عبر الغابة .

«اللصُّ يأخذ من غير أن يسألَ أو يستأذن . . . هذا على الأقلّ ما تعلّمته أخيرًا .» قالت رونيا . «والآن أنا أطبّقُ ما تعلّمته . لذا ما عليكَ إلا أن تأكل!»

ويوميًا أعطته أيضًا كيسَ طحينٍ وكيس بازلاء ليدسّهما سرًّا في مخزن آنديس .

هذا ما آل إليه الأمرُ إذًا ، فكّرت رونيا . أريد أن أُبقيَ لصوص بوركا أحياءً .

الويلُ لي إذا حدث أن اكتشف ماتيس ما يحدثُ في يومٍ من الأيام!

شكرها بيرك على كرمِها .

وقال وهو يطلقُ ضحكته المعهودة : «آنديس تعتريها الدهشة يوميًا عندما ترى أنّ صناديقها ما زالت تحتوي على القليل من حبوب البازلاء والقليل من الطحين . وهي تظنّ أنه لا بدّ من أن هناك تعويذةَ سحرٍ ما تؤتي مفعولها!»

كان بيرك قد أصبح في هذه الفترة أقربَ إلى طبيعته ، وما عاد يبدو عليه أثر الجوع كالسابق ، وهذا أسعدَ رونيا كثيرًا .

«مَن يدري؟» قال بيرك . «لعلّ أمي محقّة بخصوص السحر . فأنتِ تبدين نوعًا ما مثل خطّافة صغيرة يا رونيا .»

«لكن لطيفة وبلا مخالب ،» أجابت رونيا .

«نعم ، لطيفة بقدر ما يمكن أن يكونَ اللطف! كم مرّة تنوين إنقاذَ حياتي يا أختي؟»

«بعددِ المرّات التي أنقذتَ فيها حياتي ،» قالت . «الحقيقةُ هي أن أيًا منّا لا يستطيع تدبّر أموره مِن دون الآخر . وأنا أدركُ ذلك الآن .»

«نعم ، صحيح ،» قال بيرك . وليفكّر ماتيس وبوركا كما يحلو لهما .

لكن ماتيس وبوركا ما كانا يفكّران في هذا مطلقًا ، لأنهما لم يعرفا شيئًا عن اللقاءات بين الأخ وأخته في الأسفل عند سراديبِ القبو .

«أأكلتَ كفاية؟» سألته رونيا . «سأبدأ الآن في استخدامِ مشط القمل .»

رفعَت المشطَ كأنه سلاح واقتربَت منه . مساكينٌ لصوص بوركا فهم ما عاد لديهم ولا حتى مشط قملٍ! أحبَّت ملمس شعر بيرك الناعِم تحت يديها وعمدَت إلى تفليته بالمشط أكثر مما تستدعي الحاجة .

«أصبحتُ خاليًا من القمل إلى أقصى درجةٍ ،» قال بيرك ، «ويتراءى لي أنكِ الآن تمشطين بلا جدوى .»

«سنرى ،» هتفَت رونيا وهي تقحمُ مشط القملِ بعزمٍ في شعره .

بدأت وطأةُ الشتاءِ القاسي تخفّ بالتدريج . ذابَ الثلج شيئًا فشيئًا ، وفي ظهيرةِ يوم ، عندما بلغ ذوبان الثلج ذروته ، أخرجَت لوفيس اللصوص إلى الثلج ليغتسلوا ويتخلّصوا من أغلبِ ما عليهم من أوساخ .

قاوموا ورفضوا الذّهاب . وأصرّ فولوكس على أن مثلَ هذه الأفعال تضرّ بالصحة . إلا أن لوفيس بقيت ثابتةً على موقفها .

«يجب أن تتلاشى منكم رائحةُ الشتاء الآن ،» قالت ، «حتى وإن قضى كلّ منكم نحبه وهو يغتسل .» أخرجتهم إلى الثلج بلا رحمة ، وسرعان ما راح اللصوص العُراة المزمجرون يتدحرجون على المنحدرات الثلجية عند عَطفة الذّئاب . شتموا لوفيس بأصواتٍ عالية ولمدّة طويلة ، بسبب قسوتها اللاإنسانية ، ومع ذلك فركوا أجسادهم كما طلبَت منهم . لم يتجاسروا على ألا يفعلوا .

سكاليبر وحده رفضَ بعناد أن يتمرّغَ في الثلج . «أنا قد أموت في جميع الأحوال ،» قال ، «وأريد أن أموتَ بكلّ ما عليَّ من أوساخ .»

«كما تشاء ،» قالت لوفيس ، «إنما قبل أن تموت ، يمكنكَ على الأقل أن تهندمَ

شعر ولحى تلك الكبوش البرية الأخرى .»

أعرب سكاليبر عن سروره للقيام بما طلبته لوفيس . كان ماهرًا في استخدام المقص عندما تستدعي الحاجة جزَّ فراء الحملان والخراف ، وهو بالتأكيد قادر على تولّي أمر أي كبش برّي راشِد .

«أمّا أنا فسأترك خصلتي شعري المتبقيتين وشأنهما . ولا داعي لافتعال جلبةٍ غير ضرورية ، لأنني عمّا قريب أصبحُ تحت التراب ،» أعلنَ وهو يمسّد يافوخه الأصلع برضا .

عندئذٍ رمى ماتيس ذِراعيه الهائلتين حول سكاليبر ورفعه مسافةً مُعتبرة عن الأرضية . «كُفّ عن ذكرِ الموت! أنا إلى الآن ما عشتُ يومًا من حياتي الدنيوية من دونكَ ، أيها الأحمق الهرِم ، ولذا إياكَ أن تغافلَني وتموت ، وأنتَ تدركُ هذا تمام الإدراك!»

«سنرى يا صغيري ، سنرى ،» قال سكاليبر ، وقد بدا راضيًا تمامًا عن نفسه .

صرفَت لوفيس بقيّة اليوم تغسلُ ثياب اللصوص النتنةِ في باحة القلعة . وهرع اللصوص إلى مخدعِ الثياب بحثًا عن شيء يرتدونه ريثما تجفّ ملابسهم . كان معظمُ ما في الحجرة حللًا وأرديةً نهبها جدّ ماتيس في أيامه وأحضرها إلى البيت .

كيف يمكن أن يرتدي أي مخلوق بكاملِ عقله مثل هذه الحلل؟

تساءل فولوكس بارتياب وهو يُقحم قميصًا أحمر في رأسه . سار الأمر سيرًا حسنًا بالنسبة إليه ، بيد أنه كان أسوأ بكثير لنوت وليتل سنيب اللذين اضطرّا إلى القبول بتنانير النساء الداخلية والمشدّات ، بما أن ثياب الرجال كلّها كانت قد أُخِذت عندما جاءا لينظرا . وهذا لم يحسّن مزاجَ أحد طبعًا ، لكن ماتيس ورونيا استمتعا بتلك المشاهِد وقتًا طويلًا .

أعدَّت لوفيس في تلك الليلة حساءَ الدّجاج لتسترضيَ اللصوص . كانوا قد جلسوا عابسين حول مائدةِ الطعام الطويلة ، أجسادهم نظيفة وشعرهم مرجّل وتمييزهم يكادُ يكون مستحيلاً . حتى رائحتهم فاحَت مختلفة .

ثم عندما انتشر أريجُ حساء دجاج لوفيس النفّاذ عبر المائدة ، كَفّ اللصوص عن العبوس . وحالما انتهوا من الأكل غنّوا ورقصوا كما درجوا أن يفعلوا ، وإن قاموا بذلك على نحو ألطف من المعتادِ . أما نوت وليتل سنيب فتفاديا على وجه الخصوص القفزات العنيفة .

٨

جاءَ الربيعُ في النهاية كصيحةِ بهجةٍ تنادي الغابةَ المحيطة بقلعة ماتيس . ذابَ الثلج ، وسالَ عن وجوه المنحدرات ووجدَ طريقه إلى النهر . والنهرُ أرغى وأزبد احتفاءً بجيشان الربيع وغنّى بمعيّة شلاله أغنيةَ ربيع جامحة لم تخْبُ قطّ . سمعتها رونيا عندَ كلّ ساعة استيقاظ بل حتى سمعتها في أحلامِها الليلية . لقد مضى الشتاءُ الطويل الفظيع . وخلَت عَطفةُ الذّئاب من الثلج منذ فترة طويلة ، وحلّ محلّه سيلُ هائج يندفع فيه نزولًا . وباكرًا في صباح يومٍ أقبلَ ماتيس وعصابته من اللصوص يمتطون خيولهم ويعبرون المسربَ الضيّق ، فراح الماء يتطاير حول الخيول . غنّى الرجال وصفّروا وهم ينطلقون . أوه ياه هووه ، ها قد عادت حياةُ اللصوصية الرائعة ، وبدأت تأخذُ مجراها من جديد!

وأخيرًا كانت رونيا ستذهب إلى غابتها ، الغابة التي افتقدَتها أيّما افتقاد . أرادت ارتيادَها بمجردِ أن يذوبَ الثلج ويسيلَ الجليد لتتفقّد ما يجري في منطقتها ، إلا أنّ ماتيس ألزمها بعنادٍ البقاءَ في البيت . وزعمَ أن غابة الربيع محفوفةٌ بالمخاطر ، ولن يسمحَ لها بالذهاب إلا يوم يحين وقت انطلاقه مع لصوصه .



«هيّا اذهبي الآن ،» قال ، «وحذارِ من الغرقِ في بعض البحيرات الصغيرة المخادعة .»

«أوه ، بل هذا ما سأفعله ،» أجابت رونيا . «لأزوّدكَ أخيرًا بشيء تتخذه عُذرًا لافتعالِ جلبة .»

حدّق ماتيس فيها بوجهٍ كئيب . «يا رونيتي ،» همهمَ وهو يتنهّد . ثم رمى

نفسه على سرجِ حصانه ، وقاد عصابته نزولًا على المنحدرات واختفى .

حالما رأت رونيا ردفَ آخِر حصان يختفي عبر عَطفة الذّئاب ، انطلقَت هي الأخرى بسرعةٍ . وهي أيضًا غنّت وصفّرَت بينما راحت تخوضُ ماء الساقية البارد ، ثم جرَت وجرَت إلى أن وصلَت إلى البحيرةِ .

وهناك كان بيرك ، كما وعدَها . كان مستلقيًا على صخرة مستويةٍ تحت أشعة الشمس . لم تعرف رونيا أهو نائم أم صاح ، فالتقطَت حجرًا وقذفته في الماء لترى ما إذا سمع صوتَ الرذاذ المتطاير . نعم سمعه ، وسرعانَ ما هبّ واقفًا وتقدم مقتربًا منها .

«لبثتُ أنتظركِ منذُ وقتٍ طويل ،» قال . ومن جديدٍ شعرت في سريرتها بتلك الطفرة الصغيرة من البهجة لأن لديها أخًا ينتظرها ويريدُ منها أن توافيه .

وها هي الآن هنا ، تقتحمُ الربيعَ بإقدام . بدا كلّ شيءٍ رائعًا من حولها ، روى تعطُّشها للجمال ، وجعلها تصيحُ كعصفور ، بصوتٍ عالٍ وثاقب .

«أنا مضطرّة إلى إطلاقِ صيحة الربيع وإلا أنفجر ،» أوضحَت لبيرك . «أنصِت! ألا يمكنكَ أن تسمع الربيع؟»

وقفا صامتَين ، يستمعان إلى الزقزقة وتدفّق الماء والطنينِ والترنيم والخرير في غابتهما . كانت هناك حياةٌ تدبّ في كلّ شجرة ومجرى ماءٍ وأيكة خضراء ، وصدى أغنية الربيع الجامحة والمتوهّجة يتردّدُ في كافة الأنحاء .

«إني أقفُ هنا وأشعر بالشتاء يتسرّبُ مني ،» قالت رونيا . «وقريبًا أُصبح في منتهى الخفّة بحيث أطير .»

دفعها بيرك بلطف . «طيري إذًا! مؤكّد أن هناك مجموعة من الخطّافات تحلّق في

الأجواء ويمكن أن تنضمّي إلى سربها .»

ضحكت رونيا . «نعم ، عليَّ أن أكتشف كيف أُبلي معها .»

في تلك اللحظة سمعَت وقعَ حوافر خيول . كانت الخيول تُقبِلُ عدوًا من مكانٍ ما ناحية النهر . وسرعانَ ما انطلقَت بعجلة .

«تعال يا بيرك! أودُّ أن أمسكَ حصانًا بريًا!»

وهكذا ركضا متتبِّعَين الخيول إلى أن رأياهم ، مئات من الخيول نفرَت مخترقةً الغابة باندفاعٍ إلى أن جلجلَت الأرض تحت حوافِرها .

«لا بدَّ منَ أنّ ذئبًا أو دبًا أفزعها ،» قال بيرك . «وإلا ما الدّاعي لأن تنفرَ خائفة جدًّا؟»

هزّت رونيا رأسَها . «إنها ليست خائفة ، هي فقط تنفضُ الشتاء عن أجسامها . وعندما تتعب من هذا وتبدأ في رعي العشبِ سأمسك أحدها وأصطحبه معي إلى قلعةِ ماتيس . لطالما رغبتُ في أن أفعلَ ذلك .»

«إلى قلعةِ ماتيس! ما حاجتكِ إلى حصانٍ هناك؟ امتطاءُ الخيول للغابة . وربما يُستحسن أن نمسكَ اثنين ونمتطيهما مباشرةً .»

فكّرت رونيا في الأمر ، ثم قالت : «أرى أنه حتى عشيرة بوركا يمكن أن تمتلكَ أدمغةً في رؤوسها . سنقوم بهذا! تعال نحاول!»

أخرجَت حبلها الجلدي . كان بيرك قد اتخذَ لنفسه حبلًا مثله ، تجهّزا لنصبِ الكمين وتواريا وراء صخرةٍ عند المدخل إلى الفسحة حيث أحبّت الخيول البرية أن ترعى العشب .

ولم يسأما مطلقًا من الانتظار .

«أنا مستمتعٌ بالاكتفاء بالجلوس هنا في حضن الربيع ،» قال بيرك .

اختلسَت رونيا النظر إليه وتمتمَت من بين أنفاسها : «أحبّكَ لهذا يا بيرك بوركاسون!»

كَمَنا هناك مدةً طويلة ساكنَين . سمعا الشحارير وطيور الوقواق تغنّي وتُطلق النداءات إلى أن عمّ الصوتُ السماءَ . وعدَت صغار الثعالب الفتيّة خارج وُجُرها على بُعد مرمى حجرٍ من رونيا وبيرك . والسناجب اندفعت هنا وهناك بين رؤوس الأشجار ، والأرانب البرية أقبلَت تقفز على الأُشْنة ، وعلى مقربة منهما استلقَت أفعى تحت الشمس باطمئنان تنتظر مولودًا . لم يزعجاها ، وهي لم تزعجهما . كان الربيع يخصّ الجميع .

«أنتَ محقٌّ يا بيرك ،» قالت رونيا . «لماذا آخذ حصانًا بعيدًا عن الغابة حيث ينتمي؟ إنما مع ذلك أودّ أن أمتطي واحدًا ، وقد حان الوقتُ الآن .»

اكتظّت الفسحةُ فجأةً بخيولٍ ترعى ، تتحرّك في المكان بهدوء ، وتقضمُ العشب اليانع .

أشار بيرك إلى زوج من الخيول الكستنائية الفتيَّة يرعيان معًا ، وبعيدين قليلًا عن القطيع . «ما قولكِ في هذَين؟»

أومأت رونيا برأسِها موافقةً . اقتربا من الحصانين وحبليهما جاهزين ، جاءا من ورائهما بهدوء وبلا أدنى صوت ، اقتربا ببطءٍ شيئًا فشيئًا . فجأةً تكسّر غصنٌ صغير تحت قدمِ رونيا ، وفي الحال تنبّه القطيع وتجهّز للفرار . وعندما لم يظهر هناك أي خطر ، لا دِببة ولا ذِئاب ، لا وَشَق أو غيره من الأعداء ، هدأ روعُ القطيع وبدأ يرعى العشبَ من جديد .

وكذلك هدأ روعُ الحصانَين الفتيّين اللذَين وقع اختيار بيرك ورونيا عليهما. وأصبحت المسافة الآن ضمنَ المتناول. تبادل بيرك ورونيا الإيماء، وطارت أنشوطتا الحبلين فورًا، ولم يُسمع في اللحظةِ التالية سوى الصهيل البرّي للحصانين المأسورين ودوي الحوافرِ بينما لاذت بقية القطيع بالفرار نحو أعماق الغابة.

استطاعا أن يأسرا مُهرين، فَحلين فتيّين رفسا وشبّا وعضّا وكافحا بشكل مسعور ليتحرّرا، بينما حاول بيرك ورونيا كبح جماحهما بربط حبل كلّ منهما إلى شجرةٍ.

نجحا في ربط الحبلين أخيرًا، ثم قفزا بعيدًا عن حوافرِ المهرين الهائجة. وقفا يلهثان وعيونهما تراقب المهرين يرفسان ويقاومان، إلى أن أصبحا يقطران بالرغوةِ.

«نوينا أن نمتطيَ الخيول،» بدأت رونيا، «وهذان الاثنان لن يسمحا لنا أن نفعلَ من المحاولة الأولى.»

بيرك أيضًا أدرك ذلك. «علينا أولًا أن نجعلهما يفهمان أننا لا نُضمرُ الأذى لهما.»

«حاولتُ،» أجابت رونيا، «بكسرةِ خبز. ولو لم أُبعِد يدي بسرعة كما فعلتُ، لعُدت إلى البيت بإصبعين مقضومين يتدلّيان من حزامي. وذاك بالتأكيد لن يسعدَ ماتيس ويبهجه.»

شحبَ وجهُ بيرك. «أتعنين أن هذا الشَّقي حاول مهاجمتكِ بينما أنتِ تعطينه الخبز؟ وأراد حقًا أن يعضّكِ؟»

«اِسأله،» ردّت رونيا باختصار.

ألقَت نظرة مكتئبةً على الحصانِ العنيف في حين استمرّ يرغي ويزبد. «شَقي،

نعم ، هذا اسم جيّد ،» قالت . «سأدعوه كذلك .»

ضحك بيرك . «إذًا ، عليك أن تمنحي حصاني اسمًا في المقابل .»

«نعم ، هو لا يختلفُ عنه في جنونه ،» أجابت رونيا . «يمكنك أن تسميه وحشي .»

«أتسمعان؟» صاح بيرك . «منحنا كلّ منكما اسمًا . أنتما شقي ووحشي ، وأنتما ملكنا الآن ، شئتما أم أبيتما!»

لم يُرقْ ذلك لشقي ووحشي ، هذا كان واضحًا .

واصلا عضّ وتمزيق الحبلَين الجلديين ، وسالَ العرق من جسميهما ، ومع ذلك لم يتوقّفا عن الرفسِ ، وصهيلهما المستميت أفزعَ الحيوانات والطيور على بُعد أميالٍ وأميالٍ .

لكن ، حينما بدأ النهار يتقدّم نحو المساء ، أخلدا إلى الهدوء شيئًا فشيئًا . وفي النهاية وقفا بلا حراكٍ برأسين منكّسَين ، وهما يطلقان عرَضًا بين حين وآخر صهيلًا مكبوتًا وحمحمةً حزينة .

«لا بدّ مِن أنهما ظمآنان ،» قال بيرك . «يجدر بنا أن نقودَهما إلى الماء .»

وهكذا حرّرا حصانيهما اللذَين أصبح سلوكهما مقبولًا وقاداهما إلى البحيرة ، نزعا عنهما الحبلين الجلديين ، وتركاهما يشربان .

وقف الحصانان يرويان عطشَهما فترة من الزمن ، ثم استكانا حيث هما راضيين ، يحدّقان بوداعةٍ في بيرك ورونيا .

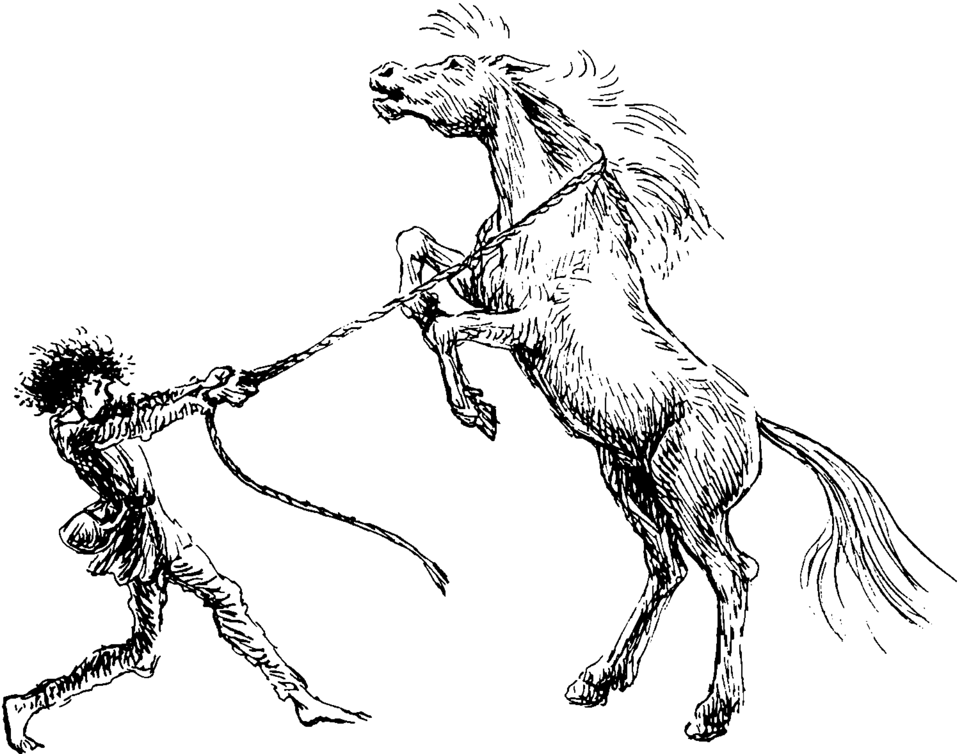
«روضناهما أخيرًا ،» علّقَ بيرك بصوت مبتهج .

ربّتت رونيا حصانها ، تعمّقت في عينيه ، وأوضحت له : «عندما أقول إنني

سأمتطيكَ ، هذا يعني أنني سأمتطيكَ . مفهوم؟»

ثمّ أحكمَت قبضتها بقوة على عُرف شقي وتأرجحت لتعتليَ ظهره .

«هيّا الآن يا شَقي ،» هتفَت . وإذا بها تطير على شكل قوسٍ عريض وتسقط بأمّ رأسِها في البحيرة مباشرةً . وظهرت من الماء في اللحظة المناسبة لترى الحصانين



يَفرّان بأقصى سرعةٍ واتتهما ويختفيان بين الأشجار .

مدّ بيرك يده لها وسحبها . فعل ذلك بصمت ومن غير أن ينظرَ إليها . تسلّقَت رونيا خارج الماء بصمتٍ مماثل . نفضَت جسمها فتطاير رذاذ الماء من حولها ، ثم مع ضحكةٍ مجلجلةٍ قالت : «لن أمتطيَ اليوم أي حصان!»

فأجاب بيرك وهو يطلق بدوره ضحكةً صاخبةً : «ولا أنا أيضًا!»

أقبلَ المساء ، غاصت الشمس في الأفق ، وحلّ الغسق ، غسقُ مساءٍ ربيعي ليس أكثر من غشاوة رقيقةٍ بين الأشجار ، لا تتحوّل أبدًا إلى ظلامٍ وليلٍ . ران الصمتُ على الغابة . ما عادت تُسمع فيها زقزقة أي شحرور ولا صوتٌ أي وقواق . وتسلّلت صغارُ الثعالب عائدةً إلى وُجُرها ، وأوت صغارُ السناجب والأرانب البرية إلى أوكارها ، وتوارت الأفعى في جحرها . كل ما أمكنَ سماعه كان نعيق البومِ الكئيب الآتي من بعيد ، وفي غضونِ فترة قصيرة خبا ذلك الصوتُ أيضًا .

***

بدت غابةُ النهار بأكملها كما لو أنها أوَت إلى النوم . لكنها صحت ببطءٍ على حياة الغسق . وبدأت مخلوقات الغسقِ التي تعيش هناك تتقلقلُ . وفي ثنايا الأُشْنة تصاعدت أصواتُ حفّ وزحفٍ وتسلّل . نخرَ أقزام الأرض الصغار بين الأشجار ، وزحفت جماعات صيادي الليل بألوانها القاتمة وأوبارها الخشنة وراء الصخور ، وتسلّلت الأقزامُ الرمادية خارجةً من مخابئها بأفواجٍ كبيرة وهي تهسهسُ لتفزعَ الآخرين لحظة خروجها . ومن أعالي الجبال اندفعت أسراب الخطّافات الهمجيات ؛ أقسى وأعنف مخلوقات الغسق ، وحامت فوق الغابة ، مجلّلةً سماء

الربيع الباهتة بالسواد . ولما لمحتها رونيا لم يرُقها مرآها .

«ثمة عفاريت هنا أكثر مما نحتاج! وأريد الآن أن أعود إلى البيت كما أنا ؛ مُصابة بالرضوض والماء يقطرُ مني .»

«مصابة بالرضوض والماء يقطر منكِ ،» قال بيرك . «لكنكِ في الوقت نفسه قضيتِ يومًا كاملًا في أحضان الربيع .»

لم يغِب عن ذهن رونيا أنها بقيت في الغابة مدةً طويلة جدًا ، وعندما افترقَت عن بيرك حاولت التفكير في حجةٍ تتحايل بها على ماتيس ، وتجعله يتفهّم لماذا بقيت خارجًا في الربيع إلى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل .

إنما لا ماتيس ولا أي شخصٍ آخر لاحظَها أو أبدى انزعاجه من تأخرها عندما دخلت القاعة الحجرية . كانت لديهم همومٌ أخرى تشغلهم .

على بساطٍ جلدي أمام النار استلقى بمبر ، وجهه شاحبٌ وعيناه مُطبقتان . ولوفيس جاثية إلى جانبه لتضمّدَ جرحًا في رقبته . واللصوص الآخرون وقفوا حولهما يراقبون بكآبة . ماتيس فقط كان يذرعُ الأرضية جيئةً وذهابًا مثل دبٍّ هائج وهو يزعقُ ويشتم .

«أوه ، اللعنة على شياطين عشيرة بوركا القذرين ، أولئك اللصوص الأوغاد الأنذال! أوه ، قطّاع الطرقِ أولئك! أوه ، سأسحقهم واحدًا بعد الآخر إلى أن لا يستطيع أبدًا مُطلقَ فرد منهم أن يحرّكَ يدًا أو قدمًا ثانيةً في هذه الحياة! أوه أوه!»

ثم فرغَت جعبته من الكلمات فاستسلم للنحيب بلا توقّف ، إلى أن أشارت لوفيس بحزمٍ إلى بمبر . فأدركَ ماتيس أن الضجيجَ الزائدِ عن حدّه لن يفيد الشاب

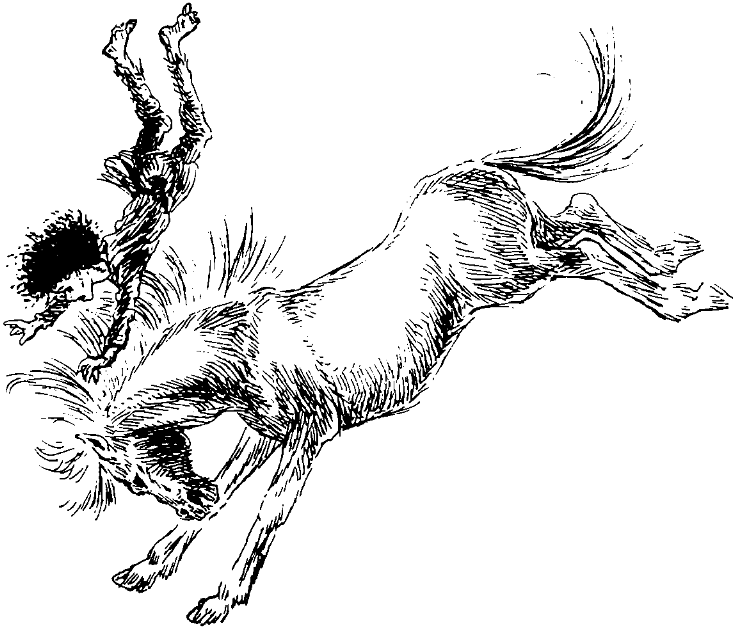
المسكين في شيء ، فغرق في الصمت على كُرهٍ منه .

أدركَت رونيا أن ماتيس ليس الشخصَ المناسب الآن لتعرفَ ما الحكاية ، وأنه من المستحسن أن تسأل سكاليبر عما جرى .

«يجب أن يُشنقَ الناس أمثال بوركا ،» قال سكاليبر ، ثم أطلعها على السبب .

«كان ماتيس ورفاقه البواسل ينصبون كمينًا عند مسربِ اللصوص ،» قال سكاليبر ، «عندما ، عن طريق حسنِ الطالع ، مرّت قافلة كبيرةٌ من المسافرين : تجار معهم مؤنٌ وجلود وأكوام من النقود . ولم يكن في وسعهم الدّفاع عن أنفسهم ، وبالتالي فقدوا أحمالهم كلّها .»

«حسنًا ، ألم يزعجهم ما حدث؟» سألت رونيا بقلقٍ .



«ما رأيكِ! كان يجب أن تسمعي كيف أطلقوا ألسنَتهم بالشتائم وهم يتابعون طريقهم! كانوا في عجلة عظيمة ليفرّوا بجلودهم . وأنا متأكّد من أنهم عزموا على تقديم شكوى للشريف!»

ضحكَ سكاليبر ، أما رونيا فلم تجد شيئًا يستدعي الضحكَ .

«وبعد ذلك ، أيمكن أن يخطرَ ببالكِ ما حدث؟» تابع سكاليبر ، «عندما فرغ الرجالُ من تحميل الغنائم على ظهور الخيول وهمّوا بالالتفافِ والعودة إلى البيت ، جاء بوركا وأتباعه وطالبوهم باقتسام الغنائم . وأخذوا يطلقون السّهام ، أولئك الأوغاد الأنذال! وهكذا أصيب بمبر بسهمٍ في حنجرته تمامًا . ثم بدأ رجالنا يطلقون السهام أيضًا ، أوه ، طبعًا . نعم ، لا بدّ مِن أن هناك اثنين أو ثلاثة منهم ذاقوا ما ذاقه بمبر .»

دنا ماتيس منهما في الوقت المناسب ليسمع ذلك . كزّ على أسنانه ، ثم قال : «مهلًا ، هذه ليست إلا البداية . سأسحقهم فردًا فردًا تِباعًا . ما زلتُ إلى الآن متمسكًا بالسلام ، إنما من هذه اللحظة فصاعدًا ستكون هناك نهاية لعصابة بوركا بأكملها .»

شعرَت رونيا بالغضبِ يستعر داخلها . «وماذا لو أنّ في هذا نهاية لعصابة ماتيس أيضًا؟ أنتَ ما فكّرتَ في هذا ، أليس كذلك؟»

«أنا لا أنوى أن أفكّرَ في هذا ،» أجاب ماتيس . «لأنه لن يحدث .»

«أنت لا تعرف أيّ شيء عن الأمر ،» ردّت رونيا .

ثمّ ذهبَت وجلسَت إلى جانب بمبر . وضعَت يدها على جبينه وأحسّت كم كان محمومًا . فتح عينيه ونظر إليها ومنحها ابتسامة صغيرة .

«لا يستطيعون القضاء عليَّ من الجولة الأولى ،» قال ، بَيد أنّ صوته خرج واهيًا نوعًا ما .

أخذت رونيا يده واحتفظَت بها في يدها . «لا يا بمبر ، لا يستطيعون القضاء عليكَ من الجولة الأولى .»

بقيت جالسةً إلى جانبه مدّة طويلة ويده في يدها . لم تذرف الدّموعَ ، لكن في قلبها بكَت بحرقةٍ .

٩

لازمَت الحمّى بمبر ثلاثةَ أيام ، أنهكه المرضُ وبقي مستلقيًا هامدًا ، إلا أن لوفيس كانت تمتلكُ مهارات طبية متعدّدة ، واعتنت به كأنها أمّه بأعشابها وكمّاداتها . ولدهشة جميع مَن هناك نهضَ في اليوم الرابع ، وعلى الرّغم من وهنِ ساقيه بدا نشيطًا . كان السهمُ قد أصاب وترًا في عنقه ، وبينما بدأ ذلك الوتر يُشفى ما انفكّ ينقبضُ ويتقلّص ، وبالتالي غدا رأس بمبر مائلًا قليلًا نحو أحدِ جانبيه ، ما منحَه مظهرًا كئيبًا نوعًا ما ، هذا مع أنه كان جريئًا ومرحًا كعادته دائمًا . سُرّ رفاقه اللصوص بنجاته ، وبقصدِ ممازحته فقط كانوا أحيانًا يصيحون «يا صاحبَ الرأس الأعوج!» عندما يستدعونه لسببٍ ما . وذلك لم يضايق بمبر قطّ .

الشخصُ الوحيد الذي أمضّه الأسى كان رونيا . فالكُرهُ المتبادل بين ماتيس وبوركا جعل الحياة عسيرةً عليها . اعتقدَت أن عداوتهما قابلة لأن تموتَ بالتدريج ، وبدلًا من ذلك ظهر أن وطيسها قد حميَ وأصبح خطرًا . كلما اجتاز ماتيس في الصباح عَطفة الذّئاب مع عصابته ، تساءلت كم عدد الذين سيعودون سالمين . ولم تكن تشعر بالارتياح إلا بعد أن يجتمعَ الشَّمل حول المائدة الطويلة ثانيةً في الليل . وفي الصباح التالي يعود إليها القلقُ من جديد .

في أحد الأيام سألت أباها : «لماذا تُصرّ أنتَ وبوركا على أن يسعى كلّ منكما إلى الانتقام من الآخَر؟»

«اِسألي بوركا ،» أجاب ماتيس . «هو من أطلقَ أول سهمٍ . في وسع بمبر أن يخبركِ بذلك .»

في الوقت نفسه أفصحَت لوفيس أيضًا عن رأيها أخيرًا . «الطفلةُ تمتلك بصيرةً أكثر مما تمتلك يا ماتيس! هذا لن ينتهي إلا بإراقة الدماء والشقاء ، وأي نفع سيعود منه؟»

اِحتدمَ غيظ ماتيس وهو يرى أن رونيا ولوفيس ضدّه . «أي نفع سيعود منه؟» زمجر . «أي نفع سيعود منه؟ هذا سيطرد بوركا خارج غابة ماتيس في النهاية . ألا يمكنكما أن تستوعبا الأمرَ يا غَبيتان!»

«أيجب أن يحدثَ ذلك بإراقة الدماء ، بحيث يموت الجميع قبل أن تستسلم؟» تصدَّت له رونيا . «أما مِن طريقةٍ أخرى هناك؟»

عاينها ماتيس بوجهٍ متجهم . هو عادة لا يمانع الاشتباكَ مع لوفيس ، لكن أن لا تتفقَ معه رونيا ، فذلك شيء أكثر مما يستطيع تحمّلَه .

«اعثري على طريقةٍ أخرى إذًا ، بما أنكِ ذكية جدًّا! أَخرِجي بوركا من قلعة ماتيس! حينها يمكنه أن يستقرّ بسلام في الغابة كما تستقرّ أقذار الثعالب ، وبرفقته كلابه اللصوص . وعندئذٍ لن أضع يدًا عليهم .»

صمت وفكّر قليلًا ، ثم تمتم : «لكن إن لم يكن مسموحًا لي أن أقضي على بوركا على الأقل ، سيعتبرني قطّاعُ الطرق شخصًا وضيعًا!»

داومَت رونيا يوميًا على الاجتماع ببيرك في الغابة . تلك كانت سلواها . لكنها الآن ما عادت قادرةً على الاستمتاع بالربيع بلا مبالاة ، وكذلك كانت حال بيرك .

«حتى الربيع دمّروه ،» قال بيرك . «دمّره زعيما عصابةِ لصوص نَزقان وعديما الإحساس .»

أحزَنَ رونيا كثيرًا شعورها أن ماتيس تحوّل إلى زعيم عصابة قطّاعِ طرقٍ سيّئ الطباع وغير منطقي . «ماتيسها» ذاك! ماتيس الذي يخصّها ، غابتها الصنوبرية ، مصدر قوتها ، لماذا باتت تعتقدُ أن بيرك هو الشّخص الذي يجدر بها اللجوء إليه عندما تطرأ المتاعبُ؟

«لو لم أحظَ بكَ أخًا لي ،» قالت ، «أوه لا أدري . . .»

كانا جالسين عند البحيرة ، وعظمَة الربيع تطوّقهما ، بَيد أنهما بالكاد لاحظاها .

كانت رونيا تفضفضُ عمّا يشغل ذهنها . «لو لم أحظَ بكَ أخًا لي ، لما اكترثتُ لأن ماتيس يريد التخلّصَ من بوركا .» ثم نظرَت إلى بيرك وضحكَت . «ما يعني أن الذنبَ ذنبكَ في أن لدي الكثيرَ من الهموم!»

«لا أريدكِ أن تكوني مهمومةً ،» قال بيرك ، «لكن هذا صعب عليَّ أنا أيضًا .»

جلسا مدّة طويلة مع همومهما ، إلا أن وجودهما معًا أشاع فيهما الشعور بالطمأنينة .

«مقلقٌ ألّا تعرفَ من بقي حيًا ومن مات عندما يأتي المساء ،» قالت رونيا .

«لا أحدَ مات إلى الآن بعد ،» قال بيرك . «وما ذلك إلا لأنّ الجنود بدأوا يجتاحون الغابة مجدّدًا . وليس لدى ماتيس وبوركا أي فرصة في أن يقضي أحدهما على الآخر . هما مشغولان تمامًا في تحاشي الجنود .»

«نعم ، صحيح ، وهذا من حسنِ الحظّ ،» وافقَت رونيا .

ضحك بيرك . «أَلَكِ أن تتخيّلي أن للجنودِ فائدةً؟ من قد يخطرُ هذا على باله؟»

«هذا أيضًا شيء مقلقٌ ،» أجابت رونيا . «وأعتقد أنني أنا وأنت محكومٌ علينا أن نبقى قلقَين طوال حياتنا .»

ذهبا وراقبا الخيولَ البرية ترعى . كان شقي ووحشي يَرعيان مع القطيع أيضًا ، فصفَّرَ لهما بيرك . رفعا رأسيهما وبدا أنهما لبرهةٍ عابرة يفكّران بعمق ، ثم تابعا رعي العشب . واضحٌ أنهما ما اعتبراه يستحقُّ أن يقلقا بشأنه .

«أنتما همجيان ،» قال بيرك ، «مهما ظهرَت عليكما الوداعةُ في هذه اللحظة .»

أرادت رونيا أن ترجعَ إلى البيت . والفضل يعود إلى زعيمي عصابتي لصوص حادّي المزاج . ما عاد البقاء في الغابة يحمل في طياته أي مرح .

في ذلك اليوم ، ككلِّ الأيام الأخرى ، انفصلَت عن بيركٍ قبل بلوغهما عَطفة الذئاب بمسافةٍ ، وبعيدًا عن الدروب التي يطرقها اللصوص . عرفا من أين يعودُ ماتيس إلى البيت ممتطيًا حصانه ، وأين هي الدروب التي يسلكها بوركا ، مع ذلك لازمَهما القلق دائمًا من أن يراهما أحد معًا .

تركَت رونيا بيرك يمضي قبلها .

«أراكِ غدًا ،» قال وجرى مبتعدًا .

تباطأت رونيا فترةً ، تتأمّلُ صغار الثعالب وهي تقفز وتمرح . كانت تلك الثعالب الصغيرة متعةً للنظر ، لولا أن رونيا لم تشعر بأي بهجة ، ووقفت تتساءلُ بمرارة ما إذا يمكن أن تعودَ الأمور كما كانت في السابق . وإلا قد لا يتاحَ لها أن تطير فرحًا في الغابة كما اعتادت أن تفعل .

ثمّ يمّمَت البيت . عندما وصلَت إلى عَطفة الذّئاب لمحت جوب وليتل سنيب واقفَين للحراسة ، وبدا أنهما في مزاج مرحٍ أكثر من المعتاد .

«أسرعي إلى البيتِ لتري ما حدثَ ،» صاح جوب .

أثار ذلك فضول رونيا . «لا ريبَ في أنه شيءٌ سارّ . . . يمكنني أن أستشفَّه من وجهيكما .»

«أوه صحيح ، أنتِ محقّة ،» قال ليتل سنيب ضاحكًا . «اِذهبي واستطلعي الأمر بنفسكِ .»

بدأت رونيا تجري . إنها حتمًا تستطيعُ الاستفادةَ من شيءٍ مُبهج .

وسرعانَ ما أصبحَت خارج باب القاعةِ الحجرية المغلق ، وبلغ أذنيها رنين ضحكةِ ماتيس في الداخل ، رنينِ ضحكة عظيم دفّأها وطرح بعيدًا همومها كلّها . وتحفّزت لتكتشفَ ما يجعله يضحكُ على ذلك النحو .

ركضَت بلهفةٍ داخلةً القاعة الحجرية . وحالما رآها ماتيس هرع نحوها وألقى ذراعيه حولها . حملها عاليًا في الهواء ودارَ بها ، منجرفًا بعواطفه أيّما انجراف .

«رونيا يا حبيبتي ، صاح . كنتِ على صواب! لا حاجة هناك إلى إراقة الدماء . الآن سيشتعلُ بوركا بالنيران خلال وقت أسرع من أول مرّة يتجشأ فيها بعد وجبة الصّباح ، صدّقيني!»

«وكيف ذلك؟» استفسَرت رونيا .

أشار ماتيس بيده وقال : «اُنظري هناك! اُنظري على من قبضتُ توًا بيدي!»

كانت القاعة الحجرية تغصُّ باللصوص المتحمسين وهم يحيطون بشيء ما ويقفزون ويطلقون صيحاتٍ صاخبة . لذا لم تستطع رونيا في البداية أن تتبيّن ما أشار إليه ماتيس .

«أترَين يا رونيا يا حبيبتي ، ما عليَّ إلا أن أقول لبوركا أأنت راحل أم باق؟ أتريد استعادة فرخِ الأفعى الذي يخصّك أم لا؟»

ثم وقعت عيناها على بيرك . هناك كان ، جاثمًا في الزاوية ، مقيّدَ اليدين



والقدمين ، وثمّة دم على جبهته واليأس في عينيه ، وحوله قفز لصوص ماتيس وهم يزمجرون ويهتفون .

«يا أنتَ ، يا بوركاسون الصغير . متى تعود إلى أبيكَ؟»

أطلقَت رونيا صرخةً ، ونفرت دموعُ الغضب من عينيها .

«لا يمكنكَ أن تفعل هذا!» بدأت تضرب ماتيس أينما استطاعت بقبضتين مكوّرتين . «لا يمكنكَ أن تفعل هذا يا همجي!»

توقّف ماتيس عن الضّحكِ ، ألقاها أرضًا بعنفٍ ، وشحب وجهه من شدّة انفعاله .





«ما ذاك الذي تقول ابنتي أنني لا يمكنُ أن أفعله؟» سأل بصوتٍ متوعّد .

«سأقول لكَ ،» زعقت رونيا . «في وسعكَ أن تذهبَ وتنهب ما تشاء من الأموال والبضائع والنفايات ، لكن لا يمكنكَ أن تخطف الناس ، لأنك إذا فعلتَ لا أريد أن أكون ابنتكَ أبدًا .»

«من جاء على ذكر الناس؟» أرعدَ ماتيس بصوتٍ يستحيل تمييزه . «لقد اصطدتُ فرخَ أفعى ، حشرة ، كلبَ لصوصية بوركي ، وأخيرًا سيتاح لي أن أنظّف قلعة أبي . بعد ذلك يمكنكِ أن تكوني ابنتي أو لا تكوني ، وفق ما تختارين .»

«همجي ،» زعقَت رونيا .

وقف سكاليبر بينهما وقد بدأ يعتريه الخوف . فهو لم يسبق له قطّ أن رأى وجهَ ماتيس متحجرًا ومروّعًا إلى هذه الدرجة ، وهذا أفزعه .

«هذه ليست طريقةً تخاطبين بها والدكِ ،» قال سكاليبر وهو يشدُّ رونيا من ذراعها . بَيد أنها دفعَته بعيدًا عنها .

«همجي!» زعقَت من جديد .

بدا على ماتيس أنّه لا يسمعها . كما لو أنه ما عادَ لها وجود بالنسبة إليه .

«يا فولوكس!» صاحَ بذلك الصوت الفظيع نفسه ، «اِصعد إلى فوَّهة الجحيم وابعَث رسالة إلى بوركا . أخبره أنني أريد أن أراه هناك حالما تشرق شمس الغد . ومن الأسلم له أن يأتي . قُل له ذلك!»

وقفَت لوفيس تشهدُ ما يجري بصمت . عقدَت حاجبيها ولكن لم تقل شيئًا . في النهاية دنَت من بيرك ونظرَت إليه . وعندما رأت الجرح في جبهته جلبت جرّة خُلاصةِ الأعشابِ الشافية . وحالما همّت بتنظيف الجرح جأرَ ماتيس : «إياكِ أن تضعي يدًا على فرخ الأفعى!»

«فرخ أفعى أو لا ،» قالت لوفيس . «يجب أن يُنظَّف هذا الجرح!»

وبالتالي عكفَت لوفيس على تنظيف الجرح .

عندئذٍ مضى ماتيس نحوها ، حملها وقذفها بعيدًا عبر أرضية القاعة . ولو أن نوتي لم يعاجل إلى تَلقّيها ، لانزلقَت واصطدمَت مباشرةً بعمود السرير .

لكن لوفيس ما كانت لتسمح لأحدٍ أبدًا أن ينجو بفعلته . وبما أن ماتيس ليس في مجال هجومها ، وجّهت إلى نوتي لكمةً مدوية . ذاك كان الشكر الذي ناله لأنه حالَ دون أن ترتطمَ بعمود السرير .

«إلى الخارج ، كلّكم بلا استثناءٍ ،» صرخَت لوفيس . «سئمتُ منكم . أنتم لا تفعلون شيئًا سوى جلبِ المتاعب . أتسمعني يا ماتيس؟ اُخرج من هنا!»

واجهها ماتيس بنظرةٍ قاتمة . نظرة كان يمكن أن تُفزع أي أحد آخر ، إنما ليس لوفيس . وقفَت هناك ، مكتوفةَ الذراعين ، تراقب ماتيس يغادر القاعة الحجرية ، ورجال عصابته يمضون وراءه . لكن ماتيس خرج وهو يحمل على كتفه بيرك وشعره النحاسي يتدلّى هامدًا .

«يا همجي يا ماتيس!» زعقَت رونيا مجدّدًا ، قبل أن يغلق الباب خلفه .

لم يرقد ماتيس في سريره المعتادِ إلى جانبِ لوفيس في تلك الليلة ، ولم تعرف لوفيس أين نام .

«وأنا لا أبالي أيضًا ،» قالت . «الآن في وسعي أن أنامَ بالطول وبالعرض في هذا السرير إذا أحببتُ .»

إلا أن النوم جفاها . ما انفكّت تسمعُ طفلتها تبكي بحرقة ، وطفلتها ما كانت لتقبلَ أي مواساة . كانت ليلةً على رونيا أن تُقاسيها وحدها . استلقت صاحيةً مدة طويلة ، وكُره أبيها يعتمِل فيها إلى أن شعرت أن قلبها ينقبضُ من الوجع .

لكن من الصعبِ أن يكره المرء شخصًا أحبّه حبًا جمًّا طوال عمره ، وهذا هو السبب في أن تلك الليلة كانت من أثقلِ الليالي على رونيا .

في النهاية نامت ، واستيقظت حالما بدأت تباشيرُ النهار تلوح في الأفق . قريبًا تشرق الشمس ، وحينذاك يجب أن تكون عند فوّهة الجحيم لتشهد ما سيحدث هناك . حاولت لوفيس منعها ، إلا أن شيئًا ما كان ليوقفَ رونيا . فصعدت إلى السطح ولوفيس تتبعها بصمتٍ .

***

وهناكَ وقفوا ، كما سبقَ لهم أن وقفوا من قبل ، كلّ مجموعة عندَ جانبها من فوّهة الجحيم . ماتيس وبوركا مع عصابتيهما . آنديس كانت هناك أيضًا ، وسمعتها رونيا تصرخُ وتشتمُ طوال الوقت . ماتيس بالتحديد هو مَن وقفَت تُكيلُ له الشتائم بضراوةٍ هائلة جعلت الهواءَ يئزّ . بَيد أن ماتيس لم يكن من الذين يقبلون أن يُهانوا مدّة طويلة .

«أيمكنكَ أن تجعلَ امرأتكَ تصمت يا بوركا؟» قال . «من مصلحتكَ أن تسمعَ ما لدي .»

حشرَت رونيا نفسها وراءه مباشرةً حتى لا يراها . وهي بنفسِها سمعت ورأت أكثر مما يمكن أن تطيقَ . عند جهة ماتيس وقف بيرك غير مقيّد اليدين والقدمين ، إنما بحبلٍ حول عنقه ، وماتيس يمسكُ الحبل بيده كما لو أنه يجرّ كلبًا .

«أنتَ رجلٌ عنيف يا ماتيس ،» قال بوركا ، «ورجلٌ خَسيس أيضًا . أفهمُ أنك تريد مني أن أرحلَ ، لكن أن تستغلّ ابني لتحصلَ على ما تريد فهذه خسّةٌ منكَ!»

«لم أطلب منكَ أن تخبرني بما تعتقده عنّي ،» أجاب ماتيس . «ما أريد أن أعرفَه هو متى ترحل؟»

كان بوركا يستعرُ غضبًا بحيث غصَّ بالكلمات . وقف صامتًا فترة وأخيرًا قال : «عليَّ أولًا أن أعثرَ على مكانٍ يمكن أن نستقرّ فيه بأمان ، وهذا قد يكون صعبًا . لكن إذا أعدتَ لي ولدي أعطيكَ كلمتي بأن نرحلَ قبل أن ينقضيَ الصيف .»

«جيّد ،» قال ماتيس . «وأنا أعطيكَ كلمتي بأن تستعيدَ اِبنكَ قبل أن ينقضيَ الصيف .»

«عنيتُ أنني أريد استعادته الآن ،» اعترضَ بوركا .

«وأنا عنيتُ أنكَ لن تستعيدَه الآن ،» قال ماتيس . «لدينا زنزانات في قلعةِ ماتيس ، وهو لا يحتاج إلى سقفٍ فوق رأسه ، لعلّ هذا يريحك إذا صدفَ وتساقطَ المطر في الصيف .»

حبسَت رونيا أنفاسها . لقد رسم أبوها خطّته بقسوةٍ متناهية . لا بدّ من أن يرحلَ بوركا الآن ، وفي الحال ؛ وإلا فإن بيرك سيُحبس في زنزانة إلى نهاية الصيف . رأت أنه من المستحيل أن يبقى حيًا إلى ذلك الحين . قد يموت ، ولن يعودَ لها أخ .

وأيضًا لن يكون لديها أبٌ تحبّه . وهذا يؤلم كذلك . أرادت أن تعاقب ماتيس على فعلته ، وعلى نفورها من أن تبقى ابنته . أوه . . . كم رغبَت في أن يعاني بقدرِ



ما تعاني ، وكم تلهّفَت بشراسةٍ إلى تدمير كلّ شيء له ، وإحالة خططه إلى هباءٍ!

وفجأة عرفَت ، عرفَت ما ستُقدمُ عليه . مرّةً ، منذ عهدٍ بعيد فعلَت ذلك ، وفعلَته بغضبٍ آنذاك أيضًا ، إنما ليس بهذا الغضب الملتهب فيها الآن . وتقريبًا كما

لو أنها أُصيبت فجأة بالحمّى ، ركضَت وطارت مجتازةً فوَّهة الجحيم . رآها ماتيس في منتصفِ قفزتها ، وانفجرَت منه صرخةٌ ، صرخةٌ من نوع الصرخات التي تطلقها الحيواناتُ البرية وهي تعاني سكرات الموت ، والدَّم في عروق عصابته من اللصوص تحوّل إلى جليدٍ ، لأنهم لم يسمعوا من قبل قطّ مثيلًا لتلك الصرخةِ . وسرعان ما رأوا رونيا . رونية ماتيس ، في الجانبِ الآخر من الهاوية ، مع عدوِّه . لا شيء أسوأ من ذلك يمكن أن يحدث ، ولا شيء أكثر غموضًا منه .

كان الأمر غامضًا بالنسبة إلى لصوص بوركا أيضًا .

حدّقوا في رونيا كما لو أنّ خطّافةً طائشة هبطَت فجأةً بينهم .

وبوركا اعتراه ذهولٌ مماثل ، إلا أنه استعادَ وعيه بسرعة . حدث شيءُ غيّر كلَّ شيءٍ ؛ ويمكنه أن يرى ذلك . أمامه كانت بنتُ ماتيس الجامحة بجموح الخطّافات الضّاريات تساعده ليخرجَ من المأزق الذي وقع فيه . ومع أنه لم يملك أدنى فكرة عمّا جعلها تُقدِم على عملٍ في منتهى الجنون ، سارع إلى وضعِ حبل حول عنقها وضحكَ بينه وبين نفسه وهو يفعل .

ثمّ صاح مخاطبًا ماتيس ، «عِندنا زنزانات تحت الأرض في هذا الجانب أيضًا . وابنتكَ لن تحتاجَ إلى سقف فوق رأسها كذلك ، ولعلّ هذا يريحكَ هذا إذا صدفَ وتساقط المطر في الصيف . طَمئن نفسكَ بهذه الفكرة يا ماتيس!»

كان ماتيس أبعد ما يكون عن الاطمئنانِ . وقف هناك مثل دبٍّ جريح يهزّ جسمه الهائل كما لو أنه يخفّف بذلك شيئًا من عذابه الذي لا يُطاق . بكَت رونيا وهي تراقبه . أسقطَ الحبل الذي يأسرُ بيرك ، لكن بيرك لازم وقوفه حيث هو ، شاحبًا ومسحوقًا ينظر عبر فوَّهة الجحيم إلى رونيا .

عندئذٍ تقدّمت آنديس منها وصفعتها . «نعم ، اِذرفي الدموع ، كنتُ سأبكي

مثلكِ لو أن لديَّ أبًا كذاك الهمجي!»

إلا أن بوركا طلبَ من آنديس أن تمسكَ لسانها . وقال إنه ليس من شأنها أن تتدخّل .

رونيا بنفسِها سبق أن نعتَت ماتيس بالهمجي ، ومع ذلك تمنّت في تلك اللحظة لو أنها تستطيعُ التخفيفَ عنه بسببِ ما اقترفته ، بسببِ تصرّفها الذي جعله يعاني معاناةً فظيعةً .

لوفيس أيضًا رغبَت في أن تواسيه ، كحالها دائمًا كلّما احتاج إلى المؤازرة . ومع أنها وقفَت إلى جانبه لم يلاحظها البتة . لم يلاحِظ شيئًا . في تلك اللحظة كان يقفُ وحيدًا في العالم .

عاد بوركا وناداه : «أتسمعُ يا ماتيس؟ أتنوي أن تعيدَ لي ولدي أم لا؟»

بقي ماتيس متسمّرًا في أرضه يهزّ جسمه ، ولم يردّ .

فصاح بوركا ثانية : «هل ستعيدُ لي ولدي أم لا؟»

استعاد ماتيس رشدَه أخيرًا ، وقال بلامبالاة : «بالتأكيد سأفعل . متى شئتَ .»

«أريد أن تعيدَه لي الآن ،» قال بوركا . «ليس عندما ينقضي الصيف ، بل الآن!»

هزّ ماتيس رأسه . «قلتُ متى شئتَ .»

بدا كما لو أن شيئًا ما عادَ يعنيه . فانبرى بوركا يقول من خلال ابتسامة عريضة : «في الوقتِ نفسه تستعيد طفلتكَ . التبادل العادل ليس فيه لصوصية ، وأنت تدركُ هذا أيها الوغد!»

«لا أطفال لديَّ ،» قال ماتيس .

ذوت ضحكةُ بوركا المبتهجة . «ما تعني بهذا؟ أهي شَيطنة جديدة تحيكها؟»

«تعال وخُذ ولدكَ ،» قال ماتيس . «لكن ليس في وسعكَ أن تعيد لي طفلتي لأنه لا أطفالَ لدي!»

«أمّا أنا فلدي طفلة!» ولوَلت لوفيس بصوتٍ انتشلَ الغربان من حصونها . «وأريد استعادةَ طفلتي ، أتفهمُ يا بوركا! أريدها الآن!»

ثم ثبّتت عينيها على ماتيس . «حتى وإن كان والد الطفلةِ قد أصابه مسٌّ من الجنون كما أرى .»

عندئذٍ استدارَ ماتيس ومضى مبتعدًا وهو يجرجرُ قدميه بخطواتٍ متثاقلةٍ .

١٠

لم يُشاهَد ماتيس في القاعةِ الحجرية على مدى عدّةِ أيام متتالية . ولم يذهب إلى عَطفةِ الذئاب عندما جرت مبادلة الطفلين . لوفيس هي التي ذهبَت لتستعيدَ ابنتها ، يرافقها فولوكس وجوب اللذَين اصطحبا بيرك . وقف بوركا وآنديس ينتظران مع لصوصهما عند أقصى طرفٍ من عَطفة الذئاب . وحالما رأت آنديس التي اضطرمَ فيها الغضبُ والشعورُ بالانتصار غريمتها لوفيس انفجرَت :

«سارق الأطفال ذاك . . . ماتيس . . أعرف تمامًا أن خجلَه أعظم من أن يُرينا وجهَه!»

كانت لوفيس أكثر اعتدادًا بنفسها من أن تردّ . جذبت رونيا نحوها وهمّت بالانسحاب من غير أن تنبسَ ببنت شفة . فكّرَت كثيرًا في السبب الذي دفع ابنتها إلى تسليم نفسها لبوركا ، وفي هذا اللقاءِ الوجيز بدأت تستشفُّ شيئًا . كان الطّفلان ، بيرك ورونيا يتبادلان النظر ، كما لو أنهما يقفان وحدَهما في العالم عند عَطفة الذئاب . نعم ، لا أحدَ يمكن ألّا يلاحظَ أن هناك رابطًا بين الاثنين .

بالطبع لاحظَت آنديس ذلك فورًا ، ولم يعجبها ما لاحظته . جذبت بيرك بعنفٍ .

«ما ذاك الذي بينكما؟»

«هي أختي ،» أجاب بيرك . «وقد أنقذَت حياتي .»

ورونيا من جهتها اِتكأت على لوفيس باكيةً وتمتمَت : «تمامًا كما أنقذَ بيرك حياتي .»

اصطبغَ وجهُ بوركا باللون القرمزي من الامتعاض .

«أكان ابني يذهبُ من وراء ظهري ويرافقُ نسلَ عَدوّي؟»

«هي أختي ،» كرّر بيرك وهو ينظرُ إلى رونيا .

«أختكَ ،» زعقَت آنديس . «إيه طبعًا ، نعرفُ ما يعنيه هذا بعد سنةٍ أو سنتين!»

أحكمَت قبضتها على بيرك وحاولت جرَّه بعيدًا .

«لا تلمسيني ،» صاحَ بيرك . «سآتي بنفسي ، لا أريد أن تضعي يديكِ عليَّ .»

استدارَ ومضى ، وإذ ذاك ندّت صيحةُ أسى عن رونيا .

«بيرك!» لكنّه كان قد ذهب .

عندما أصبحَت لوفيس وحدها مع رونيا ، أرادت أن تطرح عليها بعض الأسئلة ، بَيد أن المجال لم يُفسح لها .

«لا تكلميني ،» صدَّتها رونيا .

لذا تركتها لوفيس بسلام وسلكتا الطريق إلى البيت بصمتٍ .

رحّبَ سكاليبر برونيا في القاعة الحجرية كما لو أنها قد أُعيدَت من حافة الموت . «يُسعدني أنكِ ما زلتِ على قيدِ الحياة ،» قال . «يا طفلتي المسكينة . خفتُ كثيرًا عليكِ!»

لكن رونيا مضَت بصمت واستلقَت في سريرها مُسدلةً الستائر .

«لا شيءَ سوى التعاسة في قلعةِ ماتيس ،» غمغَم سكاليبر وهو يهزّ رأسه بكآبةٍ . ثم همس للوفيس : «ماتيس في غرفةِ نومي . وهو يرقدُ هناك محدّقًا في الفراغ ، ولا ينطقُ بكلمة . يرفض أن ينهضَ ويرفض أن يأكلَ . ماذا علينا أن نفعل بشأنه؟»

«سيأتي حالما ينهَشه الجوعُ ،» أجابت لوفيس .

إلا أنها كانت قلقةً عليه ، وفي اليوم الرابع قصدَت غرفة نومِ سكاليبر وأفصحَت عمّا يجول في رأسها .

«تعالَ وكُل يا ماتيس! كفاكَ عبوسًا! نحن جالسون إلى الطاولة ننتظركَ .»

جاء ماتيس أخيرًا ، ترتسمُ الكآبة على وجهه وفي غاية النحول ، لدرجة أن تمييزَه يكادُ يكون صعبًا . جلس إلى الطاولة بلا كلمةٍ وبدأ يأكل . التزم أفراد عصابته الصمتَ . لم يسبق قطّ أن ساد القاعةَ الحجرية مثل ذلك السكون . كانت رونيا تجلس في مكانها المعتاد ، لكن ماتيس لم يرَها . وهي بدورها تحاشت التطلّعَ في وجهه . فقط صوّبَت نحوه نظرةً جانبيةً خاطفة ، ورأت شخصًا لا يشبه في شيءٍ الأب الذي عهدته حتى ذلك الحين . نعم ، كان كلّ شيءٍ مختلفًا وفظيعًا! أرادت أن تنفرَ من مكانها وتولّي الفرار ، أن لا تكونَ حيث يكون ماتيس ، أن تهربَ وتبقى وحدها . بيد أنها بقيَت جالسةً على مضض ، لا تدري ما يمكن أن تفعلَه بأحزانها كلّها .

«هل اكتفيتُم ، أيها البهاليل البشوشون؟» قالت لوفيس بوجهٍ عابسٍ عندما انتهوا من الأكلِ ، بعد أن ضاقت ذرعًا بصمتهم .

نهضَ اللصوص وهم يتمتِمون وغادروا بأسرع ما يمكنهم إلى خيولهم ، الخيول التي وقفَت خاملةً في أكشاكها لليوم الرابع على التوالي .

وبينما ما كان زعيمُهم يفعلُ شيئًا سوى الاستلقاء في غرفة سكاليبر يحدّق في الجدار ، لم يتجاسروا على الخروج للسرقةِ .

وذلك ساءهم كثيرًا ، بما أنه في تلك الفترة يزدادُ عادةً عدد المسافرين الذين يعبرون الغابة . غادر ماتيس القاعة الحجرية من غيرِ أن ينطقَ بكلمةٍ ولم يلمحه أحدٌ ثانيةً في ذلك اليوم .

ورونيا بدورها أسرعت إلى الغابة التي داومَت على الخروج إليها ثلاثة أيام متتابعةٍ لتبحثَ عن بيرك . إلا أنه لم يظهر . ولم تعرف السبب . ماذا كانوا يفعلون له؟ أتراهم حبسوه حتى لا يهرعَ إلى الغابة ويجتمع بها؟ كان هذا شاقًا عليها ، أن تنتظرَ فقط من غير أن تعلمَ شيئًا .

جلسَت عند البحيرة فترةً طويلة ، وروعةُ الربيع تطوّقها ، لكنها لم تشعر بأي بهجة لأن بيرك ليس معها . تذكّرت حالها في الماضي ، عندما درجَت أن تبقى وحدها في الغابة وكانت الغابة تكفيها . كم بدا ذلك مُغرقًا في البُعد! الآن هي بحاجةٍ إلى بيرك لتتشارك كلّ شيءٍ معه . أخيرًا تراءى لها أنه لن يأتي في ذلك اليوم أيضًا ، وبعد أن انتظرَت إلى أن أصابها الإعياء نهضَت واستعدّت للرحيل .

عندئذٍ جاء . سمعَته يصفّرُ بين أشجار التنوب ، وهرعَت إليه وهي تطير من الفرح . هناك كان! وكان يسحبُ صرّةً كبيرةً وراءه .

«أنوي الانتقالَ إلى الغابة الآن ،» قال . «ما عدتُ قادرًا على البقاء في مَعقِل بوركا أكثر مما فعلتُ .»

أمعنَت رونيا النظر فيه باستغراب . «ولماذا؟»

«الطريقة التي جُبلتُ عليها . لا أطيق التذمّرَ والكلام القاسي إلى الأبدِ . ثلاثة أيام تكفيني!»

صمتُ ماتيس أسوأ من الكلامِ القاسي! فكّرت رونيا بينها وبين نفسها ، وعلى حين غرّة عرفَت ما يجبُ أن تقدِمَ عليه . فما لا يُطاق يمكن تجنّبه . لقد فعلَ بيرك ذلك ، فما المانع من أن تفعلَه هي أيضًا؟

«وأنا كذلك سأغادر قلعة ماتيس ،» هتفَت بحماسةٍ . «سأفعلُ! نعم سأفعل!»

«أنا ولدتُ في كهفٍ ،» قال بيرك ، «وعشتُ في كهفٍ . لكن ماذا عنكِ؟»

«يمكنني أن أعيش في أي مكانٍ على الإطلاق معكَ ،» أجابت رونيا . «وفي كهف الدِّببة على وجه الخصوص!»

كان هناك عددٌ من الكهوف في سفوح الجبال ، إنما لا شيءَ منها أجوَد من كهف الدِّببة . عرفت رونيا عنه منذ بداياتِ تسكّعها في الغابة . دلّها ماتيس عليه . وهو بنفسه أقامَ هناك أحيانًا في صباه خلال الصيفِ . أما في الشّتاء فقد درجَت الدِّببة على النوم فيه ، هذا ما علِمَته من سكاليبر . وبالتالي أُطلِق عليه اسم كهف الدِّببة ، وهذا ما غَدا عليه اسمه منذ ذلك الحينِ .

يقع كهف الدِّببة على مقربةٍ من النهر ، إنما على مستوى أعلى منه ، تمامًا بين مُنحدرين صَخريين . ولا يمكن الوصول إليه إلا عبر نتوءِ صخرةٍ عند سفح الجبل ، حافة ضيّقة في أولها وخطرة ، ثم عند فتحة الكهف مباشرةً تتسعُ لتصبحَ سطحًا حجريًا فسيحًا . هناك ، عاليًا فوق النهر المندفع ، في وسعِ المرء أن يجلسَ ويتأمّل الصباح وهو يطلعُ بأمجاده كلّها على الجبال والغابات . غالبًا ما فعلت رونيا ذلك في السابق . نعم ، هي تعرف أن المرء يمكن أن يعيشَ في ذلك الكهف .

«سآتي في وقت متأخّرٍ الليلةَ إلى كهف الدِّببة ،» قالت .

«هذا في حالِ كنتَ هناك؟!»

«طبعًا ، وهل من مكانٍ آخر؟» أجاب بيرك . «سأكون هناك بانتظاركِ .»

***

أنشدَت لوفيس أغنيةَ الذّئاب لرونيا في تلك الليلة ، كما أنشدتها لها دائمًا في نهايةِ كلّ يوم ، سواء هي تعيسة أو سعيدة .

هذه آخرُ ليلةٍ أسمعها ، فكّرت رونيا ، وتلك كانت فكرةً مؤلمةً . مؤلمٌ أن تفارقَ أمّها ، والأشدّ إيلامًا أن تكفّ عن أن تكون طفلةَ ماتيس . وهذا السبب هو ما جعلها ترى أنها مضطرّة إلى الانتقال إلى الغابة ، حتى لو عنى ذلك أنها لن تسمعَ أغنية الذّئاب مجدّدًا .

نعم ، لا بدَّ من الإقدام على ذلك في أسرع وقتٍ ، بمجردِ أن تستغرقَ لوفيس في النوم . استلقَت رونيا في سريرها تحدّق في النار بينما لبثَت تنتظر . كانت لوفيس تتقلّبُ باضطرابٍ في سريرها ، وأخيرًا هدأت ، وعرفَت رونيا من أنفاسها أنها قد نامت . عندئذٍ تسلّلت خارج السرير ، ووقفَت مدةً طويلة تتأمّل أمّها النائمة على بصيصِ الوهج المنبعثِ من النار .

يا حبيبتي لوفيس ، فكّرت رونيا ، ربما نجتمعُ مرة أخرى ، وربما لا .

كان شعر لوفيس المسترسلُ منتشرًا على الوسادة . داعبَت رونيا الخصلات الحمراء المائلة إلى البني بإصبع واحدٍ . أهي حقًا أمها الراقدة هناك وتبدو كالأطفالِ؟ متعبة ووحيدة من دونِ ماتيس إلى جانبها في السَّرير . والآن ها هي طفلتها تهجرها أيضًا .

«سامحيني ،» غمغمَت رونيا . «إنما هذا ما يجبُ أن أفعله .»

ثمّ تلمّسَت طريقها بهدوءٍ خارج القاعة الحجرية وحملَت صرّتها المخبأة جيدًا في مخدعِ الثياب .

كانت ثقيلة جدًا بحيث عانَت كثيرًا في حملها ، وعندما وصلَت إلى عَطفة الذئاب ألقَت الصرّةَ أرضًا تحت أنظار تايبر وتريم اللذَين تولّيا الحراسة تلك الليلة . ليس لأن ماتيس أبدى أي اهتمام بتعيين الحراس ، بل لأن سكاليبر حرصَ على تولّي هذه المهمة باندفاع عظيم . أمعن تايبر النَّظر في رونيا . «إلى أين أنتِ ذاهبة في منتصفِ الليل بحقّ الخطّافاتِ البريّات؟»

«نويتُ الانتقالَ إلى الغابة الآن ،» أجابت رونيا . «ويجب أن تخبرا لوفيس .»

«ما يمنعكِ أن تخبريها بنفسِك؟» سألها تايبر .

«حسنًا ، لأنها لن تسمحَ لي بالرحيل! وأنا لا أريدُ أن يوقفني أحد .»

«ماذا تظنين أن أباكِ سيقول؟» استفسرَ تريم .

«أبي ،» قالت رونيا بتأنٍ . «وهل عندي أب؟»

صافحتهما مودّعةً وتمتمَت : «بلّغا حبّي للجميع! لا تنسيا سكاليبر! وتذكّروني أحيانًا عندما ترقصون وتغنّون!»

هذا كان أكثر مما يستطيع تريم وتايبر أن يطيقاه . ترقرقَت الدموع في عيونهما ورونيا أيضًا بكَت قليلًا .

«يبدو لي أن هذه هي نهاية الرقصِ في قلعة ماتيس ،» قال تايبر بلوعةٍ .

التقطَت رونيا صرّتها وألقتها على كتفها . «قولا للوفيس أن لا داعيَ لأن تحزنَ وتقلق كثيرًا . سأكون في الغابة إذا أرادت أن تجدني .»

«وما علينا أن نقولَ لماتيس؟» استفهم تريم .

«لا شيء ،» أجابت رونيا وهي تتنهّدُ . ثم تابعَت طريقها . ووقف تايبر وتريم يراقبانها بصمتٍ إلى أن اختفت عند مُنعطف الدربِ .

***

كان الليل مخيمًا ، والقمر يتوسّطُ السماء العالية . توقّفت رونيا قربَ البحيرةِ لترتاح ، جلسَت على حجرٍ واستشفّت السكينةَ التي حطّت على كلّ شيء في غابتها . أرهفَت أذنيها ولم تسمع شيئًا سوى السكون . بدَت الغابةُ في الليلة الربيعية مشحونةً بالأسرار ، مشحونةً بالسحر وبتلك الأشياء الأخرى المبهمة والعريقة . كانت فيها أخطار أيضًا ، إلا أن رونيا لم تشعر بالخوف .

فقط لو تتركني الخطّافات وشأني ، حينها أكون آمنةً كحالي في قلعة ماتيس . فكّرت . الغابة بيتي كما كانت دائمًا ، بل وأكثر الآن ، طالما أنه ما عاد عندي أي بيتٍ آخر غيرها . أمامها استقرّت البحيرة داكنةَ السواد ، وخلال مائها القاتم جرى شعاعٌ ضيّقٌ من ضوء القمر . كان المشهدُ جميلًا ، وخفّت وطأة الثقل الرابضِ على قلب رونيا حينما رأته . غريب أن يشعرَ المرءُ بالسعادة والحزن في الوقت نفسه! كانت حزينةً لأجل ماتيس ، ولأجل لوفيس ، وسعيدةً بما يحيط بها في الليلة الربيعية من كنوزٍ صامتةٍ سحريةٍ ورائعة . وهنا في الغابة ستعيش من الآن فصاعِدًا . مع بيركَ . عندئذٍ تذكّرت أنّه ينتظرها في كهف الدِّببة ، فلماذا هي جالسة هنا تفكّر؟ قامَت وحملَت صرّتها . كانت أمامها مسيرةٌ طويلة إلى الكهف ، وليس ثمّة دربٍ ممّهد يمكن أن تسلكَه ، إلا أنها عرفت جيدًا كيف تصلُ إلى هناك . بالطريقةِ نفسها التي تتحسّسُ بها الحيوانات دروبها ، ومثلَ الأقزام الرمادية وصيادي الليل وأقزام الأرض الصّغار مشت بهدوءٍ تجتاز الغابةَ المقمرة ، بين أشجار التنوب والصنوبر ، على أغصانِ العناب والأشنة ، مرورًا بمستنقعاتٍ تفوح منها رائحةُ الآس ، وبركٍ قاتمة لا قرارَ لها .

تسلّقَت جذوعَ الأشجار المطحلبة المتكسّرة ، وخاضَت السواقي المنسابة ، مباشرةً خلال الغابة مشَت ، متّجهةً بخطى واثقة لا تخطئ نحو كهف الدِّببة .







رأت أقزام الأرض الصّغار يرقصون تحت ضوءِ القمر على نتوء صخري . وهم لا يفعلون ذلك إلا في الليالي المقمرة ، هذا ما علِمته من سكاليبر ، فتوقّفت برهة تراقبهم خلسةً لئلا يتنبّه إليها أحد . كانت رقصةً غريبة تلك التي يرقصونها ، يتمايلون ويدورون بهدوءٍ بالغ وعلى نحو أخرق ، ويدندنون طوال الوقت لأنفسهم . أخبرها سكاليبر أن هذه أغنيتهم الربيعية ، وحاول أن يُدندنها لها ، إلا أن دندنته لم تشبه كثيرًا ما سمعَته في تلك اللحظة ، فما سمعته كان أقرب إلى صوتٍ حزين مُوغلٍ في القِدم .

عندما فكّرت في سكاليبر ، فكّرت أيضًا في ماتيس ولوفيس ، والتفكير فيهما آلمها .

ثم نسيَت كلّ شيءٍ عندما وصلت أخيرًا إلى الكهف ولمحت النار . نعم ، أشعلَ بيرك النار عند الفسحة الصخرية خارج الكهف حتى لا يتجمّدا في ليلة الربيع الباردة . وإذ ومضت النار وتوهّجت ليتسنى لها أن تراها من بعيد تذكّرت ما درج ماتيس على قوله : حيثما يكونُ هناك بيتٌ تكون هناك نارٌ!

وحيثما تكون هناك نارٌ ، هناك بيتٌ أيضًا ، فكّرت رونيا . وسيكون هناك بيتٌ لها في كهف الدِّببة!

وعند فتحةِ الكهف جلس بيرك أمام النار وفي منتهى السّلام مع نفسه ، كان يأكلُ شريحةَ لحم مشوية . غرزَ عودًا بقطعةٍ أُخرى من اللحم وناولها لرونيا .

«إنني أنتظركِ منذ وقتٍ طويل ،» قال . «كُلي الآن ، قبل أن تُنشدي أغنيةَ الذّئابِ!»

١١



حاولَت رونيا أن تنشدَ أغنية الذّئاب لبيرك حالما رقَدا على فراشهما من أغصان التنوب . وعندما تذكّرَت كيف تغنيها لوفيس لها ولماتيس حينما كان كلّ شيءٍ ما زال طبيعيًا في قلعة ماتيس ، شعرت بغصّةِ حنينٍ تعتلج في صدرها بحيث ما عادت قادرةً على المتابعة .

كان بيرك في الواقع قد نام . إذ طوالَ النهار بينما انتظرَ مجيئها عملَ على تنظيف الكهف من مخلّفاتِ الدُّب الذي استفاق مؤخّرًا من بياتِه الشتوي هناك . وبعد ذلك جرَّ من الغابة إلى الكهف الأعوادَ اليابسة ليشعلَ النار ، والأغصان الطرية ليناما عليها . كان يومُه مجهدًا ولذا سرعانَ ما استسلم للنوم .

بقيَت رونيا صاحيةً . وعلى الرغم من أن الكهف كان باردًا ومظلمًا لم تتجمّد من البرد . فقد أعطاها بيرك فراءَ ماعز لتفرشَه فوق أغصان التنوب ، وهي بدورها أحضرت معها من البيت مفرشَ سريرها المحبوك من فراءِ السناجب ، والمناسب لأن تلتفّ به بسببِ نعومته وما يوفّره من دفء . أي أنه لم يكن هناك داعٍ لأن يبقيها البرد صاحيةً ، ومع ذلك جفاها النومُ .

لوقتٍ طويل استلقَت متنبّهةً ، لا تشعرُ بالسعادة كما تمنّت ، ومن خلال فتحةِ

الكهف تسنّى لها أن ترى الضوءَ، وسماء الربيعِ المنعشة، وسمعت تيّار النهر المتسارِع عميقًا في الأسفل، وهذا ساعدها قليلًا.

إنها السماءُ نفسها المخيّمةُ على قلعة ماتيس، فكّرت. والنهر نفسه المتدفقُ على مقربةٍ والذي اعتدتُ سماعه في البيتِ.

وفي النهايةِ نامت.

استيقظا معًا عندما بزغَت الشمس فوق التلال عند ضفّةِ النهر الأخرى. ظهرَت من بين غبش الفجر بحُمرةٍ ملتهبة، وتوهّجت كمصباحٍ أضاءَ الغابة بأسرها.

«أنا ممتقعُ اللون من شدّةِ البرد،» قال بيرك. «إلا أن ساعةَ الفجر هي الأبرد دائمًا، ثم ينتشرُ الدفء في الجوِّ شيئًا فشيئًا. أليس من المريح أن نعرفَ هذا؟»

«من المريح أكثر أن نحصلَ على نارٍ،» أجابت رونيا التي أخذت أسنانها تصطكُ أيضًا. أحيا بيرك النار من الجمار، وجلسا إلى جانب نارهما يأكلان خبزهما ويشربان ما تبقّى من حليب الماعز الذي جلبته رونيا معها.

عندما أنهيا آخر رشفةٍ من الحليب قالت رونيا: «من الآن فصاعدًا سنشربُ ماء الينبوع ولا شيءَ آخر.»

«لن يجعلنا بدينَين،» علّق بيرك، «وفي الوقت نفسه لن نموتَ منه.»

تبادلا النظرات وضحِكا. ستكون حياتهما في كهف الدِّببة شاقّةً، وعلى الرغم من أنهما أدركا ذلك لم تتأثر معنوياتهما. بل حتى نسيت رونيا الحزنَ الذي اجتاحها في الليل. كانا في تلك اللحظة مُكتفيَين من الأكل ودافئين، وحُرّين كالطيور في ذلك الصباحِ المشرق. وبدا كما لو أنهما لم يفطنا إلى هذا إلا في لحظتهما تلك. وكلّ ما واجهاه من أيام ثقيلةٍ وصعبةٍ في الآونة الأخيرة خلّفاه

وراءهما ؛ وهما بصددِ نسيانه ، لم يرغبا أبدًا في التفكير فيه مجدّدًا .

«رونيا ،» هتف بيرك ، «أتُدركين أننا أصبحنا أحرارًا؟» ثم أرجع رأسه إلى الوراء وقهقه ضاحكًا من الفكرة .

«نعم ، وهذه مملكتنا ،» أجابت رونيا . «لا أحد يستطيع سلبَها منّا أو يطردنا منها .»

بقيا جالسَين قرب نارهما بينما واصلت الشمسُ طلوعها . تسارع النهر تحتهما في الأسفل ، وحولهما من شتى الأنحاء استيقظت الغابةُ . تحرّكت رؤوس الأشجار بهدوءٍ في نسيم الصباح ، تعالَت أصوات طيور الوقواق ، وعلى مقربة في مكان ما أعملَ نقّارُ الخشب منقارَه في جذع شجرة ، وفي الناحية الأخرى من النهر ظهر قطيعُ أيائل عند طرف الغابة . وهكذا ، اكتفى الاثنان بالجلوس حيث هما ، والشعورُ بأنهما يحكمان كلّ ما حولهما يتأجّجُ في صدريهما ؛ النهر والغابة وجميع مَن وما فيهما من أحياء .

«عليكَ أن تسدّ أذنيكَ يا بيرك ، فصرختي الربيعية قادِمة ،» قالت رونيا .

وعلى الفور أطلقَت صيحةً عظيمة تردّد صداها بين الجبال .

«شيء واحد آمله أكثرَ من أي شيءٍ آخر ،» قال بيرك . «أن يُتاح لي جلبُ قوسي قبل أن تستدعي الخطّافات إلينا بصياحِك .»

«تجلبه . . . مِن أين؟» سألته رونيا . «من مَعقِل بوركا؟»

«لا ، خارجَه ، في الغابة ،» قال بيرك . «لم أستطع إحضار كلّ شيءٍ إلى هنا دفعةً واحدة ، ولذلك خبأتُ بعض الأغراض في تجويفِ شجرةٍ ، ولدي هناك مختلف أنواع الأشياء التي أريدُ جلبها إلى هنا .»

«لم يوافِق ماتيس بعد على السّماح لي بالحصول على قوسٍ ونشّاب ،» قالت

رونيا. «لكن يمكن أن أصنعَ لنفسي قوسًا بسيطًا إذا أعرتني سكينكَ.»

«طبعًا، شرطَ أن تحافظي عليها. إنها أهمّ ما لدينا، تذكّري. من دون سكين لا يمكن أن نتدبّرَ أمرنا في الغابة.»

«هناك أشياء أخرى لا يمكن أن نتدبّرَ أمرنا من دونها،» علّقَت رونيا. «دِلاء لنملأها بالماء؛ أفكّرتَ في هذا؟»

ضحك بيرك. «نعم، فكّرت حتمًا. بيد أن الأفكارَ لا تُملأ بالماء.»

«لهذا من الجيّدِ بالتأكيد أنني أعرفُ من أين نحصل على دِلاء،» قالت رونيا.

«أين؟»

«في ينبوعِ لوفيس الذي تستخدم ماءَه للعلاجِ، في الغابة أسفل عَطفة الذئاب. أرسلَت بمبر أمس ليأتيها بالماء الشافي الذي يجبُ أن يشربه سكاليبر ليداويَ معدته. لكن زوجًا من الخطّافات طاردتا بمبر فعادَ إلى البيتِ من دون الدّلاء. وستتأكّدُ لوفيس من أن يُحضرها اليوم، صدّقني! وإذا أسرعتُ قد أصلُ إلى هناك قبله.»

وهكذا انطلقا مسرعَين. جريا بخفّةٍ مجتازين الدربَ الطويلة عبر الغابة، وحصلا على الأشياء التي يحتاجانها. مضى بعضُ الوقت قبل أن يعودا إلى الكهف. رونيا تحمل الدِّلاء، وبيرك يحملُ قوسَه ومجموعةً من الأغراض الأخرى من المخبأ الذي أعدّه. ثم صفّ أشياءه كلّها في الفسحة خارج الكهف ليُري رونيا ما لديه. فأس ومِسنّ، قِدرُ طبخ صغيرة، لوازم صيدِ السمك، أفخاخُ طيور، سهامٌ لقوسه، ورمحٌ قصير؛ مجموعة أدوات مختلفة ضرورية للناسِ الذين ينوون أن يعيشوا في الغابة.

«حسنًا، أرى أنكَ تعرفُ ما ينبغي أن يفعله سكّان الغابات،» قالت رونيا.

«نحصل على قُوتِنا ، ونحمي أنفسنا من الخطّافات المخيفات والوحوش المفترسة .»

«أعرفُ ذلك معرفةً كافية ،» قال بيرك . «نعم ، طبعًا سـ . . .»

لم تتح له الفرصةُ ليتابع ، فقد أمسكَت رونيا بذراعه وهمسَت بخوفٍ : «صه! هناك أحدٌ ما في الكهف .»

حبسا أنفاسهما واستمعا . نعم ، كان هناك شخصٌ ما في كهفهما ، شخص حرص على التسلّل بينما كانا غائبين . التقط بيرك رمحَه ، ووقفا ينتظران بصمتٍ . أمكنهما أن يسمعا المتسلّل يتحرّك هنا وهناك في الكهف ، وكان من المثير للعجب ألا يخمّنا مَن في الداخلِ . في الحقيقة بدا أن في الكهفِ أكثرَ من شخصٍ واحد . وربما كان يعجُّ بمجموعة خطّافات توارَين في الكهف ووقفن على أهبةِ الاستعداد للاندفاع خارجًا في أي لحظة ليغرزن مخالبهن فيهما .

في النهايةِ ما عادا يطيقان الاكتفاءَ بالاستماع والانتظار .

«اُخرجن يا همجيات ،» صاح بيرك . «إذا أردتنَّ أن تواجِهن أمضَى رمحٍ في هذه الغابة .»

بيد أن أحدًا لم يظهر . بدلًا من ذلك سمعا هسهسةً غاضبةً من داخل الكهف . «بشرٌ هنا في غابةِ الأقزام الرمادية! يا أقزام رمادية اهجمي وعضّي .»

هذا جعلَ رونيا تشتعلُ غضبًا . «إلى الخارج أيتها الأقزام الرمادية ،» صاحت . «هيّا فليرحل الجميعُ فورًا ، وإلا أدخلُ وأنتزعُ شعركم .»

ومن الكهف خرجَت طائفةُ الأقزام الرمادية تهسهسُ وتبصقُ على رونيا ، ورونيا بدورِها بصقَت على تلك الأقزام ، بينما وقفَ بيرك يلوّحُ برمحه . وفي الحال تدافعَت الأقزام الرمادية هاربةً ، زحفَت وانحدرَت على الجرف الحادّ بغيةَ الوصول إلى النهر . فقدَت أيدي بعضها السيطرةَ وهي تتمسّكُ في انحدارها فسقطَ



أصحابها في الشلال وهم يئنّون من الغيظ . وهكذا جرف النهر مجموعةً كاملةً منهم . إلا أنهم نجحوا أخيرًا وهم يجاهدون ليصعدوا إلى الضفّة .

«إنها سبّاحةٌ ماهرةٌ تلك الوحوش الصغيرة ،» قالت رونيا .

«وماهرةٌ في التهام الخبز أيضًا ،» قال بيرك عندما دخلا الكهف ولاحظا أن الأقزام الرمادية قضَت على رغيفٍ كاملٍ من مؤونتهما .

لم يسعف الوقتُ الأقزام الرمادية لتفسدَ أكثر مما أفسدت ، لكن حقيقة تسلّلها إلى الكهف كانت كافية .

«هذا ليس جيدًا أبدًا ،» قالت رونيا . «الغابةُ بأسرها ستضجُّ بالهسهسةِ والبصاق من لغوِ هذه الأقزام ، وقريبًا يصل الخبر إلى الخطّافات الدانيات والقاصيات .

لم يكن مسموحًا لأحدٍ في غابة ماتيس أن يخافَ . لم تفتأ رونيا تسمع هذه المقولةَ منذ نعومةِ أظفارها . ومن الغباء أن يعيشَ المرءُ وهو يخشى من شيءٍ لم يحدث ، هذا ما فكّرَت فيه هي وبيرك ، ولذلك التفتا بهدوء إلى ترتيبِ مؤونتهما وأسلحتهما وأدواتهما في الكهف . ثمّ جلبا الماء من الينبوع في الغابة ، وألقيا شبكةً في النهر ليصطادا السمك . جرّا إلى مأواهما حجارةً مسطّحةً من الضفّة وجهّزا موقدًا في الفسحةِ خارج الكهف ، وفتّشا باحثَين هنا وهناك عن خشبِ العرعر لصنع قوسٍ رونيا . وبينما هما يمشيان رأيا الخيولَ البرية ترعى في فسحتها المعتادةِ ، فحاولا الاقتراب من وحشي وشقي ، وهما يهمسان لهما بلطف إنما بلا نتيجة . لم يهتم وحشي وشقي بالهمس اللطيف ، وانفلتا يعدوان بخفّةٍ وهربا ليرعيا في مكانٍ آخر حيث يمكن أن يُتركا بسلام .

أمضَت رونيا بقيةَ النهار جالسةً خارج الكهف تُعدّ قوسَها مع سهمين . تخلّت

عن قسم من حبلِها الجلدي لتصنعَ الوتر . ثم بدأت تتمرّنُ على التصويب ، فعلَت ذلك مدّةً طويلةً وبسعادة ، وفي النهاية فقدَت سهميها ، فذهبَت تبحث عنهما إلى أن بدأ الغسقُ ينتشرُ ما اضطرّها إلى الاستسلام . وهذا لم يزعجها كثيرًا .

«سأُعِدُّ بعضَ السّهام الجديدةِ غدًا .»

«وحافِظي على السكين ،» ذكّرها بيرك .

«نعم ، أعرف أنها أهمّ ما لدينا . السّكين والفأس أيضًا .»

فجأةً لاحظا أن الليلَ قد حلّ وأنهما جائعان . انهمكا يعملان طوال الوقت ولم يشعرا بالنهارِ يشرفُ على نهايته . مشيا وركضا وحملا وسحبا وجرّا ورتّبا الأغراض ، ولم يمتلكا الوقت ولا ليشعرا بالجوع . وهكذا قرّرا أن يكافِئا نفسيهما بوجبةٍ غنيةٍ من الخبز والجبنة ولحمِ الضأن ، وألحقا وجبتهما بماء الينبوع الصافي ، تمامًا كما توقّعت رونيا .

لا يكون الليلُ حالكَ الظلام أبدًا في هذا الوقتِ من السنة ، بيد أن جسديهما المنهكين شعرا أن النهارَ قد انتهى وأنهما يريدان أن يَسترخيا .

في عتمةِ الكهف أنشدت رونيا أغنية الذّئاب لبيرك ، وهذه المرّة ردّدتها على نحوٍ أفضل . في جميع الأحوال أصابتها بالحزنِ ثانية فالتفتَت تسأل بيرك : «أتعتقد أنهم يفكّرون فينا في قلعةِ ماتيس؟ أعني أهلنا؟»

«من المستهجنِ ألا يفعلوا .»

ابتلعَت رونيا ريقها قبل أن تتمكّن من المتابعةِ . «أتظنُّ أنهم آسفون؟»

فكّر بيرك برهة . «الأمرُ مختلف ،» قال . «ستحزنُ آنديس ، لكن غضبها سيزداد حدّة . أعتقدُ أن بوركا سيغضب أيضًا إنما في الوقت نفسه سيغلِب عليه الحزنُ أكثر .»

«أعرفُ أن لوفيس ستحزن ،» قالت رونيا .

«وماذا عن ماتيس؟» سألها بيرك .

صمتَت رونيا مدّة طويلة قبل أن تجيبَ : «يجدرُ بي أن أعتقدَ أنه مسرور ، مسرور لأنني رحلتُ ، وبالتالي يمكن أن ينساني .»

وبذلت جهدَها لتصدّقَ ما قالته ، وفي قلبها عرفَت أن ذلك ليس صحيحًا .

حلمَت في تلك الليلة أنّ ماتيس جالس وحدَه في قلبِ غابة كالحةِ السواد ، يبكي إلى أن تشكّلت بركةُ دموعٍ عند قدميه . وعميقًا في تلك البركة كانت تجلسُ وقد عادت طفلةً صغيرةً من جديد تلهو بأكواز الذرةِ والحصى التي اعتاد أن يحضرَها لها .

١٢

باكرًا في الصباحِ التالي نزلا إلى النهرِ ليتفقّدا شبكتهما أملًا بأن تكون قد التقطَت السمك . فالسمك كما قالت رونيا : «ينبغي أن يُخرَجَ قبل أن يصيحَ طائر الوقواق .»

طفرَت تثبُ بمرح على الدرب أمام بيرك . كانت دربًا صغيرةً وضيقةً ، تتعرّجُ بشدّةٍ عند سفح الجبل خلال أجمةٍ من البتولا الغضّة . وتسنّى لرونيا أن تشمّ عبير أوراقِ البتولا اليانعة ، عبيرَ الربيع ، وهذا غمرها بالسعادة ، ولذلك طفرَت تثِب .

جاء بيرك في إثرها وهو بعدُ لم ينفض عنه آثارَ النوم .

«هذا إن كان هناك أي سمكٍ لنخرجه ، نعم ، أفترضُ أنكِ تظنين أننا سنجدُ الشبكة عامرة؟»

«هناك سمكُ سلمون في هذا النهر ،» قالت رونيا . «ومن المستغربِ ألا نجد سمكةً واحدة عالقةً في شبكتنا .»

«سيكون من المستغربِ أيضًا أن لا تسقطي في النهرِ وأنت تقفزين هكذا .»

«هذا قفزي الربيعي ،» أجابَت رونيا .

فضحك بيرك . «قفزكِ الربيعي . نعم ، هذه الدرب صُنعَت من أجلكِ أنتِ . من برأيكِ سبق أن وَطئها أساسًا؟»

«ماتيس ربما ،» هتفَت رونيا . «عندما درجَ على الإقامة في كهف الدِّببة . وهو يحبُّ سمكَ السلمون . . . لطالما فعل .»

ثمّ صمتَت . لم تشأ أن تفكّرَ في ماذا أحبَّ ماتيس أو لم يحبّ . تذكّرت ما حلمت به في ليلتها الماضيةِ ، وأرادت أن تنسى ذلك الحلم أيضًا . إلا أن التفكير في ماتيس لجّ في الإلحاحِ عليها ولم يتركها وشأنها كأنّه ذبابةُ فرس لا مثيلَ لعنادها . وبقيت على هذه الحال إلى أن شاهدَت سمكة سلمون تنثر الماء وتتخبّطُ في شبكتهما! كانت سمكةً كبيرة وجيّدة ، ما يعني أنها تكفيهما عدّة أيام ، وبينما شُغِل بيرك بإخراجها من الشبكة علّق بصوتٍ فرِحٍ : «حسنًا ، أنتِ لن تموتي من الجوع يا أختي ، أعدكِ بهذا .»

«فقطْ رَيثما يأتي الشتاء ،» ردّت رونيا .

بيد أنه ما زالَ هناك وقتٌ طويل إلى الشتاء . . . فما همّها من ذلك الآن؟ وهي لا تريد أن يكونَ لها أي شأنٍ مع الأفكار المزعجة .

عادا إلى الكهف وسمكة السلمون تتدلّى من عصا ، وجذعُ شجرة بتولا يُسحَب خلفهما . علّقاه بحزاميهما بوساطةِ الحبل الجلدي ، وشقّا الدرب صعودًا بصعوبةٍ وهما يجرّانه ، كأنهما حصانا شغل يَقطران ألواحَ الخشب . كانا يحتاجان إلى الجذع ، إذ نويا أن يصنعا منه أوعيةً وأدواتٍ أخرى مفيدة .

كان بيرك قد شذّبَ الجذع ، لكن الفأسَ انزلقَت وهو يعمل ، وبدأ ينزف من جرحٍ في إحدى قدميه . لم يزعجه ما حدث ، إلا أنه عندما مشى خلّف وراءه على الدربِ ذيلًا من الدّم .

«إنه لا يستدعي القلق ، سينزفُ الجرح إلى أن يتخثرَ الدّمُ .»

«لا تكن مَزهوًا بنفسكَ كثيرًا ،» اعترضَت رونيا . «قد يأتي دبٌّ مفترس ويتتبع الأثرَ وهو يتساءل أين يمكن العثور على مزيدٍ من ذلك الدَّم الشَّهي .»

ضحك بيرك . «حينها أريه أينَ ، وأنا أحمل رمحًا بيدي .»

«لوفيس ،» قالت رونيا بعد تفكير ، «تضع عادةً الطحالب المجفّفةَ على الجروح النازفة . أرى أنه يستحسنُ أن أحضرَ كمية منها . من يدري متى تنوي جرحَ نفسكَ مرّةً أخرى؟»

وهكذا حملت من الغابة إلى مأواهما ملءَ ذراعيها من الطحالب وتركتها لتجفّ تحت الشمس . أعطاها بيرك شريحةَ سلمون مشوية عندما عادت . ولم تكن تلك المرّة الأخيرة . إذ لم يفعلا شيئًا لمدّة طويلة سوى تناول السلمون والعملِ على أوعيتهما الخشبية . لم يكن تقطيعُ الخشب صعبًا ، فقد نجحا في ذلك ، من غير أن يُصابا بالجروح . وسرعان ما أصبحت لديهما خمسة قوالب من الخشب تنتظر أن يجوّفاها ويحوّلاها إلى أوعيةٍ . وقرّرا أن ذلك العدد من الأوعية هو ما يحتاجان إليه .

ثم مع قدوم اليوم الثالثِ انبرت رونيا تسأل : «أيهما برأيكَ أسوأ يا بيرك ، السلمون المشوي أو القروح في يديكَ؟»

قال بيرك إنه لا يمكنُ أن يعطيها جوابًا وافيًا ، لأن كلّ منهما أسوأ من الآخر .

«لكنني أعرف شيئًا واحدًا . ينبغي أن يكون لدينا ما يشبه الإزميل . فهذا كدحٌ لا يُطاق ونحن لا نملكُ سوى سكين .»

وبما أنهما لم يملكا أداةً أخرى ، تبادلا الأدوار في التقطيع والكشط إلى أن أصبح لديهما في النهاية شيءٌ يشبه الأوعية .

«لن أصنعَ المزيد من هذه الأوعية في حياتي أبدًا ،» قال بيرك . «ناوليني السكينَ فأنا أنوي أن أشحذَها لآخر مرةٍ .»

«السكين؟» استفهمَت رونيا . «إنها معكَ .»

هزَّ بيرك رأسه نفيًا . «لا ، أنتِ آخر من استخدمها . ناوليني السكين .»

«لا سكينَ معي ،» هتفَت رونيا . «أما سمعتَ ما قلتُه؟»

«ماذا فعلتِ بها؟»

بدأ الغضب يجتاحُ رونيا . «ماذا فعلتُ بها؟ أنتَ من كانت معه آخر مرّةٍ .»

«هذه كذبةٌ ،» صاح بيرك . بصمتٍ ساخط فتّشا عن السكين في كلّ مكان ، داخل الكهف وخارجه عند الفسحةِ . ثم داخلَ الكهف ثانية وخارجه مرةً أخرى . ولم يظهر لها أثر .عاين بيرك رونيا ببرود . «أعتقد أنني أخبرتكِ أننا من دون السكين لا يمكن أن نتدبّر أمرنا في الغابة .»

«في هذه الحالةِ كان يجدر بكَ أن تحافظَ عليها ،» ردّت رونيا . «أنتَ في جميع الأحوال وغدٌ لئيم ، تلوم الآخرين بينما أنتَ وحدكَ أساس المشكلة .»

شحبَ وجه بيرك من شدّة الغيظِ . «هكذا إذًا ، ها قد عدتِ من جديد إلى طبيعتكِ يا بنتَ اللصّ! عدتِ إلى طباعكِ القديمة المعهودة كما أرى . ويُفترض بي أن أعيش معكِ .»

«لا داعيَ لأن تقلقَ يا لصّ بوركا ،» أجابت رونيا . «يمكنكَ أن تعيش مع سكينكَ إذا استطعتَ العثور عليها .»

تركَته ودموع الحنقِ في عينيها . قرّرت النزول إلى الغابة لتتجنّبه . ما عادت تريد أن تراه أبدًا ، ولا حتى أن تقولَ له كلمةً واحدة .

راقبها بيرك وهي تغادر . هذا أزعجه أكثر ، فصاحَ من ورائها : «أتمنى أن

تصطادك الخطّافات! معهن تكونين في بيتكِ حيثُ تنتمين!»

رأى كومةَ الطحالب ملقاةً على نحو فوضوي . تلك كانت فكرةُ رونيا الغبية ، ثم وسورة الغضبِ تأخذُ بتلابيبه ركل الكومة بعيدًا .

تحت كومة الطحالب استقرّت السكين . حملق فيها بيرك مدّة طويلة قبل أن يلتقطها . لقد بحثا بين الطحالب بعنايةٍ . كيف يمكن أن تكون السكين هناك الآن ، ومن يتحمّل مسؤوليةَ وجودها هناك؟

الطحالبُ في جميع الأحوال خطأ رونيا ، هذا كلّ ما تبادر إلى ذهنه في تلك اللحظةِ . كانت غير عادلةٍ وغبية ولا تُطاق . وإلا لأسرع وراءها وأخبرها أنه قد عثر على السكين ، إنما مع ذلك يمكنها أن تبقى في الغابة إلى أن تسأم وتعودَ إلى رشدها ثانية .

شحذ السكين إلى أن أصبحَت حادّة . ثم حملها وجلس وهو يشعر بروعةِ ملمسها في يده . كانت سكينًا جيدة ، وما عادت مفقودة .

غضبُه هو ما فُقِد . غضبُه الذي تبخّر بينما انهمك يشحذُ سكينه . لذا لا بدّ من أن يكون في نهاية المطاف راضيًا جدًا وقد استعادها . لكن رونيا ليست معه . أَلِهذا السبب شعر بذلك الشيء الغريب ينهشُ في صدره؟

«يمكنكَ أن تعيش مع سكينكَ!» هذا ما قالته . وإذا تذكّر ذلك رجع إليه غضبه . أين ستعيش هي؟ طبعًا ليس لأنه يبالي ، يمكنها أن ترحل عني وتفعل ما تشاء . لكن إذا لم تعُد وبسرعة ، فعليها أن تحذرَ مما قد تجرّه على نفسها . إذ يمكن أن تجد كهف الدِّببة مغلقًا في وجهها بلا رحمةٍ! تمنّى لو أن بمقدورهِ أن يُعلِمها بذلك . لولا أنه لا ينوي مطلقًا أن يطرقَ الغابة بحثًا عنها ليقول ما يريد قوله لها .

إنها لن تلبثَ أن تعود ، تستجدي وتتوسّل لتدخل ، حينها سيقول : «كان

يجدر بك أن تبكّري في العودة! فات الأوان الآن .»

قالَ ذلك بصوت عالٍ ليسمع وقعه ، واعترته رعشةٌ . يا له من شيء يُقال لشخص من المفترض أنه أخته! إلا أنّ ذلك ما اختارته ، فهو لم يطردها .

وبينما جلس ينتظرُ تناول شيئًا من سمك السلمون . كان مذاقُ السلمون رائعًا في المرّات الثلاث أو الأربع الأولى ، لكن الآن ، بعد المرّة العاشرة انتفخَت اللقيمات في فمه وأصبح ابتلاعُها صعبًا .

مع ذلك ، كان ذلك طعامًا . ماذا يأكل شخصٌ يهيم في الغابة؟ ماذا كانت رونيا تأكل؟ لا ريب في أن هناك جذورًا وأوراقًا خضراء إذا استطاعت العثور على أي منها ، وهذا بطبيعة الحال لا يعنيه أيضًا . يمكنها أن تمشي إلى أن تهلك ، بما أنه من الواضح أن هذا ما أرادته . بما أنها لم تعُدْ بعد .

مرّت الساعات . كان المكان موحشًا بلا رونيا . عجز عن التفكير في أي شيء يعمله وهي ليست إلى جانبهِ . والنهشُ في صدره ما برح يزداد سوءًا أكثر فأكثر .

راقب الغسقَ يتقدّم منتشرًا فوق النهر ، وذكّره هذا بذلك الوقت منذ فترة بعيدة عندما صدَّ المخلوقات الروحانية عن إغواء رونيا . وهو لاحِقًا لم يفاتحها بما حدث مطلقًا ، وهي بالتأكيد لم تدرك أنها من الأشخاص الذين يمكن أن تجتذبهم قوى تلك المخلوقات . كم تصرّفت معه بقسوة آنذاك! زِد على ذلك أنها عضّت خده ، وما زالت لديه ندبة صغيرة من تلك العضّةِ . إلا أنه على أي حال أحبّها ، نعم ، أحبّها حتى من أول مرّة رآها فيها . طبعًا هي لا تعلَم ، وهو لم يخبرها قطّ . والآن فات الأوان . من الآن فصاعدًا سيعيش وحده في الكهف . سيعيش مع سكينه . . . كيف استطاعت أن تقول شيئًا بهذه القسوةِ البالغة؟

إنه مستعدّ عن طيب خاطرٍ أن يقذف السكين في النهر إذا أتيح له أن يستعيدَ



رونيا . هذا ما أدركه في النهاية .

غالبًا ما يخيّم الضبابُ على النهر في المساء ، وذاك شيء لا يستدعي أن يقلق المرء بشأنه . إنما مَن يمكن أن يكون واثقًا ، فكّر بيرك ، من أنه في هذه الأمسية بالذات لن يمتدّ الضباب ويتغلغلَ في الغابة؟ عندئذٍ قد تخرج المخلوقات الروحانية من الأعماق المظلمةِ ثانيةً ، ومن يحمي رونيا من سحرها هذه المرة؟ طبعًا ما عاد الأمرُ يعنيه ، لكن مهما كان ما توقّفت الأمورُ عنده ، لا يمكن أن يستمرَّ هذا أكثر . يجب أن يقصدَ الغابة ، يجب أن يعثرَ على رونيا .

جرى إلى أن انقطع نفَسُه . بحث عنها في كل مكان ، بحث في الدروب والأماكن التي تراءى له أنها قد قصدتها . ناداها مرارًا وتكرارًا حتى غدا خائفًا من صوته ، وخائفًا من اجتذاب الخطّافات الفضوليات والشريرات .

أتمنى أن تصطادك الخطّافات ، هذا ما صاح به خلفها ، تذكّر الآن والخزيُ

يمسك بخناقه . لعلّ هذا ما فعلته الخطّافات بما أنه لا يمكن العثور عليها في أي مكان . أو ماذا لو عادت إلى قلعةِ ماتيس؟ لعلّها الآن منحنية أمام ماتيس تستجدي وتتوسّل ليسمحَ لها بالرجوع إلى البيت ، ولتكون طفلته ثانيةً . أما هو فلن تستجديه وتتوسّلَ إليه ليسمح لها بالعودة إلى كهف الدِّببة . لا ، إنه ماتيس مَن تشتاق إليه ، لا ، لا يسعه إلا أن يرى هذا ، على الرغم من أنها حاولت أن تخفي شعورها عن بيرك . لذا لا ريب في أنها الآن سعيدة ، وقد أصبح لديها مَن تُلقي اللوم عليه ، وبالتالي تغادر كهف الدِّببة والشخص الذي من المفترض أنه أخوها!

بدأ يستسلمُ مقتنعًا أن لا فائدة من متابعةِ البحث . وأن عليه أن يعودَ إلى الكهف وإلى ما ينتظره من وحشةٍ هناك . مهما يبدو ذلك مريرًا .

كان المساءُ الربيعي إعجازيًا في روعته ، إلا أن بيرك لم يلاحظه . لم يستنشق عبيرَه أو يسمع تغريدَ الطيور ، لم يبصر العشبَ والأزهار في الأرض ، ما شعرَ إلا بوخزِ الندم فقط .

فجأةً سمع من بعيدٍ حصانًا يصهلُ بخوف فظيع . أسرع نحو الصوت والصهيل الثاقبِ يزداد استماتةً كلما أمعن في الاقتراب . وسرعان ما رأى فرسًا في فسحةٍ صغيرة بين أشجار الصنوبر . كانت الفرسُ تنزف بغزارة من جرح مفتوح في خاصرتها . بدا واضحًا أنها خافت من بيرك لكنها لم تفرّ هاربة ، صهلت فقط بمزيدٍ من الخوف كما لو أنها تطلب المساعدة والحماية اللتين تحتاجهما .

«يا مسكينة ،» همهمَ بيرك ، «من أساءَ معاملتكِ إلى هذه الدرجة؟»

في اللحظة نفسها شاهد رونيا . أقبلَت مسرعةً نحوهما من بين الصّنوبرات ووجهها مخضّلٌ بالدموع .

«أرأيتَ الدبَّ؟» صاحت . «أوه يا بيرك ، لقد سلبَها مُهرها وقضى عليه!»

كانت تبكي بحرقةٍ ، لكن بيرك لم تتملّكه حيال رؤيتها إلا أقوى مشاعرِ السرور جموحًا . فرونيا على قيد الحياة . لم يقتلها أي دبٍّ ، ولم يأخذها منه لا ماتيس ولا الخطّافات . يا لها من فرحة!

وقفت رونيا إلى جانب الفرس ، تعاينُ الدّم الذي ينزف منها . بدا لها أنها تسمع صوتَ لوفيس في أذنيها ، وخمّنت فورًا ما ينبغي القيام به . فنادت بيرك قائلة : «أسرِع! أحضر الطحالبَ وإلا تفقدُ الفرس دمها كلّه!»

«وماذا عنكِ؟ لا يمكن أن تبقي هنا وثمّة مفترسٍ يصولُ ويجول في الأنحاء .»

«اِركض ،» صاحت . «يجب أن أبقى مع الفرس ، فهي تحتاج إلى المواساة وإلى الطحالب ، هيا اِذهب بسرعة!»

وجرى بيرك . وبينما اختفى وقفَت رونيا وهي تضمّ رأسَ الفرس بين يديها . همهمَت بكلماتٍ مُهدِّئة بقدر ما أمكنها أن تفعل ، والفرس استكانت بلا حراك ، كما لو أنها تستمع . لم تعد تصهل ، وربما لم تعد لديها الطاقة لتصهل . وما بين لحظةٍ وأخرى سرت في جسمها قشعريرة عنيفة . كان جرحًا فظيعًا ذاك الذي سبَّبه الدبُّ . حاولت الفرس المسكينة أن تحمي مُهرها ، والمهر قد مات . ولعلّها هي أيضًا تشعر أن الحياة تنسلّ منها ببطءٍ وحتميةٍ . كان الغسقُ قد حلّ ، وقريبًا يخيّم الليل ، وهذه الفرس لن ترى أبدًا صباحًا آخر ما لم يعُد بيرك قبل فوات الوقت .

أخيرًا عاد يحملُ الطحالب ملءَ ذراعيه ، ولم يسبق لرونيا قطّ أن رأت مشهدًا أروع . ستخبره بهذا في وقت ما ، إنما ليس في الوقت الحالي . إذ الآن عليهما أن يتصرّفا بسرعة .

تعاونا ليضغطا الجرحَ بالطحالب ، ورأيا كيف تشرّبت الطحالبُ الدّم فورًا ،

فأضافا مزيدًا منها وأحكما ربطها بالحبال الجلدية حول خاصرةِ الفرس . وقفَت الفرس بلا حراك ، وتركتهما يعتنيان بها ، كأنها أدركت ما كانا يفعلانه . ومن وراءِ أقرب شجرة صنوبر برز رأسُ أحدِ أقزام الأرض الصغار ، ولم يفهم شيئًا مما كان يجري .

«ووف أو مَن يفعل ما يفعل؟» قال بوجهٍ عابسٍ .

مع ذلك سُرّ بيرك ورونيا عندما لمحاه ، لأن ذلك عنى أن الدبَّ قد رحل . الدِّببة والذّئاب تتجنّب أي شيء له علاقة بجماعات الظلّ . لا أقزام أرض صغار ولا صيادي ليل ولا خطّافات ولا أقزام رمادية تحتاج إلى أن تهاب الوحوش المفترسة . مجرّد ظهور رائحة جماعات الظلّ كفيل بأن يجعل أي دبٍّ يولّي الأدبار نحو أعمق أعماق الغابة .

«المهرُ رأيتُ ،» قال قزم الأرض الصغير . «ما عاد! انتهى! لا شيء أبدًا!»

«نعرف ذلك ،» أجابت رونيا بصوتٍ حزين .

بقيا مع الفرس طوال الليل . كانت ليلةَ حراسةٍ وليلةَ بردٍ ، إلا أنها لم تُصبهما بأي أذى . جلسا جنبًا إلى جنب تحت شجرةِ صنوبر وارفةٍ وتجاذبا أطراف الحديث حول أمور كثيرة ، ولم يتطرّقا إلى شجارهما مطلقًا . بدا كما لو أنهما نسياه . حاولت رونيا أن تخبرَ بيرك كيف راقبت الدبَّ وهو يقضي على المهر ، لكنها سرعانَ ما سكتت . كانت استعادةُ المشهد صعبةً جدًا عليها .

«هذا هو النوعُ من الأشياء التي تحدثُ في غابة ماتيس وفي أي غابة أخرى ،» قال بيرك . في منتصف الليل استبدلا الطحالب بأخرى ، ثم ناما قليلًا واستيقظا بينما كان الفجر يبزغُ .

«أُنظر بيرك ، ما عاد الجرح ينزفُ ،» قالت رونيا . «الطحالبُ جافّة!»

شرعا في العودة إلى مأواهما في كهف الدّببة وهما يقودان الفرس بما أنه لا يمكن أن تُترك وحدها . كان المشي شاقًا عليها وموجعًا ، ومع ذلك تبعتهما طوعًا .

«لا يمكنها أن تتسلّق الصخور حتى لو استعادت قوتها ،» قال بيرك . «فأين نُبقيها؟»

قادا الفرس إلى المنطقة الواقعة أسفلَ الكهف ، منطقة مُتوارية بين أشجار الصنوبر والبتولا ، حيث يستقرّ الينبوع الذي يتزوّدا منه بالماء .

«اِشربي لتستعيدي ما فقدته من دمكِ ،» قالت رونيا . وبالفعل روت الفرس نفسها كثيرًا وطويلًا . وبعد ذلك ربطها بيرك إلى شجرة .

«يمكن أن تبقى هنا إلى أن يلتئمَ جرحها ، ولا دِببة تأتي إلى هنا ، أنا متيقّنٌ مما أقوله .»

مسّدَت رونيا الفرس وقالت : «لا تحزني كثيرًا ، ستلدين مهرًا آخر في السنةِ القادمة .»

ثم وقعت عيناها على الحليب الذي رشحَ من ضروعها .

«كان يجبُ أن يحصلَ المهر الرضيع على هذا الحليب ،» أردفت رونيا . «لكن يمكن الآن أن تعطينا إياه .»

أحضرَت الوعاء الخشبي من الكهف ، فقد حان وقت الاستفادة منه . وحلبت الفرس إلى أن امتلأ . كان في إفراغِ ضروع الفرس من الحليب راحة لها ، وكان بيرك ورونيا سعيدين بالحليب .

«أصبحَ لدينا فرس أليفة ،» قال بيرك ، «وعلينا أن نُسميها . ما الاسم الذي يجدر بنا أن نطلقَه عليها برأيكِ؟» لم تضطرّ رونيا إلى التفكير مطولًا . «أعتقد أن اسم لِيا يناسبها . كان لدى ماتيس فرس في طفولته وكان ذاك اسمها .»

واتفقا على أن اسم لِيا جيّد للفرس . فرسٌ ستقهر الموت . وستعيش . لم يساورهما أي شكٍّ في ذلك . جزّا الحشيش وأحضراه لها ، فأكلته بنهم . عندئذٍ بدأ الجوع ينهشهما هما أيضًا ، وأدركا أن عليهما العودة إلى الكهف ليسدّا جوعهما . وإذ باشرا الانطلاق ، التفتَت لِيا وراقبتهما بقلق وهما يخلّفانها وحدها .

«لا تخافي ،» طمأنتها رونيا . «لن نلبث أن نعود . ونشكركِ على الحليب .»

كان رائعًا أن يشربا الحليب ثانية ، طازجًا ومبرّدًا في ماء الينبوع . جلسا في الفسحةِ خارج الكهف وأكلا خبزهما وشربا حليبهما وراقبا الشمس تفتتحُ يومًا جديدًا .

«إن اختفاء سكينك شيء مؤسفٍ ،» قالت رونيا .

حينئذٍ أخرجَ بيرك السكين ووضعها في يدها . «وجيّدٌ أننا استعدناها . كانت تحت الطحالبِ تنتظرنا ونحنُ نتشاجر .»

جلسَت رونيا صامتةً مدّة من الوقتِ ، ثم قالت : «أتعرف ما كنتُ أفكّر فيه؟ كنتُ أفكّر كم يمكن أن يُفسدَ المرء كلّ شيء بمنتهى السهولةِ ، وبلا أي داع .»

«من الآن فصاعدًا علينا أن نتحاشى كلّ ما لا داعي له ،» أجاب بيرك . «لكن أتعرفين ما فكّرتُ فيه أنا؟ فكّرتُ أنكِ أغلى من ألفِ سكين!»

نظرَت إليه رونيا وضحكَت . «أنتَ الآن أكثر جنونًا من أي مجنون آخر بالتأكيد! هذا ما كانت لوفيس تقوله لماتيس أحيانًا .»



١٣

ومرّت الأيام ، أخلَى الربيعُ الجوَّ للصيفِ والدفءِ وجاء المطر . لأيام طوالٍ هطل المطر على الغابة التي روَت نفسها وتشبّعت بالخضرة والنضارة كماً لم يحصل من قبل . وعندما توقّف المطر وعادت الشمس لتشرقَ من جديد تصاعدَ البخار من الغابة في قيظِ الصيف ، حتى كان لا بدّ من أن تسأل رونيا بيرك ما إذا سبق له أن لاحظَ ذلك العبيرَ الطيب في أي غابةٍ أخرى على الأرض . فأجاب إنه لا يعتقد أن هناك مثيلًا له .

شُفي جرح لِيا منذ مدّة طويلةٍ . وكان عليهما أن يتركاها ترحل ، فذهبت وانضمّت إلى قطيع الخيول البرية ثانية ، إلا أنه ما زال مسموحًا لهما أن يحلباها . في المساء يتوقّفُ قطيعها عادةً على مسافةٍ قريبة من الكهف ، فيخرج بيرك ورونيا إلى الغابة ويناديانها ، عندئذٍ تصهل لتعلِمهما بمكانها لأنها هي أيضًا أرادت أن تُحلب .

وشيئًا فشيئًا كفّ قطيع الخيولِ عن الشعور بالخوف من الطفلين البشريين . وأحيانًا اقتربَت تلك الخيول وتطلّعت بفضول بينما هما يحلبان لِيا . فهي لم ترَ من قبل قطّ شيئًا كذاك . وغالبًا ما أقبل شقي ووحشي وألحفا في الاقتراب من

لِيا التي سرعان ما تُرجع أذنيها إلى الوراء وتزمجر عليها . لكن هذا لم يزعجهما . بل كانا يواصلان عبثهما ويتدافعان ويستديران ويقفزان بعزم ، كانا فتيين ويريدان أن يلهوَا . ثم في غضون لحظةٍ ينطلقان بعَدْوٍ سريع ويختفيان في الغابة .

وفي المساء التالي يعودان من جديد . في تلك الفترة أصبح ممكنًا أن يخاطبهما الطفلان ، وبعد فترةٍ أخرى صار ممكنًا أن يربّتاهما . ودأب بيرك ورونيا على فعل ذلك بهِمّة ، وعلى الرغم من أنه بدا أن الحصانين يستسيغان ذلك . كانت هناك دائمًا في عيونهما تلك المسحة من الشيطنة ، كما لو أنهما يقولان : لا يمكن أن تخدعانا!

وفي إحدى الأمسياتَ انبرت رونيا تقول : «قلتُ إنني سأمتطي حصانًا ، وهذا ما سأفعله!»

يومها كان دور بيرك في حلبِ لِيا ، وشقي ووحشي يقفان على مسافة قريبةٍ ويراقبان .

«أسمعتَ ما قلتُ؟»

كانت توجّهُ الكلام إلى شقي ، وعلى غفلة منه أمسكت عُرفه وقفزت على ظهره . طرحها أرضًا ، إنما ليس بسهولةٍ كما فعل سابقًا . فقد استعدّت له هذه المرة وتصوّرت ما الذي تتوقّعه . اضطرّ إلى المقاومة بعنفٍ ليتخلّص منها وفي النهاية نجح . سقطت في جدول الماء وهي تطلق صيحةَ غضب . ثم نهضَت غير مصابةٍ بأذى نسبيًا ، ووقفَت تفركُ مرفقها المجروح .

«أنتَ شقي ، ولن تتغير ،» قالت . «لكنني سأعاودُ الكرّة! سترى!»

وهذا ما فعلَته . في المساء ، بعد حلب لِيا حاولت هي وبيرك أن يعلّما حصانيهما أساليب تصرّف أفضل . إنما لم ينفع أي تعليم مع هذين الوحشَين

العدوانيين ، وعندما طُرِحَت رونيا أرضًا بما فيه الكفاية قالت :

«لم تبقَ بقعةٌ واحدة في جسمي لم تتقرّح ،» ثم أردفت وهي توجّه لكمة لشقي : «وهذا ذنبكَ أنتَ أيها الشيطان البري!» لكن الحصان بقي واقفًا هناك بهدوء وبدا راضيًا جدًّا عن نفسه .

وقفَت تراقبُ بيرك وهو منهمكٌ في مُغالبة وحشي . وعلى الرّغم من أن حصانه ماثل حصانها في صعوبة المراس ، كان بيرك قويًا وبقي صامدًا . نعم ، بقي صامدًا في الحقيقة إلى أن خارت قوى وحشي واستسلم .

«انظري رونيا ،» صاح بيرك ، «إنه يقف بلا حراكٍ!»

صهل وحشي باضطراب ومع ذلك بقي في مكانه ، فربّته بيرك ومدحه بإفراط إلى أن اضطرّت رونيا إلى الإفصاح عما يجول في خاطرها :

«في قلبه ما زال شيطانًا برّيًا ، وأنتَ تعرف هذا!»

ثَقُل عليها أن ينجح بيرك مع وحشي بينما عجزَت هي عن إخضاع شقي . وثَقُل عليها أكثر أن بيرك صار يتركها تحلب لِيا وحدها بعد ذلك المساء ، ويبادر إلى امتطاء وحشي ثم يلفّ به حولها في دوائر ضيقة بينما هي جاثمة تحلب . لمجرد أن يريها أي خيّال ماهرٍ هو .

«كدمات أو لا كدمات ،» قالت رونيا أخيرًا ، «اِنتظر إلى أن أنتهيَ من الحلب وسترى كيف يكون امتطاء الخيول!»

وهذا ما فعلَته . لم يعرف شقي ماذا حدث عندما شعر برونيا فجأة على ظهره من جديد . لم يعجبه الأمر ، وانطلق بأقصى سرعةٍ ليطرحها أرضًا ، كان خائفًا ومستاءً في آن واحد عندما أدرك أن مقاومته لم تأت بنتيجةٍ . لا ، هذه المرّة لن يطرحها أرضًا ، قرّرت رونيا . أحكمَت القبض على عُرفه بحزم ، تمسّكَت بركبتيها

وجلست مشدودةً ومتحفّزة. لكن الحصان سرعانَ ما اندفع مباشرة إلى قلب الغابة، انطلق مجفلًا، وراحت أغصان التنوب والصنوبر تئزُّ حول أذني رونيا فزعقَت بفزع: «النّجدة! النّجدة!»

كان شقي قد فقدَ صوابه تمامًا. اندفع قُدمًا كأنه على وشك الانفجار، وتوقّعت رونيا أن تسقط أرضًا في أي لحظة وتدقّ عنقها.

وفي الحال أقبل بيرك يتعقّبها على ظهر وحشي، وذاك الحصان كان عدّاءً لا مثيل له. وما لبث أن لحق وحشي بشقي وتجاوزه. وعلى الفور أوقفه بيرك بحزم. وشقي الذي لحق رفيقه بأقصى سرعةٍ اضطرّ أيضًا إلى التوقّف فجأةً. وطارت رونيا نصف المسافة من فوق رأسه. غير أنها بقيت متشبّثةً بالعُرف، فعادت وحطّت على ظهر شقي الذي وقف خائب الأمل بعد أن أرهق نفسه والرغوة تقطرُ منه. كان يرتجف، ومع ذلك ربّتته رونيا ومدحته أيّما مديح على عَدْوه، وهذا هدّأ من روعه.

«كان ينبغي أن تنال عقابًا شديدًا،» قالت. «إنها معجزة أنني ما زلت حيّة!»

«المعجزة الأكبر هي أننا نمتطي الخيول،» قال بيرك. «اُنظري، أخيرًا أصبح هذان الوحشان الشريران يعرفان ما يُفترض بهما أن يفعلا ومن هو صاحبُ القرار!»

عاد بيرك ورونيا إلى لِيا على حصانيهما بأهدأ هرولةٍ ممكنة، أخذا حليبهما، وتركا الحصانين يلهوان كما يحلو لهما. ثم انطلقا إلى الكهف.

«بيرك،» بدأت رونيا، «ألاحظتَ أن حليبَ لِيا بات قليلًا؟»

«نعم، ثمة مُهر جديد في الطريق الآن،» أجاب بيرك. وقريبًا تجفّ ضروعها.»

«حينها نعودُ إلى ماء الينبوع من جديد،» قالت رونيا. «وقريبًا أيضًا نضطرُ إلى الاستغناء عن الخبز.»

الطحين الذي جلبته رونيا من البيت استنفِدَ. خبَزا الأرغفة الأربعة الأخيرة على أحجار الموقد الساخنة. ما زال لديهما بعض الخبز في الكهف، وهذا سيختفي قريبًا. إلا أنهما لن يجوعا، ففي الغابة عديد من البحيرات الصغيرة الغنية بالسمك، وهناك أيضًا الكثير من طيور الغابة. ويمكنهما دائمًا إذا هدّدهما الجوع أن يصطادا قنبرة. التقطَت رونيا الأعشاب وأنواعًا من الأوراق الخضراء الصالحة للأكل، كما علّمتها لوفيس. إضافة إلى توت العليق البري الذي نضج في تلك الآونة، واستقرّ أحمر ووافرًا حول الأشجار المنهارة. ولن يلبث التوت الأزرق أن ينضج أيضًا.

«لا، لن نجوعَ،» قالت رونيا، «مع ذلك لن نُسرّ بيومنا الأول الخالي من الحليب والخبز.»

وذلك اليوم جاء في وقت أبكر مما توقّعا. استجابت لهما لِيا بإخلاص كلما استدعياها في المساء، ولكن رونيا لاحظَت أنها ما عادت تستسيغُ أن تُحلَب. وفي النهاية ما عادت رونيا تحصل على ما هو أكثر من بضع قطرات حليبٍ منها، وأظهرت لها لِيا بوضوح أن الكيلَ قد طفح بها. عندئذٍ أحاطت رونيا رأس لِيا بيديها ونظرت في عينيها.

«أريد أن أشكركِ يا لِيا على الأيام الماضية. أتعرفين أنكِ ستنجبين مهرًا آخر في الصيف القادم؟ وآنذاك يدرّ حليبكِ من جديد

. إنما سيكون ذاك الحليب لرضيعكِ وليس لنا.»

مسّدَت رونيا الفرس مقنعةً نفسها أن لِيا فهمت كلّ كلمة، والتفتت تقول لبيرك: «أنتَ أيضًا يجب أن تشكرها!»

وبالفعل شكرها بيرك. بقيا مع الفرس مدّة طويلة وعندما غادرا تبعتهما مسافةً

قصيرة على ضوء ليلة الصيفِ الخافت . وبدا تقريبًا كما لو أنها أدركَت أن تلك الفترة الغريبة التي عاشتها قد انتهت ، الفترة التي لا تشبه في شيء حياتها بصفتها فرسًا برية . البشريان الصغيران اللذان جعلا أمورًا غريبة تحدثُ يفارقانها الآن ، ووقفَت هناك فترة تراقبهما إلى أن اختفيا بين أشجار التنوب . ثم استدارت عائدةً إلى قطيعها .

لمحاها أحيانًا في المساء كلّما خرجا ليمتطيا حصانيهما ، وإذا نادياها تستجيب بالصهيل ، بَيد أنها لم تفارق قطّ قطيعها وتوافيهما . كانت فرسًا برية ولن تصبح في يوم حيوانًا أليفًا في أي حالٍ من الأحوال .

أمّا شقي ووحشي فكانا يأتيان عَدوًا بلهفةٍ حالما يريان رونيا وبيرك . إذ لا شيء أبهجهما في تلك الأيام أكثر من أن يتسابقا وصاحب كلّ منهما يمتطيه . واستمتع بيرك ورونيا استمتاعًا هائلًا بجولاتهما الطويلة في الغابة .

ثم في مساء ما طاردتهما إحدى الخطّافات . جنّ جنون الحصانين من الفزع ، وما عادت السيطرة عليهما أو توجيههما ممكنةً . ولم يكن أمام بيرك ورونيا إلا أن يقفزا ويرتميا أرضًا ويتركا الحصانين يعدوان وحدهما . ومن دونهما لم يكن لدى الحصانين ما يخشيانه ، فالبشر فقط هم من تكرههم الخطّافات الشريرات وتسعى إلى النيل منهم ، ولا تكترثن مطلقًا بسائر وحوش الغابة .

كان بيرك ورونيا في دائرة الخطر . وبرعب هائل انطلق كلّ منهما نحو اتجاه معاكس . وهذا حال دون أن تستطيع الخطّافةُ القبضَ عليهما معًا . كانا يدركان أنها بغبائها ستحاول ذلك . وهذا في الحقيقة ما أنقذهما . إذ بينما هجمت تطارد بيرك وجدت رونيا الفرصة لتختبئ . ومع أن الوضع غدا أسوأ بالنسبة إلى بيرك ، أرادت الخطّافةُ في الوقت نفسه أن ترى أين اختفت رونيا ، فنسيت بيرك لبرهةٍ



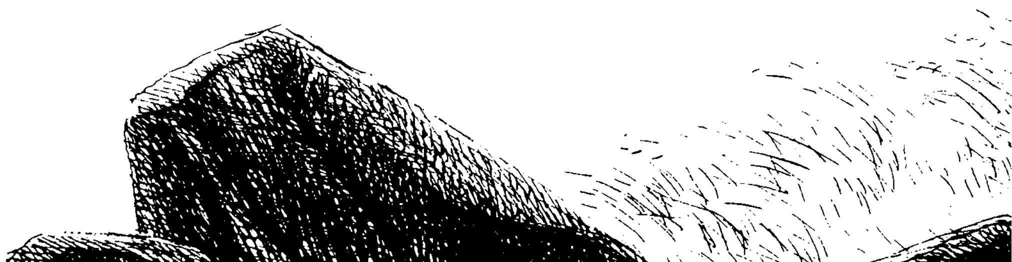


قصيرة . فما كان منه إلا أن زحف بسرعة واختبأ تحت صخرتين عظيمتين وقبع هناك حينًا ، متوقعًا أن تعثر عليه الخطّافةُ ثانيةً في أي لحظةٍ .

بالنسبة إلى الخطّافات لا وجود لما لا يمكنهن أن يرينه . وهكذا ما عادت عينا تلك الخطّافة تبصران أي بشري لتنشب مخالبها فيه . فطارت عائدة إلى الجبال وهي تستشيطُ غضبًا لتطلع أخواتها على ما حدث .

راقبها بيرك تبتعد ، وعندما تأكّدَ من أنها لن ترجع نادى رونيا . زحفت رونيا خارج المخبأ الذي توارت فيه تحت شجرة تنوب ، ورقص الاثنان فرحًا بنجاتهما . إذ أي حظٍّ ميمون هذا أن لا يُخدشا حتى الموت ، أو أن تحملهما الخطّافة إلى الكهوف في قمم الجبال ليقضيا ما تبقى من حياتهما في الأسر!

«يجب ألا يخافَ المرء في غابة ماتيس ،» قالت رونيا . «لكن مع الخطّافات تخفقُ بأجنحتها حول أذنيه صعب ألّا يخاف .»



لم يظهر أي أثر هناك لشقي ووحشي ، لذا اضطرّ بيرك ورونيا إلى المشي مسافة طويلة ليعودا إلى كهف الدِّببة .

«لا أمانعُ المشي الليل بطوله ما دمتُ لا أرى أي خطّافةٍ شرسة .» قال بيرك .

انطلقا يجتازان الغابة وهما متشابكي الأيدي ويُدردشان بسعادة ، انطلقا بمعنويات عالية بعد ذلك الفزع الذي واجهاه . كان الغسق يلقي ظلاله على الغابة ، والأمسية الصيفية جميلة ، تحدّثا عن الوقت الرائع الذي يمكن أن يقضياه حتى على الرّغم من وجود خطّافات في الأجواء . فلا متعةَ أروع من أن يختبرا الحياةَ الحرّة في الغابة ، في الليل أو في النهار ، تحت الشمس والقمر والنجوم ، وخلال مرور الفصول المتأني ، في الربيع الذي ولّى الآن ، وفي الصيف الذي بدأ ، وفي الخريف الذي لن يلبثَ أن يحلّ .

«لكن في الشتاء . . .» بدأت رونيا ثم سكتَت .

شاهدا جماعات من الأقزام الرمادية وصيادي الليل وأقزام الأرض الصغار يهمهمون ويسترقون النظر بفضولٍ ، تارة من هنا وتارة من هناك ، من وراء جذوع الأشجار والصخور .

«قوم الظلّ ،» قالت رونيا ، «يواصلون حياتهم بسعادةٍ كاملة في الشتاء أيضًا .» ثمّ عادت وسكتَت ثانية .

«رونيا يا أختي ، نحن في الصيفِ الآن ،» قال بيرك ، وهذا طبعًا لم يغب عن ذهنِ رونيا .

«أنا سأحملُ هذا الصيف في ذاكرتي ما دمتُ حيّةً ،» قالت .

تلفّت بيرك يتأمّلُ ما حوله في الغابة المكتسية بحمرة الغسق ، وانتابه مزاجٌ غريب ، لم يعرف لماذا . لم يدرك أن ذاك الشعور الذي طغى عليه ، ذاك الشعور

الذي يكاد يشبه الألم ، ليس إلا ما بثّه فيه جمال المساء الصيفي وسكينته ، ولا شيء أكثر .

«هذا الصيف ،» قال وهو ينظر إلى رونيا . «نعم ، أنا أيضًا أعرف أنني سأحمل هذا الصيفَ معي إلى آخر يوم من عمري . . .»

أخيرًا وصلا إلى مأواهما في كهف الدِّببة . وعند الفسحةِ خارج الكهف وجدا ليتل سنيب بانتظارهما .

١٤

كان ليتل سنيب جالسًا هناك ، ملتحيًا وأشعثَ الشعرِ وأفطسَ الأنف ، كما عَهدته رونيا دائمًا . إلا أنها في تلك اللحظة شعرت أنها لم تر قطّ مشهدًا أروع ، فارتمت عليه وهي تطلقُ صوتها بالصياح .

«ليتل سنيب . . . أوه . . . هذا . . . أنتَ . . . أنتَ قد أتيت!»

تلعثمَت من فرطِ السعادة .

«المنظر لطيفٌ من هنا ،» قال ليتل سنيب . «يمكنكِ أن تري النهر والغابة ، أليس كذلك؟»

ضحكَت رونيا . «نعم يمكنكَ أن ترى النهرَ والغابة! ألهذا أنتَ هنا؟»

«لا ، لا ، أرسلتني لوفيس وحمّلتني بعضَ الخبز ،» أجاب ليتل سنيب . فتح حقيبته الجلدية وأخرج منها خمسة أرغفةٍ كبيرة ومستديرة .

عندئذٍ زعقَت رونيا ، «بيرك ، أرأيتَ يا بيرك؟ خُبزا! لدينا خُبزا!»

استولَت على رغيفٍ ورفعته نحو أنفها . شمّت رائحتَه وترقرقت عيناها بالدموع .

«خُبز لوفيس! لقد نسيتُ أن ليس هناك ما هو أروع منه .»

ثم اقتطعَت كِسرًا كبيرةً وحشرتها في فمها . أرادت أن تعطيَ بيرك بعضها أيضًا لولا أنه وقف واجمًا على مقربةٍ ، ومن دون أي كلمة ومن دون أن يأخذ شيئًا من الخبز هرعَ داخلًا الكهف .

«نعم ، استنتجَت لوفيس أن الخبزَ قد نفدَ منكما الآن ،» علّق ليتل سنيب .

مضغَت رونيا لقمتها ، مُتذوقةً الخبز في فمها كأنه عطيةٌ من السماءِ ، وهذا جعلها تفتقدُ لوفيس . لكن سرعانَ ما تبادر إلى ذهنها سؤال ، فقالت مستفسرةً :

«كيف عرفَت لوفيس أنني في كهفِ الدِّببة؟»

أخذ ليتل سنيب نفسًا وأجاب : «أَتظنين أن أمّكِ مُغفلة؟ أين يمكن أن تكوني غير هنا؟»

تأمّلها بإمعانٍ . هنا تجلس أمامه رونيتهم ، رونيتهم الصّغيرةُ الرائعة ، تحشو فمها بالخبزِ كما لو أنّ ذلك هو أقصى ما تريده في الحياة . وأدرك أن الوقت قد حان ليبوحَ بما جاء من أجله حقًّا . أخبرته لوفيس أن عليه أن يتصرّفَ بدهاء ، وهذا أقلقَه . فهو ما كان ، على وجهِ الخصوص ، يتميّزُ بالدهاء .

«اِسمعي رونيا ،» قال بحذرٍ ، «أَلن تعودي إلى البيت قريبًا؟»

في تلك اللحظةِ صدرَ وقعُ جلبةٍ من داخل الكهف . أحدهم كان يستمعُ وأراد أن يُعلمَ رونيا بذلك .

لكن آنذاكَ لم يكن يشغلُ فِكر رونيا شيءٌ سوى ليتل سنيب .

وَدّت أن تسأله عن أشياءٍ كثيرة ؛ أشياءٍ تاقت أشدّ التّوق لتعرفها . ومع أنه كان يجلسُ قربها ، لم تستطع مواجَهته لما أرادت أن تمضيَ في طرحِ أسئلتها ، وبدلًا من

ذلك صوّبَت عينيها على النهرِ والأشجار .

ثم سألت بصوتٍ خفيض جدًا بحيث لم يكَد ليتل سنيب يسمعها . «كيف هي الأحوالُ في قلعة ماتيس هذه الأيام؟»

وصَارحها ليتل سنيب بالحقيقةِ . «هذه الأيام الأحوالُ كئيبةٌ في قلعة ماتيس . عودي إلى البيتِ يا رونيا!»

مرّة أُخرى صَوّبت رونيا عينيها على النهرِ والأشجار . «لوفيس أرسلتكَ لتقولَ هذا؟»

هزّ ليتل سنيب رأسه إيجابًا . «نعم! الحياةُ كئيبةٌ كثيرًا من دونكِ يا رونيا . كلّنا ننتظرُ عودَتكِ إلى البيت .»

سألت رونيا بهدوءٍ وهي ما زالت تحدّق في النهر والأشجار : «وماتيس؟ أَينتظرُ هو الآخر عودتي إلى البيت؟»

رانَ الصمت فترةً قصيرة ، فتابعت رونيا : «أَيأتي على ذِكري في أي حالٍ من الأحوال؟»

تقلقلَ ليتل سنيب في جلستِه وبقي صامتًا ، إذ رأى أنّ عليه الآن أن يتصرّفَ بدهاء .

«أَصدِقني القولَ يا ليتل سنيب ، أيأتي أبدًا على ذكرِ اسمي؟»

«لا ،» أجابَ ليتل سنيب رغمًا عنه . «ولا أحدَ مسموحٌ له أن يفعل ، ليس على مسمع منه .»

اللعنةُ على الشيطان ، همهمَ ليتل سنيب بينه وبين نفسه ، لقد قال ما طلبَت منه لوفيس أن يصمتَ عنه! أوه نعم ، حاولَ أن يكون ماكرًا قدر المستطاعِ! نظر إلى

رونيا نظرةَ توسّلٍ : «لكن كلّ شيءٍ سيغدو على ما يرام إن عدتِ إلى البيتِ فقط!»

هزّت رونيا رأسَها . «لن أعودَ أبدًا! لن أفعلَ طالما أنا لستُ بنت ماتيس! يمكنكَ أن تخبره بذلك! يمكنكَ أن تصيحَ بهذا في قلعةِ ماتيس!»

«شكرًا جزيلًا يا رونيا ،» قال ليتل سنيب . «ولا حتى سكاليبر قد يجرؤ على إعلانِ مثل هذه الرّسالة .»

بالمجيء على ذِكر سكاليبر أخبرها ليتل سنيب أنّ صحَته مُتدهورة في الوقت الحاضِر . وكيف لا ، ما دام كلّ شيءٍ آخر هناك في مُنتهى البؤس؟ ماتيس يوبّخُ ويتذمّرُ في الصباح والظهر والليل . ما عاد أي شيءٍ يناسبه ، وأعمالُ السرقةِ مُتدنية . الغابةُ بأسرها تعجُّ بالجنود . وقد قبضوا على بيليه ووضعوه في إحدى زنزانات الشريف ، ولا يقتاتُ إلا على الخبز والماء . ومعه أيضًا رجلان من عصابة بوركا ، والشريفُ أقسم ، كما قِيل ، أنه ينوي القبضَ على جميع قطّاعِ الطرق في غابة ماتيس ، وأنهم سيواجهون عقابهم المستحق خلالَ سنةٍ ويومٍ وفقَ القانون . وما يمكنُ أن يعني ذلك؟ تساءل ليتل سنيب . «الموت ربما؟»

«ألا يضحكُ مطلقًا هذه الأيام؟» استفسرَت رونيا .

لاحت الدهشةُ على وجه ليتل سنيب . «مَن؟ الشريف؟»

«أنا أتحدّثُ عن ماتيس ،» أوضحَت رونيا .

أكّدَ لها ليتل سنيب أن لا أحدَ سمع ماتيس يضحكُ منذ ذلك الصباح الذي قفزت فيه من فوق فوّهةِ الجحيم أمام عَينيه .

أَعلَمها ليتل سنيب أنّ عليه أن يغادرَ قبل أن يصبح الظلام حالكًا . وإذ أدرك

أنه عائدٌ إلى القلعة بدأ القلقُ ينهشه مما سيقوله للوفيس .

ولذلك حاولَ ثانية . «عُودي إلى البيت يا رونيا! رجاءً! عودي ، ألن تفعلي؟»

هزّت رونيا رأسها نفيًا . «أُشكُر لوفيس ألفَ مرّةٍ على الخبز!»

عندئذٍ دفع ليتل سنيب يده بسرعةٍ في حقيبته الجلدية . «يا إلهي ، معي أيضًا كيس ملح لكِ! كنتُ سأقع في مُشكلة عويصةٍ لو عدتُ به إلى البيت .»

أخذتْ رونيا كيسَ الملح . «لدي أمّ تفكّرُ في كلّ شيءٍ! إنها تعرف ما يحتاجه المرء ليبقى على قيدِ الحياة . إنما كيف خمّنت أنه لم يتبق لدينا إلا بضع ذرّات من الملح؟»

«ربما هذا هو النوع من الأشياء الذي تشعرُ به الأم ،» أجاب ليتل سنيب . «عندما تفتقرُ ابنتها إلى شيءٍ تحتاجه .»

«فقط أمٌّ مثل لوفيس ،» قالت رونيا .

وقفَت تلاحقُ بعينيها ليتل سنيب فترةً بينما مضى مبتعدًا . راقبته يسرعُ برشاقة على طول صفِّ الصخور . ولم تدخل الكهف إلا بعد أن غابَ عن نظرها .

«أرى أنكِ لم تعودي معه إلى البيتِ وإلى أبيك ،» قال بيرك . كان آنذاك راقدًا في فراشه المصنوع من أغصان التنوب . لم تستطع رونيا أن تميّزَه في العتمة ، إلا أنها سمعَت الكلمات ، وكانت كافيةً لتزعجَها .

«ليسَ لدي أب ،» أجابت . «وإذا لم تأخذ حذركَ ، قد لا يكون لدي أخ أيضًا!»

«سامحيني يا أختى إذا كنتُ مجحفًا بحقكِ ،» قال بيرك . «لكن أحيانًا أخمّنُ ما يجولُ في ذهنكِ .»

«نعم ،» هتفَت رونيا في العتمة . «أُفكِّر في أنني قد عشتُ أحدَ عشر شتاءً ، وسألقى حتفي في الشتاءِ الثاني عشر . وأنا أريد من صميمِ قلبي أن أبقى في هذه الأرض . هذا إذا استطعتَ أن تستوعبَ ما أقول!»

«انسي الشتاء ،» قال بيرك . «نحن في الصيفِ الآن!»

نعم ، إنّه الصيف . صيفٌ تجلّى أكثر فأكثر يومًا إثر يوم . صيفٌ أدفأ وأنقى من أي صيفٍ يستطيعان تذكّره . ويوميًا عندما تشتدّ حرارة الظهيرةِ يستحمّان في ماء النهر البارد . يسبحان ويغوصان كأنهما زوجان من كلاب الماء . ويتركان التيار يجرفهما إلى أن يصبحَ هدير شلال الجشع عاليًا جدًا ، ما يعني أنهما أصبحا في مُنتهى القرب منه وفي دائرةِ الخطر . فلا أحد كُتبَت له النجاة من شلالِ الجُشع بعد الخوض فيه ؛ الشلال الذي يصبُّ فيه النهرُ ماءَه من منحدرٍ هائل .

وقد عرف بيرك ورونيا متى يصبحُ الخطر وشيكًا .

«حالما ألمحُ حدبةَ شلال الجشع ،» قالت رونيا ، «أعرف أن الخطرَ أصبح مُحدقًا .»

كانت حدبةُ شلال الجشع صخرةً عظيمةً مستقرّة في وسط النهر على مسافةٍ قريبة نوعًا ما من الشلال . وكانت أشبه بعلامةِ تحذير لبيرك ورونيا . حالما يلمحانها يدركان أن الوقتَ قد حان ليجاهدا في العودة إلى الضفّةِ . وعندما يصلان إليها يستلقيان هناك لاهثَين ومتقعَين من البرد . ثم يسمحان للشمس أن تُدفئ عظامهما بينما يتفرّجان على كلاب البحر تسبح وتغوص على طولِ النهر من غير أن تكلَّ أو تملَّ مطلقًا .

وقُبَيل المساء ، عندما يصبحُ الجوُّ لطيفًا ، يقصدان الغابة ليمتطيا حصانيهما .

ابتعد شقي ووحشي عنهما فترةً من الوقت. أفزعتهما الخطّافةُ كثيرًا بحيث جعلتهما يخافان أيضًا من البشريَين اللذين كانا يمتطياهما عندما تعقبتهما تلك الخطّافةُ المخيفة. بقيا بمنأى مدّةً من الزمن، ثم بدا أنهما نسيا كلّ شيءٍ؛ إذ كانا يُقبلان عَدوًا وهما يتحرّقان شوقًا ليتسابقا من جديد. كان بيرك ورونيا يسمحان لهما أن يجريا في البداية لينفّسا عن شيء من طاقتهما، ثم يقودانهما هنا وهناك في شتّى أرجاءِ الغابة.

«أُمسيات الصيفِ الدافئة هذه رائعةٌ لركوب الخيل،» قالت رونيا. ثم فكّرَت، لماذا لا يبقى الصيف في الغابة دائمًا؟ ولماذا لا يمكن أن أبقى سعيدةً على الدوام؟»

أحبّت غابتها وأحبّت كلّ ما فيها. الأشجار والبُحيرات الصغيرة والينابيع التي مرّا بها على حصانيهما، والطحالب المنبثقة من الأرض، ورُقع التوت البري وأجمات العنّاب، والأزهار والحيوانات والطيور، وما دام الأمرُ كذلك، لماذا تبدو الغابة كئيبةً أحيانًا، ولماذا يجب أن يعمّها الشتاء في يوم؟

«في أي شيءٍ تفكّرين يا أختي رونيا؟» سألها بيرك.

«أفكّر في أنّ... تحتَ تلك الصخرة الهائلةِ يعيش صيادو الليل،» أجابت رونيا. رأيتهم يرقصون في الربيع. وأنا أحبُّ صيادي الليل وأحبُّ أقزامَ الأرض الصغار. ولكن ليس الأقزام الرمادية ولا الخطّافات!»

«طبعًا لا، ومَن يحبّهم؟» قال بيرك.

«وأنا أكره الخطّافات أكثر من أي شيء آخر،» أردفَت. «ومن العجيبِ حقًا

أنهن تركننا بسلامٍ هنا طوال هذه المدّة . إنهن كما يبدو يجهلن أننا نعيشُ في كهف الدِّببة .»

«هذا لأن كهوفَها الجبلية في الجانبِ الآخر من الغابة وليس ناحية النهر ،» أوضح بيرك . «ولعلّ الأقزامَ الرماديةَ التزمَت جانب الصمت ولو لمرّةٍ ، وإلا لهاجمتنا الخطّافات منذ وقتٍ طويل .»

سرَت القشعريرةُ في جسد رونيا . «ليس من الجيّد أن نأتيَ على ذكرِها ، قد نَستدعيها بذلك إلى هنا .»

أصبحَت الدنيا تعتمُ باكرًا . وولّى زمنُ الليالي الوضاءة . في المساء اكتفيا بالجلوس أمام النار وتأمّلا النجومَ الباهتة تتلألأ في السماء . وبينما كان الظلامُ يزداد حلكةً أصبحَت النجوم أكثر فأكثر سطوعًا ، تشعُّ بوضوحٍ فوق الغابة . ومع أنَّ السماء ما زالت سماءَ الصيفِ ، فهمَت رونيا ما تقوله النجومُ : قريبًا يحلُّ الخريف!

في صباحِ يوم جديدٍ ، أطلَّ عليهما نهارٌ حارّ ، فاستحمّا في النهر كالمعتاد . وبينما هما هناك حلّقَت في السماء مجموعة من الخطّافات . لم تأت واحدة أو اثنتان ولكن الكثير منهن ، سرب عظيم شرس . وفجأة اكتظّت السماء بهنّ ، ورحن يحلّقن فوق النهر وهنّ يزعقن وينعقن .

«هوه هاه هواه ، بَشريان صغيران رائِعان في الماء! سيجري الدّمُ الآن ، هوه هوه!»

«غوصي رونيا ،» صاحَ بيرك . وبالفعل غاصا وسبحا تحت الماء إلى أن اضطرّا إلى الخروج إلى السطحِ طلبًا للهواء . وعندما شاهدا السماء تظلم بمزيد ومزيد من

الخطّافات ، أدركا أنه ما عادَ لديهما أملٌ . هذه المرّة لن يفلتا منهنّ .

وفكّرَت رونيا بمرارةٍ وهي تسمع النعيقَ الذي لم يتوقّف لحظةً : سيحرصن على ألّا أقلقَ بشأن الشتاءِ نهائيًا .

«بَشريان صغيران رائعان في الماء ، خمشٌ وخدشٌ الآن ، وسيجري الدّمُ ، هوه ، هاه!»

كانت الخطّافات تستسيغُ الترهيبَ وإثارةَ الفزع قبل مباشرةِ الهجوم والانقضاض ، فهناك متّسع من الوقت للخمش والخدش والقتل . وثمّة مرح مماثل تقريبًا في التحليقِ حول فرائسها وهي تنعقُ وتصرخ وتروِّعها ، بينما تنتظر إشارة زعيمتها الخطافة الأعظم الأشدّ شراسة والأكثر ضراوة . الإشارة التي تعني : حانَ الوقت . وهكذا حلَقت الخطّافة الأعظم بسرعةٍ رهيبةٍ على نطاقٍ واسع فوق النهر . . . هوه هاه هوه . . . ولم تكن في عجلةٍ من أمرها! لكن مهلًا ، فهي لن تلبثَ إلا أن تكون الأولى في نشبِ مخالبها في أحد البشريين اللذَين يخوضان الماء في الأسفل . أيجدرُ بها أن تنقضَّ أولًا على البنتِ ذات الشعر الأسود؟ فذاك صاحب الشّعر الأحمر كان آنذاكَ خارجَ نطاقِ الرؤية ، إنما حتمًا سيظهرُ ثانيةً قريبًا . هوه ، هوه ، هناك مخالبُ حادّة كثيرة تنتظره ، هوه ، هوه!

غاصَت رونيا ثم ظهرَت ثانية وهي تشهقُ . تفحّصَت عيناها الأنحاء . أين بيرك؟ لم تر له أثرًا أينما نظرَت . وندبَت بيأس . أين هو؟ أتراه غرقَ؟ أتركها وحدها مع الخطّافات؟

«بيرك!» صرخت بصوت مذعور . «بيرك ، أين أنتَ؟» عندئذٍ انقضّت عليها الخطّافة الأعظم وهي تعوي وتنعق ، فأطبقَت رونيا عينيها . . . أخي بيرك ، كيف

يمكنكَ أن تتركَني وحدي في أسوأ وقتٍ؟»

«هوه ، هواوا هوه!» نعقَت الخطّافة . «سيُسفك الدُّم الآن!»

مع ذلك أرادت أن تنتظرَ مدّةً أطول ، أطول بقليلٍ ، ثم . . . هوه هوه! حلّقَت فوق النهر مرّةً أخرى وفجأةً سمعت رونيا صوتَ بيرك .

«رونيا ، تَعالي بسرعة!»

انجرفَ غصنُ شجرةِ بتولا طافٍ ما زالَ مكللًا بالأوراق الخضراء مع التيارِ . وكان بيرك متشبثًا به . بالكادِ استطاعت رونيا أن ترى رأسَه فوق الماء . لكنه كان هناك . لم يتركها وحدَها! أوه ، أي عَزاء ذاك!

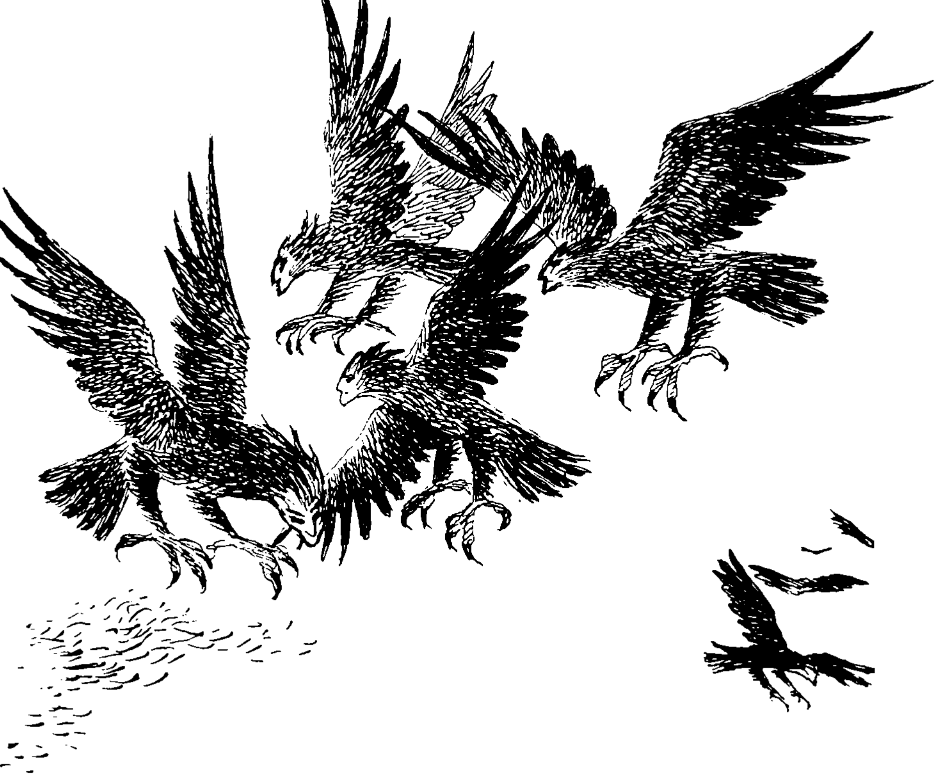
أدركَت أنها إن لم تسرع ، سيحملُه التيار إلى حيث لا يمكنُ الوصول إليه . غاصت وسبحت لتنجوَ بحياتها . . . وأخيرًا أصبحت قربه . مدّ يدَه وجذبها نحوه ، وهناك تشبّثا بالغصنِ نفسه ، مُتواريين قدر الإمكان تحت أوراقِه الظليلة .

«آه يا بيرك ،» شهقَت رونيا . «ظننتُ أنكَ غرقتَ!»

«ليسَ بعد ، لكن قريبًا! أتسمعين هديرَ شلال الجشع؟»

سمعت رونيا هديرَ المياه الجبّار ، صوتَ شلال الجشع . وكان التيار يجرفهما نحو تلك الهاويةِ بلا رحمة . أدركت رونيا أنهما باتا قَريبين جدًا من الشلال ، رأت ذلك بأمّ عينها ، وشعرت بجذبِ الشلالِ العنيف لهما . لم تفتأ سُرعة انجرافِهما تزداد ، ومعها ازداد اصطخابُ الماء المتدفق . قريبًا ، قريبًا يُقذفان نحو رحلتِهما الأخيرة ، الرحلة التي لا يمكنُ أن يخوضاها سوى مرّة واحدة .

ولذلك أرادت أن تكون أقربَ ما يمكنُ من بيرك . جاهدت بمشقةٍ والتصقَت به مدركةً أنه يشعرُ بشعورها نفسه : شلال الجشع أرحمُ من الخطّافات .



أحاطَ بيرك كتفيها بذراعه . مهما حدثَ سيبقيان معًا . أخ وأخت . ولا شيءَ الآن يمكنُ أن يفرّقهما .

كانت أسرابُ الخطّافات تبحثُ عنهما بشراسةٍ . أين اختفى البشريان الصّغيران؟ لقد أزفت اللحظةُ لينشبن مخالبهنّ فيهما . لماذا ما عدن يَرين أي بشريين صغيرين؟

لم تقع عيون الخطّافات إلا على غصنِ شجرةٍ مُورق يجرفه تيارُ النهر بسرعةٍ عظيمة . ما كان مُستترًا تحت الأوراق بقي خفيًا عن أعينهن . فزعقن بسخط ودُرن والتففن وبحثن ، والتففن وبحثن .

في تلك الآونةِ أصبح بيرك ورونيا بعيدَين جدًا ، وما عادا يسمعان نعيقَ



الخطّافات . ما صمَّ آذانهما كان هديرُ شلال الجشع الذي ازداد صخبًا . وأدركا أنهما أصبحا على قابِ قوسين منه .

«أختي رونيا ،» هتفَ بيرك .

لم تسمعه رونيا ، لكنها حدَست ما يقوله من حركةِ شفتيه . ومع أن أيًا منهما لم يقدر على سماعِ ما يقوله الآخر ، تبادلا الحديث . قالا ما يجب أن يُقالَ قبل أن يفوتَ الأوان . كَم من الجميل أن يحبَّ المرء أحدًا حبًا جمًا بحيث لا يحتاج إلى أن يصيبه الفزعُ في أحلكِ اللحظات . هذا ما قالاه على الرغم من أنهما لم يسمعا كلمةً واحدةً .

ثم ، توقّفا عن البوحِ جملةً وتفصيلًا ، تعانقا بكلّ بساطةٍ وأغمضا عيونهما .

فجأةً شعَرا بارتطام عنيفٍ أعادهما إلى رشدِهما . اصطدم غصنُ الشجرة بحدبةِ شلال الجشع . والاصطدامُ جعل غصنَ شجرة البتولا يتأرجحُ ويدورُ بحيث تغيّرَ اتجاهه ، وقبل أن يصلَ إليه التيارُ ثانية ، ابتعدَ مسافة قصيرة نحو ضفّةِ النهر . عندئذٍ صاح بيرك : «علينا أن نقومَ بهذه المحاولةِ يا رونيا .»

جذبها وحرّرَها من الفرع الذي كانت متعلّقةً به . وفي غضونِ لحظةٍ راحا معًا يكافحان وسطَ رغوةِ الدّوامات . كان لزامًا عليهما أن يُناضلا من أجلِ البقاء ، أن يُقاوما ذلك التيار العاتي من أجلِ الحياة ، التيار الذي بذلَ جلَّ طاقته ليسوقهما إلى شلالِ الجشع . كان في وسعهما أن يلمحا المياه الساكنةَ عند الضفّةِ ، قريبة جدًا ، قريبة جدًا منهما وفي الوقتِ نفسه بعيدة جدًا .

سينتصرُ شلالُ الجشع في النهاية ، فكّرَت رونيا التي ضعفَت قواها وما عادت

تملكُ القدرةَ على الاستمرار . أرادت أن تستسلمَ . أن تغرقَ فقط وتُحمَل إلى حيث يأخذها التيار ، وتتلاشى في شلالِ الجشع .

كان بيرك يَتقدمها ، وما انفكّ يلتفتُ برأسِه وينظرُ إليها . مرّة تلو مرّةٍ تِلو أخرى التفتَ ونظر إليها ، وبدورها بذلَت جهدها في المحاولة . حاولت وحاولت إلى أن خارَت قواها تمامًا .

في ذلك الوقت كانت قد وصلَت إلى المياه الساكنة ، وجاهد بيرك محاولاً سحبها نحو الضفّة . ثم ، ما عاد هو أيضًا قادرًا على فِعل المزيد .

«لكن ، يجبُ علينا . . . يجبُ عليكِ ،» شهق .

وفي خضمِ قنوطهما المفرطِ تحاملا على نفسيهما بصعوبةٍ وخرجا من الماء . هناك تحت حرارةِ الشمس سيطر عليهما النومُ فورًا ، وهما لم يَعيا بعدُ أنهما قد نجحا وأن النجاةَ كُتبت لهما . ولم يعودا إلى مأواهما في كهف الدِّببة إلا مع الغروب . وهناك في الفسحةِ خارج الكهف ، كانت لوفيس جالسةً تنتظرهما .

١٥

«يا صَغيرتي ،» هتفَت لوفيس . «شعركِ يقطرُ ماءً ، أكنتِ تسبحين؟»

وقفَت رونيا بلا حراكٍ تنظر إلى أمّها . هناك جلسَت متكئةً على الجدارِ الصخري ، مطمئنةً وثابتةً كالصّخر بحدّ ذاته . تأمّلتها رونيا بمحبةٍ وتمنّت لو أن لوفيس قد جاءت في وقتٍ آخر . في أي وقتٍ على الإطلاق ، إنما ليس الآن! الآن ما رغبَت إلا في أن تبقى وحدها مع بيرك . شعرَت كما لو أن روحَها ما زالت تخفقُ داخلها بعد ما عانته من شدّةٍ وخطر . أوه ، فقط لو أتيحت لها الفرصة لتهدئَ هي وبيرك من روعِهما ، وليهلّلا حبورًا لأنهما ما زالا حيّين ، وحدَهما فقط هي وهو!

لكن هناك جلسَت لوفيس . حبيبتها لوفيس التي لم ترها منذ مدّةٍ طويلةٍ . وبالتأكيد يجب ألّا تشعرَ أمُّها أنها غير مرحّبٍ بها .

ابتسمَت لها رونيا . «نعم ، كنتُ أستمتعُ بسباحةٍ قصيرةٍ ، أنا وبيرك .»

بيرك! لاحظَت فجأةً أنه في طريقِه إلى داخلِ الكهف ، ولم تشأ أن يفعلَ ذلك .

بل يجب ألا يفعلَ . هرعَت وراءه وهمسَت ، «ألن ترحّبَ بأمّي؟»

عايَنها بيرك ببرودٍ . «المرءُ لا يقول أهلًا لزوّارٍ غير مَدعوين . هذا ما علّمتنيه أمّي وهي ما زالت تحملني بينَ ذراعيها!»

شهقَت رونيا . مؤلمٌ احتدامُ الغيظِ والقنوطِ في النفس . وأمامها وقفَ بيرك ، ينظر إليها بعينين باردتَين كالثلج . بيرك نفسه الذي كانت جدُّ قريبة منه قبل لحظات ، بيرك الذي أرادت أن تتبعه حتى إلى شلالِ الجشع . الآن يُعرِضُ عنها ويتحوّلُ إلى مجرّدِ غريب . أوه ، كم مَقتته على ذلك! وهي لم يسبق لها أن اختبرَت مثل هذا الغضب من قَبل . وبهذا الخصوص ، لم يكن بيرك فقطْ مَن نفرَت منه ، عندما فكّرَت في الأمر . بل نفرَت مِن كلِّ شيءٍ ، من كلّ شيءٍ على الإطلاق ، من كلّ شيءٍ ومن جميع الأشخاص الذين ما فَتئوا يتنازعونها إلى أن كادت تقريبًا تنشطرُ إلى نصفين . بيرك ولوفيس وماتيس والخطّافات وكهف الدِّببة والغابة والصيف والشتاء وآنديس التي لقّنَت بيرك أشياء غبية عندما كان رضيعًا و الخطافات الفظيعات . . . لا ، مهلًا لقد سبق أن ذكرتهن! لكن هناك أمورًا أخرى أيضًا نفرَت منها لدرجة أنها يمكن أن تطلقَ صوتها بالصراخ ، حتى وإن نسيَت في تلك اللحظة ما هي ، مع ذلك تتمنّى لو تصرخ ، والصراخُ هو ما يجب أن تفعلَه إلى أن يجلجلَ دَوي صداه في الجبال!

لا ، لم تصرخ . بل هسهسَت في وجه بيرك قبل أن يختفيَ داخل الكهف ، «مؤسفٌ أنّ أمّكَ لم تعلّمكَ شيئًا من آداب السلوك أيضًا بينما كانت تربيكَ .»

عادت إلى لوفيس وبدأت تبرّرُ لها . «بيرك متعبٌ ،» قالت ، ثم صمتَت .

تداعَت على الفسحةِ الصخرية إلى جانب أمها ، وبوجهِها المدفونِ في ركبةِ لوفيس بكَت ، لم تبكِ إلى أن دوّت الجبالُ بصدى بكائها ، بل بكَت بكاءً مكتومًا لا يمكنُ سماعه .

«تعرفين لماذا جئتُ ،» قالت لوفيس .

غمغمَت رونيا من بين دموعها . «ليس لتعطيني الخبزَ كما أفترض؟»

«لا ،» أجابت لوفيس وهي تداعبُ شعرَ ابنتها . «تحصلين على الخبز عندما تعودين إلى البيت .»

نشجَت رونيا ثانية . «لن أعودَ إلى البيت أبدًا .»

«حسنًا إذًا سينتهي هذا بماتيس يُلقي نفسَه في النهر ،» قالت لوفيس بهدوء .

رفعَت رونيا رأسها . «أيُلقي نفسَه في النهر من أجلي؟ ومع ذلك هو لا يحاولُ حتى أن ينطقَ باسمي!»

«لا ، ليس وهو مستيقظٌ ،» ردّت لوفيس . «لكن في الليلِ يبكي في نومه ويناديكِ .»

«كيف لكِ أن تعلَمي؟» سألتها رونيا . «هل يشاطركِ السريرَ الآن؟ أما عاد ينام مع سكاليبر؟»

«لا ،» أجابت لوفيس . «لم يستطع سكاليبر أن يتحمّله أكثر مما فعل ، وأنا أيضًا لا أكاد أتحمّله . إنما لا بدَّ من أن يكون برفقتِه أحدٌ عندما تصبح الأمور في مُنتهى السوء .»

التزمَت الصمتَ فترةً ، ثم قالت ، «تعلمين يا رونيا أنه ليسَ أصعب من أن

تري أحدًا يُعذَّبُ عذابًا لا إنسانيًا .»

شعرَت رونيا أنّ تلك الصّرخة تكادُ تنفجر ، الصّرخة التي كانت ستجعلُ الجبال تدوي ، بيد أنها أطبقَت على أسنانها وقالت بهدوءٍ : «اسمعي يا لوفيس ، إذا كنتِ طفلةً ولديكِ أب أنكركِ تمامًا بحيث ما عاد يذكرُ اسمكِ ، أتعودين إليه؟ على افتراضِ أنه لم يحاوِل حتى أن يأتيَ إليكِ ويطلب منكِ ذلك؟»

فكّرت لوفيس لحظةً . «لا ، لن أفعل . عليه أن يطلبَ مني . . . يطلب مني أن أعودَ .»

«وماتيس لن يُقدِم على شيءٍ من هذا أبدًا ،» قالت رونيا .

من جديد طمرَت وجهها في ركبةِ لوفيس وبلّلت ثوبها الأصفر الخشن بدموعٍ صامتةٍ .



هبطَ الليل وحلّ الظلام ، إذ حتى أسوأ الأيام لها نهاية .

«اِذهبي إلى سريركِ يا رونيا ،» قالت لوفيس . «سأنتظرُ هنا وأغفو قليلًا بين حينٍ وآخر ، وحالما يبزغُ الضوءُ أعود إلى البيت .»

«أريدُ أن أنام قربكِ ،» قالت رونيا . «وأريدُ أن تغنّي لي أنشودة الذّئاب .»

تذكّرَت كيف حاولَت أن تردّدَ تلك الأغنيةَ لبيرك . وأنها سرعان ما سئِمت ، ولا نيّةَ لديها مطلقًا في ترديدِ أي أغنية أُخرى له طالما هي على قيدِ الحياة .

وغنَّت لوفيس ، والعالمُ أصبح كما ينبغي له أن يكون . غرقَت رونيا في سلامِ الطفولة العميق . وبوجهِها المدفون في ركبة لوفيس نامَت تحت النجوم ، ولم تستيقظ إلا والصباح مشرقٌ .

كانت لوفيس قد غادرت ، وقد خلّفَت وراءها وشاحها الرمادي الذي دثّرَت به رونيا . شعرَت رونيا بدفئه حالما استيقظت ، واستنشقَت عبيره . نعم ، تلك هي لوفيس ، فكّرَت ؛ ورائحةُ وشاحها تشبهُ قليلًا رائحةَ الأرنب الصغير الذي كان عندي مرةً .

رأت بيرك جالسًا إزاء النار ، محدودبَ الظهر ورأسُه بين يديه ؛ شعره النحاسي متدلٍ إلى الأمام مخفيًا وجهَه . هناك جلسَ وبدا بائسًا جدًا بحيث تألّمت رونيا من منظرِه . فتقدّمَت نحوه وهي تجرجرُ الوشاح المتدلّي خلفها متناسيةً كلّ شيءٍ آخر ، ثم تردّدَت قليلًا ، إذ لعلّه يرغبُ في أن يُتركَ وشأنه .

في النهايةِ رأت أن لا بدّ من أن تسأل : «ما الحكايةُ يا بيرك؟»

رفع رأسَه نحوها وابتسم . «أنا جالسٌ هنا أتحسّرُ على نفسي يا أختي!»

«لماذا؟» سألته رونيا .

«أتحسّرُ لأنكِ أختي بالتمامِ والكمال عندما يَستدعيكِ شلالُ الجشع ، إنما ليس ما عَدا ذلك . ليس عندما يستدعيكِ أبوكِ عن طريقِ رسلِه المتعدّدين . وبالتالي أتصرّفُ حينئذٍ كما يتصرّفُ الجبناء ، وأنا أتحسّرُ على هذا أيضًا في حال أردتِ أن تعرفي .»

ومَن الذي لا يتحسّر؟ فكّرت رونيا . ألا يجدرُ بي أنا أيضًا أن أتحسّرَ على نفسي عندما لا يُرضي ما أفعله أي شخصٍ؟

«لكن ، ليس من العدلِ أن ألومكِ على ذلك ،» تابع بيرك . «أعرف أن الوضعَ هو كما ينبغي أن يكون .»

نظرَت إليه رونيا باستحياء . «أتريدُ في جميع الأحوال أن تكونَ أخي؟»

«نعم ، هذا هو الأمر ،» أجاب بيرك . «أنا أخوكِ بالتمامِ والكمال دائمًا وأبدًا ، وأنت تُدركين ذلك! إنما عليكِ الآن أن تعرفي أيضًا لماذا أردتُ أن نعيش هذا الصيفَ بسلام ، وبلا أي رسلٍ من قلعة ماتيس ، ولماذا لا أطيقُ المجيء على ذكرِ الشتاء .»

في الحقيقةِ ، لم يكن هناك ما رغبَت رونيا في أن تعرفه أكثر من ذلك . كثيرًا ما تساءلت لماذا لا يبدو بيرك قلقًا مطلقًا من قدوم الشتاء . إنه الصيفُ الآن رونيا يا أختي ، لطالما انبرى يقولُ بهدوءٍ بالغ ، كما لو أنَ الشتاء لن يأتي أبدًا .

«ليسَ لدينا إلا هذا الصيف ، أنا وأنتِ ،» قال بيرك ، «ونظرًا إلى وضعي القائمِ الآن ، لا تهمّني الحياةُ كثيرًا إلا إذا كنتِ معي . وعندما يحلُّ الشتاء لن تكوني معي . يجب أن تعودي آنذاكَ إلى قلعة ماتيس .»

«وماذا عنكَ؟» سألته رونيا . «أين ستكون؟»

«هنا ،» أجاب بيرك . «طبعًا يمكنني أن أذهبَ وأستجديَ طريقي إلى مَعقِل بوركا . . . وأنا على يقينٍ من أنني لن أُطرَد . إنما أي فائدةٍ في ذلك؟ عندئذٍ لن تكوني معي . ولن يُسمحَ لي أن أراكِ . لذا أنا باقٍ هنا في كهف الدِّببة .»

«وتتجمّدُ حتى الموت يا بيرك .»

ضحك بيرك : «ربما نعم وربما لا! طرأ في ذهني أنكِ قد تخرجين للتزلّج وتأتين إلى هنا مع شيءٍ من الخبز والملح ، وكذلك فراء الذّئب الذي يخصّني ، إذا واتتكِ الفرصة لتأتيني به من مَعقِل بوركا .»

هزّت رونيا رأسَها . «إذا جاء هذا الشتاء شبيهًا بالشتاءِ الماضي ، لن أستطيعَ أن أتزلّج ، وبالتأكيدِ لن أستطيع جلبَ فراء الذّئب لكَ . وإذا جاءَ هذا الشتاء شبيهًا بالشتاءِ الماضي وأنتَ تعيش في كهف الدِّببة هذا ، فستأتي نهايتكَ يا بيرك بوركاسون!»

«عندئذٍ يكون هذا قدَري ،» قال بيرك . «لكننا الآن في الصيفِ يا أختي!»

تأمّلتهُ رونيا بعمقٍ . «سواء نحن في الصيفِ أو الشتاء . . . من قال إنني سأعودُ إلى قلعةِ ماتيس؟»

«أنا ،» تَصدّى لها بيرك . «حتى لو اضطررتُ إلى حملكِ بنفسي . فأنا أنوي أن أتجمّدَ حتى الموت وحدي ، إذا كان هذا مُقدّرًا لي . وكما قلتُ ، نحن في الصيف الآن!»

لن يدومَ الصيف إلى الأبد ، لم تَغب هذه الحقيقةُ عنهما هو ورونيا . ومع ذلك عاشاه كما لو أنه صيفٌ أبدي . وبقدر ما استطاعا نحّيا جانبًا أفكارَهما المؤرِّقة عن الشتاء .

أرادا أن يستنفِدا كلّ ساعةٍ من الفجرِ والغسق والليل ، ويَستخلصا الحلاوةَ من تلك الأوقات . وللأيامِ أن تأتي وتمضي كما تشاء ، فهما كانا يعيشان في سحرٍ صيفي ولن يسمحا لأي شيءٍ أن يزعجَهما ، والوقتُ المتبقي لهما قصير .

«ولا أحدَ سيُفسده لنا ،» قال بيرك .

وافقَته رونيا . «أنا أتشرّبُ هذا الصيف كما يمتصُّ النحلُ العسل ،» قالت . «وأجمعُ كلّ شيءٍ في بوتقةٍ صيفيةٍ عظيمة ، لأقتاتَ عليها عندما . . . . عندما لا يكون هناك صيف . أتعرفُ ما تحويه هذه البوتقة؟»

وهكذا استرسلَت تخبرُ بيرك : «إنها حزمةٌ كاملةٌ من شروقِ الشمس وأجماتِ العنّاب العامِرة بالثمار ، والنمشِ الذي على ذراعيك ، وشعاعِ القمر على النَهر في المساء ، والسماءِ الموشّاة بالنجوم ، والغابةِ في قيظ الظهيرة عندما تسلّطُ الشمس أشعّتها على أشجار التنوب ، ورذاذِ المطر في المساء ، والسناجبِ والثعالب والأرانب والأيائل والخيول البرية كلّها ، والأوقاتِ التي نسبح فيها ، والأوقاتِ التي نمتطي فيها حصانينا ونجوب الغابة . . . حسنًا إنها حزمةٌ كاملةٌ من كلّ ما يمثّلُ الصيفَ!»

«أنتِ صائغُ صيفٍ ماهرٍ يا رونيا ،» قال بيرك . «اِستمري!»

وهكذا قضيا ساعاتهما من الصباحِ إلى المساء في غابتهما . اصطادا السّمك وتصيّدا الطرائدَ ليحصلا على ما يحتاجانه من قوتٍ ، وما عدا ذلك عاشا بسلام مع الحياةِ المحيطة بهما . قطعا مسافاتٍ طويلةً ليشاهدا الطيور والحيوانات ، تسلّقا الصخورَ والأشجار ، ركبا حصانيهما وسبحا في البحيرات . . . ومرّت أيامُ الصيف .

كانت السماءُ تمعنُ في صفائِها وفُتورها . ومرّت ليلةٌ أو ليلتان من البرد ، ثم فجأةً ظهرت أوراقٌ صفراء على رأسِ شجرة بتولا عند النهر . لاحظا تلك الأوراق

عندما جلسا أمام نارهما باكرًا في صباح أحد الأيام، إنما لم يقولا شيئًا عنها.

وجاءت أيامٌ جديدة تحملُ معها المَزيدَ والمزيدَ من الجوِّ الصافي واللاسِع. وصار في وسعِ المرء أن يرى بوضوح على مسافةِ عدّةِ أميالٍ عبر الغابة التي تخلّلَ خُضرتهاَ الاصفرارُ والاحمرارُ، ثم غدَت ضفّةُ النهر بأكملِها مشتعلةً بالحمرة الذهبية. أما هما فجلسا أمام نارهما واستمتعا بجمالِ المشهد، لكن لم يقولا شيئًا عنه!

تزايد تكاثفُ الضبابِ فوق النهر، وفي مساء يوم عندما اضطرّا إلى جلب الماء من الينبوع انتشرَ الضبابُ في الغابة. فجأةً أصبحاً في خضمّ أكثفِ ضبابٍ على الإطلاق. وضعَ بيرك دلوَ الماء أرضًا وأمسكَ ذراع رونيا بحزم.

«ما هذا،» هتفَت رونيا. «أأنتَ خائفٌ من الضباب؟ أتظنّ أننا لن نجدَ طريقنا إلى الكهف؟»

لم يفصح لها بيرك عن سببِ خوفِه واكتفى بالانتظار. وعلى حين غرّةٍ، من بعيد، في قلبِ الغابة، صدحَت الترنيمةُ الشّجيةُ التي يتذكّرها جيدًا.

تسمَّرَت رونيا في أرضها واستمعَت. «أتسمع يا بيرك؟ إنها المخلوقات الروحانية تغنّي! أوه، أخيرًا سمعتها!»

«أمَا سمعتيها من قبلُ قطّ؟» استفسر بيرك.

«لا، أبدًا،» أجابت رونيا. «إنها تريدُ استدراجَنا إلى العالم السّفلي... أتعرفُ هذا!»

«أعرف،» أجاب بيرك. «أتريدين أن تتبعيها إلى هناك؟»

ضحكَت رونيا. «أنا لست مجنونةً كما تعلم! لكن سكاليبر قال ...»

ثم صمتَت .

«ماذا قال سكاليبر؟» سألها بيرك .

«أوه ، لا يهمّ ،» غمغمَت رونيا .

وبينما وقفا هناك وانتظرا انقشاعَ الضباب قليلًا ليتلمّسا طريقهما إلى الكهفِ ، فكّرت في ما قاله سكاليبر مرّةً .

«عندما تخرجُ المخلوقاتُ الروحانية إلى الغابةِ وتغني ، يعرفُ المرءُ أنّ الخريفَ قد جاء . وبعده بقليلٍ يحلُّ الشتاء . . . آه يا ربي ، نعم ، صحيح!»

١٦

كان سكاليبر مُحقًا . عندما ظهرَت المخلوقات الروحانية في الغابة تُردِّد مَرثاتها كان الخريفُ قد جاء . حتى وإن رفضَ بيرك ورونيا أن يُقِرّا بذلك . ذوى الصيفُ ببطءٍ ، وأمطارُ الخريف انهمرَت بعنادٍ بالغ بحيث أن رونيا نفسها تضايقَت ، على الرّغم من أنها أحبَّت المطر عادةً .

لازَما الكهفَ أيامًا وأيامًا ، يستمعان إلى زخاتِ المطر اللانهائية عند الفسحةِ في الخارج . في جوٍّ كذاك لم يُفلحا ولا حتى في الحفاظِ على النار مشتعلة ، وأخيرًا ، بما أن البردَ كان شديدًا ، قرّرا أن يقصدا الغابة ليحاولا أن يجريا فيها أملًا بأن تسري الحرارةُ في جسديهما . وبالفعلِ شعرا ببعض الدفء ولكن الماءَ كان يقطرُ منهما . وحالما عادا إلى الكهف عصَرا ثيابهما المبللة ، والتفّا بجلودِ الفراء ثم جلسا يترقّبان أدنى إشارةِ صحوٍ في السماء .

لكن عيونهما لم تبصر شيئًا من فتحةِ الكهف سوى جدارٍ من المطر .

«لدينا صيفٌ ماطر ،» قال بيرك . «طبعًا ، قريبًا يتحسّنُ الجو .»

في النهاية توقّفَ المطر ، بَيد أن العواصفَ هبّت ملعلعةً في الغابة ، والرياح

اقتلعَت أشجار التنوب وانتزعَت الأوراق من الأغصان . تلاشى الوميضُ الذهبي ؛ وعلى المنحدر عند النهرِ ما عاد يمكن أن يُرى شيء غير أشجارٍ جرداء تهتزّ بلا حولٍ ولا قوة في معمعةِ العواصف القاسية التي حاولت انتزاعَها من جذورها .

«لدينا صيفٌ عاصف ،» قال بيرك . «طبعًا ، قريبًا يتحسّنُ الجو .»

لم يتحسّن الجو ، بل ساءَ . وجاءَ البرد ، وتفاقمت شدّته مع كلِّ يوم . وأخيرًا أصبح من غير الممكن تجاهل فكرةَ قدوم الشتاء أكثر مما فعلا . أو ليس بالنسبةِ إلى رونيا على الأقلّ . غالبًا ما راودتها الكوابيس . وفي ليلةٍ رأت في الحلم بيرك مطروحًا أرضًا ومدفونًا في الثلج ؛ شاحبَ الوجه وشعره أبيض من الجليد . فاستيقظَت وهي تصرخ . كان الصباحُ قد حلَّ ، وبيرك في الخارج عاكفٌ على النار ليوقدها . هرعَت إليه ، ولما رأت أنه ما زال محتفظًا بشعره الأحمر ولا جليدَ يجلّله تنفّست الصّعداء .

إلا أن الغابةَ عند ضفّة النهر الأخرى بدَت ولأولِ مرةٍ مكسوةً بجليد أبيض .

«لدينا صيفٌ مثلج ،» قال بيرك من خلال ابتسامةٍ مُقتضبة .

عايَنته رونيا بنظرةٍ مستاءة . كيف يستطيع أن يكون بهذا الهدوءِ؟ كيف يستطيع أن يتكلمَ بهذه الخفّة؟ ألم يدرك بعدُ؟ ألا يبالي مطلقًا بحياته التعسةِ؟ هي تعرفُ أنه من الخطأ طبعًا أن يخافَ المرءُ في غابة ماتيس ، وعلى الرّغم من هذا بدأت تشعرُ بالخوف ، بالخوفِ الرهيب مما قد يحدثُ لهما مع حلول الشتاء .

«أختي ليسَت سعيدة ،» قال بيرك . «أعتقدُ أنه حانَ وقتُ مغادرتها الكهف لتدفئَ نفسها بنارٍ أخرى غير ناري هذه .»

عندئذٍ ، عادت رونيا إلى الكهف واضطجعَت في فراشِها ثانية . نار أخرى . . .



لكن ليس لديها نار أخرى تقصِدها! هو عنى نارَ البيت في القاعةِ الحجرية ، وهي حتمًا تتوق إليها في هذا البردِ الخسيس . . . أوه ، كم اشتاقت لمرّةٍ واحدةٍ في حياتها أن يسريَ فيها الدفء من جديد! إلا أنها لا يمكن أن تلجأ إلى قلعةِ ماتيس بما أنها ليست بنت ماتيس . إنها تدرك أن نارَ ذلك البيت لن تدفئها ثانيةً أبدًا . قُضي الأمرُ! لا شيءَ يمكن القيام به حياله . فما فائدةُ التذمّرِ طالما أنه لا مفرّ هناك؟

رأت دلوَ الماء فارغًا ، وقرّرت أن تذهبَ إلى الينبوع لتجلبَ الماء .

«أوافيكِ حالما أبثُّ الحياةَ في النار ،» صاح بيرك من ورائِها ، فقد كان حملُ الماء إلى الكهف مهمةً شاقّة ، وتتطلّب منهما أن يُنجزاها معًا .

مضَت رونيا تقطعُ المجاز الضيق عند سفحِ الجبل برويّةٍ ، حيث لا بدَّ من أن يسلكَه المرء بحذرٍ وانتباه لئلا تزلّ قدمُه على الصخور . ثم قطعَت الطريق القصيرة خلالَ الغابة جريًا بين أشجار التنوب والبتولا إلى الفسحةِ التي فيها الينبوع . وقبل أن تصبحَ عنده تمامًا تسمّرَت في أرضها . رأت شخصًا جالسًا على حجرٍ قربه! كان ماتيس جالسًا هناك . ماتيس ولا أحدَ غيره! استعادت في رأسِها الشعرَ الأسود الجعد بوضوحٍ جعل قلبها يخفقُ بين ضلوعها! وفي الحال استسلمَت للبكاء ، بكت بينها وبين نفسها بصمتٍ وهي واقفة بين أشجار البتولا . ثم لاحظَت أن ماتيس أيضًا كان يبكي . مثلما رأته مرّة في الحلم ، كان جالسًا وحده في الغابة يتأسّى ويبكي . لم يكن حتى تلك اللحظة قد تنبّه إلى وجودها ، ثم فجأةً رفع رأسه ورآها . وفي الحال رمى إحدى ذراعيه على عينيه مخفيًا دموعَه ، حركة نمّت عن عجزٍ ويأسٍ بالغَين بحيث لم تستطع تحمّلَ المشهد ، فأسرعت إليه وهي تبكي ورمَت نفسها بين أحضانه .



«يا طفلتي ،» همس ماتيس . «يا صغيرتي!»

ثم صاحَ بأعلى صوته : «طفلتي معي!»

مرّغت رونيا لحيتَه بالدموع وسألته وهي تنشجُ : «أأنا طفلتكَ الآن يا ماتيس؟ أعدتُ حقًّا طفلتكَ ثانية؟»

ونشجَ ماتيس وأجاب : «نعم ، كما كنتِ دائمًا يا رونيتي! صغيرتي التي بكيتُ فراقها ليلًا ونهارًا . يا إلهي كم عانيتُ!»

أبعدَها قليلًا عنه ليتسنّى له أن يرى وجهها . ثم سألها بحنان : «أهو كما قالت لوفيس ، بأنكِ لن تعودي إلى البيت إلا إذا طلبتُ منكِ أن تفعلي؟»

كانت رونيا تقفُ صامتةً . وفي تلك اللحظة رأت بيرك . رأته يقف متيبّسًا بين

أشجار البتولا ، ممتقعَ اللون وعينيه مُفعمتين بالحزن . لا ، لا ، لا ينبغي أن يحزنَ . . . بيرك يا أخي ما الأفكارُ التي تدور في رأسكَ وأنتَ تبدو هكذا؟

«أصحيح يا رونيا؟ أتعودينَ إلى البيت معي الآن؟» ألحَّ ماتيس في السؤال .

بقيَت رونيا صامتةً تنظر إلى بيرك . . . بيرك يا أخي ، أتتذكّر شلالَ الجشع؟

«تعالي رونيا ، لنذهبَ الآن ،» قال ماتيس .

وبيرك أدركَ وهو واقفٌ هناك أن الوقتَ قد حان . حان الوقتُ ليقول وداعًا ويتركَ رونيا تعود إلى ماتيس ، مع الشّكرِ على القرض . هذا ما يجب أن يكون ، هو بنفسِه أراد ذلك . وعرفه منذ وقتٍ طويل ، فلماذا يشعر بهذا الألمِ الفظيع؟ رونيا لا فكرةَ لديكِ عن هذا الشعور ، لكن اِرحلي بسرعة! اِذهبي الآن!

«مع أنني لم أسألكِ بعد ،» قال ماتيس . «وها أنا أسألكِ . أسألكِ يا رونيا من صميم قلبي أن تعودي إلى البيت وإليّ!»

لا شيءَ أبدًا في حياتي كان أصعب من هذا الموقفِ ، فكّرَت رونيا . ويجب أن تقولَ ما في جعبتها في هذه اللحظةِ . . . تدركُ أن هذا سيسحقُ ماتيس ، ولكن يجب أن تقولَ . تقول إنها تريد البقاءَ مع بيرك ، أنها لا يمكن أن تتركَه وحده ليتجمّدَ حتى الموت في صقيع الشتاء . . . بيرك يا أخي ، مستحيلٌ أن يفرّقنا شيء في الحياة أو في الموت ، ألا تعرف ذلك؟

آنذاك فقط لمحَ ماتيس بيرك فتنهّد بعمقٍ . ثم صاح : «تعالَ إلى هنا يا بيرك بوركاسون! لدي كلمة معكَ!»

تقدّم بيرك على مضضٍ وليس أقرب مما هو ضَروري . عاينَ ماتيس بنظرة متحدّيةٍ وسأله : «ماذا تريد؟»

«في الحقيقةِ أريد أن أُوسعكَ ضربًا ،» قال ماتيس ، «لكن طبعًا لن أفعل ، بل أودّ أن أطلبَ منكَ من صميم قلبي أن ترافقَنا إلى قلعةِ ماتيس! ليس لأني أستلطفكَ . . . إياكَ أن تظنَّ هذا ، مهما حدث! لكن ابنتي تحبّكَ . . . بتُّ الآن أعرفُ . . . وربما أتعلّمُ أنا أيضًا أن أحبّكَ . أتيح لي الوقت لأفكّر في هذا الأمر وذاكَ خلال الشهورِ الأخيرة الماضية!»

عندما استوعبَت رونيا ما قاله استيعابًا كاملًا ، سرَت فيها القشعريرة . شعرت بشيء يتكسّرُ داخلها . تلك الكتلةُ الرهيبةُ من الجليد التي ما فتئت تحملها داخلها . كيف يحدثُ أن يذيبها أبوها بكلماتٍ قليلة مثلما يذوب ماءُ جدولٍ في الربيع؟ كيف يمكن أن تحدثَ المعجزة فجأةً ، ولا تضطرّ إلى الاختيار بين المخلوقين اللذَين تحبّ ؛ أبيها وبيرك؟ الآن لن تحتاج إلى التخلّي عن أي مِنهما! المعجزةُ قد حدثت ؛ هنا والآن بالضبط!

مفعمةً بالفرح والحبّ والعرفان نظرَت إلى ماتيس ثم إلى بيرك . بَيد أنها لاحظت أن بيرك لا يبدو منبسطَ الأسارير على الإطلاق . بانَ عليه بوضوح التشوّش والارتياب . فنما داخلها الخوفُ ، لأن بيرك يمكن أن يكون في مُنتهى العنادِ والتصلّب . ماذا لو أنه يجهلُ ما فيه مصلحته؟ ماذا لو لم يشأ أن يذهبَ معهما؟

«ماتيس ،» قالت ، «أريدُ أن أكلّمَ بيرك على انفرادٍ .»

«لماذا ،» استفسرَ ماتيس . «أوه لا بأس ، سأذهبُ وألقي نظرةً على كهفي القديم في هذه الأثناء . إنما أسرعي لأنه علينا أن نعودَ إلى البيت فورًا .»

«علينا أن نعودَ إلى البيتِ فورًا ،» قال بيرك باستهزاءٍ عندما رحل ماتيس . «أي

بيتٍ؟ أيعتقدُ أنني سأرضى أن يتّخذني لصوصُه كبشَ محرقةٍ؟ لا ، أبدًا!»

«كبش محرقة! أي أبلهٍ أنتَ؟» هتفَت رونيا وقد عاد إليها سخطها . «أتفضّلُ أن تتجمّدَ حتى الموت في كهف الدِّببة؟»

صمت بيرك لحظةً ، ثم قال : «نعم ، أظنُّ ذلك!»

عندئذٍ فارقَ الأملُ رونيا . «ألا تدرك أن الحياةَ شيءٌ يجب أن تهتمَّ به؟ ألا تدرك أنكَ إذا بقيتَ في كهف الدِّببة في الشتاء ستبدِّدُ حياتكَ! وحياتي!»

«لماذا تقولين هذا؟» سألها بيرك . «كيف يمكن أن أبدِّدَ حياتكِ؟»

صاحت رونيا بغضبٍ : «لأني سأبقى معكَ يا غبي ، سواء شئتَ أم أبيتَ!»

وقف بيرك ساكنًا يُعاينها حينًا . ثم قال : «أتفقهين ما تقولينه الآن يا رونيا؟»

«نعم ،» صاحت رونيا ، «أقول أن لا شيءَ يمكن أن يفرِّق بيننا! وأنتَ تدركُ ذلك أيضًا يا غبي!»

حينئذٍ أسفرَ بيرك عن أروعِ ابتساماته ، وكان وسيمًا جدًا عندما يبتسم .

«لا أريدُ أن أبدِّدَ حياتكِ رونيا يا أختي! هذا آخر شيءٍ أريده . سأرافقكِ أينما ذهبتِ . حتى لو كان عليّ أن أعيش بين لصوصِ عصابة ماتيس إلى أن أختنقَ!»

***

أخمدا النارَ وحزما أغراضَهما ، وهَمّا بمغادرةِ كهف الدِّببة . استصعبا الرحيل ، لكن رونيا همسَت لبيرك بعيدًا عن ماتيس لئلا يسمعها ويبدأ القلقُ ينهشه بلا ضرورة : «نعودُ إلى كهف الدِّببة في الربيع القادم!»

«نعم ، لأننا آنذاك نكون ما زلنا على قيدِ الحياة ،» أجاب بيرك الذي بدا عليه كما لو أن الفكرةَ أبهجته .

ماتيس أيضًا كان مبتهجًا . مشى أمامهما خلال الغابة وهو يطلقُ عقيرته بالغناء ، فجفلَت منه الخيول البرية التي في طريقهم وولّت هاربةً بين الأشجار . الخيولُ كلّها ما عدا حصاني رونيا وبيرك . وقفا ساكنَين ، ينتظران ، وقد تخيّلا على الأرجحِ أنهما بصددِ القيام بجولةِ سباق .

«ليس اليوم ،» قالت رونيا وهي تربّتُ رأسَ شقي . «غدًا ربما ، وربما كلّ يوم إذا لم يتساقط الكثيرُ من الثلج .»

وربّت بيرك رأسَ وحشي . «نعم ، سنعودُ! ما عليكما إلا أن تبقيا على قيد الحياة!»

لاحظا طبعًا أن جلود الخيول أصبحت أثخن ، وقريبًا ستغدو كثيفة لتؤمّن للحيواناتِ الحماية من الصقيع . وبالتالي لا ريب في أن حصانيهما سيبقيان على قيد الحياةِ ليشهدا ربيعًا آخر .

مضى ماتيس يتقدّمهما بمسافةٍ ، قاطِعًا الغابةَ وهو يغني ، واضطرّا إلى الاستعجالِ ليلحقا به . وبعد مسيرةٍ طويلة وصلوا إلى عَطفة الذّئاب ، وهناك توقّفَ بيرك .

«ماتيس ،» قال ، «أريد أن أعودَ إلى البيت إلى مَعقِل بوركا وأتفقّد أحوال آنديس وبوركا . لكنني أشكركَ للسماحِ لي بالحضور إلى قلعة ماتيس لأجتمعَ برونيا وقتما شئتُ .»

«نعم ، نعم ،» قال ماتيس . «هذا ليس سهلًا عليّ لكن تعالَ .»

ثم ضحكَ وأردف : «أتعرف ما يقولُ سكاليبر؟ ذلك الأبله الهرِم يعتقدُ أنّ الشريفَ وجنوده سينتصرون في النهايةِ إذا لم نحتَط منهم . ويقول أن أنسبَ حلٍّ هو اتحاد عصابة ماتيس وعصابة بوركا . . . نعم ، لدى ذاك الأحمق المسنّ وفرة من الأفكارِ الجنونية!»

ألقى على بيرك نظرةَ تعاطف . «مؤسفٌ أن يكون ذلك الشيطانُ اللعين والدكَ ، وإلا لربما ، في أدنى الأحوال ، فكّرٍ المرءُ في الأمر .»

«بل أنتَ الشيطانُ اللعين ،» ردَّ بيرك بلطفٍ وضحكَ ماتيس ضحكةً مُتفهِّمة .

صافحَ بيرك رونيا مودّعًا . هنا ، عند بدايةِ عَطفةِ الذّئاب اعتادا دائمًا أن يقولا إلى اللقاء .

«سأراكِ يا بنت اللصّ! يوميًا ، وأنت تعرفين ذلك يا أختي!»

هزّت رونيا رأسَها إيجابًا . «نعم ، كلّ يوم يا بيرك بوركاسون!»

***

عندما دخلَ ماتيس ورونيا القاعةَ الحجرية كان يمكن أن يسمعَ المرء وقعَ سقوطِ دبوس بين اللصوص . لا أحدَ تجاسر على التهليل ؛ مضى زمن منذ أن سمحَ زعيمُهم لأي مخلوقٍ أن يبتهجَ في قلعة ماتيس . سكاليبر وحده طفرَ يقفز قفزةَ فرحٍ عاليةٍ واستثنائيةٍ بالنسبة إلى كبرِ سنّه .

«يجبُ أن يكون هناك شيءٌ من الترحيب عندما يأتي أصحابُ الدّارِ إلى البيتِ ،» قال . وإذ ذاك ضحكَ ماتيس ضحكةً طويلةً ومن صميمِ قلبه ، بحيث

ترقرقَت دموعُ السعادة في عيونِ اللصوص . كانت أولَ ضحكةٍ يسمعونها من ماتيس منذ ذلك الصباح البائس عند فوَّهة الجحيم ، وسرعان ما انضمّ إليه اللصوص . ضحكوا إلى أن تفوّق ضحكُهم على ضحكِه ؛ ورونيا أيضًا شاركتهم الضحكَ . ثم جاءت لوفيس من زريبةِ الخراف ، فسادَ الصمت . لا يمكنُ أن يضحكَ المرءُ أمام مشهدِ أمٍّ ترحّب بطفلتها التي فقدتها والتي عادت أخيرًا إلى البيت ، وترقرقَت عيون اللصوص بالدموعِ من هذا المشهدِ أيضًا .

«لوفيس ، أيمكن أن تُحضّري حوضَ الاستحمام لي؟» قالت رونيا .

هزّت لوفيس رأسها إيجابًا . «نعم ، سبق أن بدأتُ بتسخينِ الماء!»

«لا أشكُّ في هذا ،» قالت رونيا . «أنتِ ذلك النوع من الأمهات الذي يفكّر في كلّ شيءٍ ، وأعتقد أنكِ ما رأيتِ قطّ في حياتِك بنتًا أقذر مني!»

«لا ، أبدًا ،» أجابت لوفيس .

***

استلقَت رونيا في سريرها مُتخمة ونظيفةً ودافئةً . أكلَت خبزَ لوفيس ، وشربت بعضَ الحليب ، ثم فركَت لها لوفيس جسمَها في حوض الاستحمام إلى أن توهّجَ جلدها . وها هي الآن مُستلقية في سريرها المعهودِ نفسه ، ومن بين الستائر تأمّلَت النارَ المشتعلةَ ببطءٍ في الموقد . كان كلّ شيءٍ كما عهدته . أنشدَت لوفيس لها ولماتيس أغنيةَ الذّئاب ، وحانَ وقت النوم . كان النعاسُ يداعِب جفني رونيا ، بَيد أن أفكارها حلّقت تجوبُ الآفاق .

سيكون الجوُّ باردًا جدًا الآن في كهف الدِّببة ، فكّرت . وها أنا أستلقي هنا ، دافِئة حتى أصابع قدمي . أليس غريبًا أن يجعل شيءٌ بسيطٌ المرءَ سعيدًا! ثم فكّرَت في بيرك وتساءلت عن حالِه هناك في مَعقِل بوركا . أتمنى أن يكون هو أيضًا دافئًا إلى أصابعِ قدميه ، فكّرت . ثم أغمضَت عينيها . سأسأله غدًا .

كانت السكَينةُ تسودُ القاعةَ الحجرية ، وفجأةً تعالت صيحةٌ قلِقةٌ من ماتيس .

«رووونيا!»

«ماذا هناك؟» غمغمَت وهي نصف نائمة .

«أردتُ فقط أن أتأكّدَ من أنكِ هنا فعلًا ،» قال ماتيس .

«طبعًا أنا هنا ،» همهمت رونيا .

ثم استسلمَت للنوم .

١٧

أصبحَت رونيا التي أحبّت غابةَ الربيع والصيفِ تحبُّ غابةَ الخريف والشتاء أيضًا ، بعد أن شعرَت في أسابيعها الأخيرة في كهف الدِّببة أنها عدائية ومُنذرة بالوعيدِ . وداومت على الذهابِ مع بيرك إلى الغابة ليمتطيا حصانيهما في غابةٍ صقيعية لم تبادرها إلا بالمسرّةِ ، وأخبرَت بيرك بكل ما جالَ في خاطرها .

«ما دمتَ تعرف أنكَ ستشعر بالدفءِ من رأسكَ إلى أخمصِ قدميك عندما ترجع إلى البيت ، يمكنكَ أن تقصد الغابة في مختلف الفصولِ . إنما ليس إذا تحتّم عليكَ أن تستلقيَ في فراشك مرتعشَ الأوصال في كهف باردٍ بعد ذلك .»

وبيرك الذي نوى أن يقضيَ الشتاء في كهف الدِّببة كان في منتهى الارتياح بسبب حصولهِ على الدفء في مَعقِل بوركا .

هناك حيث يجبُ أن يعيش ، هذا ما أدركَه ، وهذا ما أدركته رونيا أيضًا . وإلا فإن البغضاءَ في القلعةِ القائمة على جبل ماتيس ستزداد حدّة .

«وكما تعلمين ، سُرّا كثيرًا ، أعني آنديس وبوركا عندما رجعتُ ،» قال بيرك . «ما كنتُ لأصدِّق مطلقًا أنهما يكترثان كثيرًا لأمري .»

«نعم ، ينبغي أن تعيشَ معهما ،» وافقته رونيا ، «إلى الربيع!»

كان اختيارُ بيرك البقاءَ مع ذويه أخبارًا طيبة بالنسبة إلى ماتيس كذلك .

«طبعًا ، طبعًا ،» أخبر لوفيس ، «يمكن أن يأتيَ جروُ اللصوص ذاك ويذهبَ كما يحلو له . وقد طلبتُ منه أن يرافقنا إلى بيتنا على الرّغم من كلّ شيء . لكن من المريح أن لا اضطرَّ إلى مشاهدةِ رأسه الأحمر ذاك طوالَ الوقت!»

استمرّت الحياةُ في قلعة ماتيس ، وسادَها المرحُ من جديد . غنّى اللصوص ورقصوا ، وأطلق ماتيس ضحكاته المجلجِلة .

لكن حياةَ اللصوصية وقطع الطريق لم تجرِ كما كانت في السابق . أصبح العراكُ مع الجنود أعنفَ من ذي قبل ، وأدرك ماتيس أنهم يسعون وراءه هو بالذات . وشرحَ السبب لرونيا .

«ليس إلا لأننا حرّرنا بيليه من تلك الزنزانة البائسةِ في إحدى الليالي المظلمة . . . وفي الوقتِ نفسه حرّرنا معه اثنين من كلابِ بوركا .»

«اِعتقَدَ ليتل سنيب أن بيليه سيُشنقُ ،» قالت رونيا .

«لا أحدَ يَشنق أفراد عصابتي ،» زمجر ماتيس . «وقد أفهمتُ ذلك الـ بيليه المتخاذِل أن قطّاع الطرقِ لا يبقون حيثُ يضعهم الجنودُ .»

لكن سكاليبر هزّ رأسَه الأصلع بحكمةٍ . «ولذلك يعجُّ الجنود الآن في الغابة كأنهم ذبابُ ماشيةٍ . وفي النهاية سينتصرُ الشريف يا ماتيس . . . كم مرّة يتحتّم عليّ أن أخبركَ بهذا؟»

ها قد عاد ثانيةً سكاليبر الهرم ، عاد ينقُّ بخصوص إنهاءِ النزاع بين ماتيس وبوركا قبل أن يفوتَ الأوان . «عصابةٌ واحدة قوية قد تفلح في تولّي أمر الشريف

وجنوده المتحفزين . أما مع وجود عصابتين مُنفصلتين تبدّدان الوقت في التنازعِ على غنيمة ، مثل ذئابٍ تتنافسُ على بقايا اللحم فلا أملَ هناك ،» قال سكاليبر .

لكن هذا لم يكن نوعَ الحديثِ الذي يستسيغ ماتيس سماعه . فقلقه ما بين حين وآخر مما قد يحدثُ يكفيه .

«ثرثِر كما تشاء يا شيخ ،» قال ماتيس . «طبعًا أنتَ محقٌّ بطريقةٍ ما . لكن من برأيكَ سيتزعّمُ عصابة اللصوص آنذاك؟» ثم أطلقَ ضحكة ساخرةً وأردف : «بوركا ها؟ أنا ماتيس أقوى وأعتى زعيم قطّاعِ طرق في الجبال والغابات كلّها ، وأنوي أن أبقى كذلك! وليس ثمّة ما يؤكّدُ لنا أنَ بوركا يمكن أن يستوعبَ هذا!!»

«أرِه إذًا ،» قال سكاليبر . «فأنتَ ذلك الثورُ العظيم ، ولا ريب في أنكَ يمكن أن تنتصرَ عليه بنِزالٍ واحدٍ معه!»

هذا ما توصّلَ إليه سكاليبر خلال ساعاتِ عُزلته وتخطيطهِ للمكائد . «معركةٌ واحدةٌ تضع بوركا حيث يجب أن يكون وتجعله عقلانيًا ؛ حينها لن تكون هناك سوى عصابةٍ واحدة في قلعة ماتيس ، وجميع من فيها يساهمُ في تضليل الجنود ، ويجعلهم يعيشون عيشةَ الكلاب إلى أن يضجرهم تعقّب اللصوص . أليست هذه فكرة ماكِرة؟»

«أعتقد أن أكثرَ الأفكار مكرًا هي التوقّفُ عن السرقة ،» قالت رونيا . «لطالما آمنتُ بذلك .»

واجهها سكاليبر بابتسامة ودودةٍ من فمه الأدردِ .

«أنتِ محقّةٌ كل الحقّ يا رونيا . أنتِ ذكيةٌ جدًا . إلا أن ما أنا عليه من هرم ووهن يحولان بيني وبين أن أُطبّلَ بشيء كهذا على جمجمةِ ماتيس .»

نظر إليه ماتيس بانزعاج .

«وتقول ذلك . . . أنتَ من كان مرةً لصًا مِقدامًا ، في أيام أبي أولًا ، ثم في أيامي! نتوقّفُ عن السرقة! وعلى ماذا نعيش عندئذٍ . . . أفكّرتَ في هذا؟»

«أما لاحظتَ قطّ أن هناك أناسًا ليسوا لصوصًا ومع ذلك يفلحون في تدبّر أمورِ حياتهم؟» سأله سكاليبر .

«صحيح ، لكن كَيف؟» زمجرَ ماتيس .

«حسنًا ، هناك سبلٌ عديدة ،» أوضح سكاليبر . «أعرف شيئًا يمكنني أن أطلعكَ عليه ، لو ما كنتُ واثقًا من أنكَ لصّ وستبقى لصًا إلى أن تُشنقَ . وفي الوقت المناسب سأُطلعُ رونيا على سرٍّ صغيرٍ ظريف .»

«أي نوع من الأسرار؟» استفسر ماتيس .

«كما قلتُ ،» أجاب سكاليبر ، «سأُسارِر رونيا به حتى لا تبقى بلا حولٍ ولا قوةٍ يوم تُشنق .»

«أُشنَق ، أُشنَق ، يَشنقونني!» صاح ماتيس بغضبٍ . «اصمُت الآن أيها الغراب الهرم .»

مرّت الأيام ولم يأخذ ماتيس بنصيحةِ سكاليبر . وباكرًا في صباح أحدِ الأيامِ ، قبل أن تسنح الفرصةُ لرجال ماتيس كي يُسرجوا خيولهم ، جاء بوركا راكبًا حصانه إلى عَطفة الذئاب وطلبَ استدعاء ماتيس .

جاء حاملًا أخبارًا سيئة . وبما أن عدوّه اللدود تكرّمَ عليه وأنقذ رجلين من رجاله من زنزانة الشريف منذ فترةٍ وجيزة ، أراد أن يردّ الجميلَ ويحذّرَ ماتيس . «أي قاطعِ طريق يُقدّرُ حياته يجب ألا يدسَّ أنفه اليوم في الغابة ،» قال بوركا

موضحًا أن الوضعَ حرجٌ للغاية ، إذ جاء توًا من مسلكِ اللصوص واكتشف أن الجنودَ قد نصبوا كمينًا هناك ، واستطاعوا القبض على اثنين من رجاله ، وأصابت سهامهم ثالثًا بجروحٍ بليغة عندما حاول الفرار .

«أولئك الوحوشُ يضنّون على لصٍّ مسكين رزقه .» قال بوركا بمرارةٍ .

عبسَ ماتيس . «يتحتمُ علينا أن نُعلِّمهم كيف يراقبون سلوكهم! لا يمكن أن نقبلَ بأفعالهم هذه!»

لم يلاحِظ ماتيس أنه قال «علينا» إلا لاحقًا ، فتنهّدَ بعمق . ولفترةٍ وقف صامتًا يعاينُ بوركا من الأعلى إلى الأسفل .

«ربما يجب . . . يجب علينا أن نتّحدَ .» قال أخيرًا ، على الرّغم من أن كلماته بعثَت في أوصاله رجفةً . مجرّد تفكيره في أنه يتحدّثُ مع بوركي على ذلك النحو! هذا كفيل بأن يجعل أباه وجدّه وأسلافه كلّهم يتقلّبون في قبورهم لو سمعوه!

آنئذٍ بدا بوركا أكثر انشراحًا . «لمرّةٍ واحدةٍ في حياتكَ تقول شيئًا في منتهى الذكاءِ يا ماتيس! عصابةٌ قوية واحدة . . . . هذا سيكون عظيمًا! تحت إمرةِ زعيمٍ واحدٍ قوي طبعًا! وأنا أعرفُ من يصلح للزعامة .» قال وهو ينصبُ قامته . «شخصٌ قوي وواسعُ الحيلة مثلي .»

على الفور أطلقَ ماتيس ضحكةً فظيعة . «هيا يا هذا ، سأريكَ من يصلحُ للزعامة!»

* * *



وهكذا نال سكاليبر مبتغاه . تقرّرَ أن يجري بين الزعيمين نِزالٌ واحد ، بعد أن أقرّ ماتيس وبوركا في النهاية بأن النِزال فكرةٌ جيّدة . وحالما بلغت الأخبار مسامع رجالهما سرى فيهم الهياج من شدّة الإثارة . وفي صباح العراك بين الرجلين راح لصوص ماتيس يُصدرون جلبةً فظيعة في القاعة الحجرية . وفي النهاية اضطرّت لوفيس إلى طردهم منها .

«إلى الخارج ،» صاحت . «أنا ببساطة لا أتحمّلُ سماع هذا اللغط!»

كان سماع ماتيس كافيًا . ماتيس الذي راح يذرعُ القاعة الحجرية ذهابًا وإيابًا وهو يكزّ أسنانه ويتبجّح بأنه سيسحق بوركا ويحوّله إلى بقايا بحيث لا يميّزه أحدٌ ولا حتى آنديس .

قرقرَ سكاليبر . «تبجّح وأنتَ تعود إلى البيت ممتطيًا حصانكَ . . . هذا ما درجَت أمي على قوله دائمًا .»

أما رونيا فحدّقت في أبيها المتهورِ باستياء . «لا أريد أن أشاهدكَ وأنتَ تسحقه!»

«غير مسموحٍ لكِ ،» قال ماتيس . «الأطفال والنساء لا يحضرون هذه النِزالات .» كانَ هذا هو التقليدُ المتّبَع . إذ ليس من الجيد أن يروا ما يحدث في «نِزال الوحوش الهمجي» كما تُدعى مبارياتُ اختبار القوة تلك . والعنف الذي يُمارس خلالها يعتبرُ سببًا كافيًا لتسميتها هكذا .

«أمّا أنتَ يا سكاليبر فيجب أن تأتي مهما كلّفَ الأمر ،» قال ماتيس . «أعرف أنكَ متوعّكٌ ، لكن نِزال الوحوش الهمجي سيبثّ في قلبكَ الحياة . هيا تعالَ يا شيخ ، سأضعكَ على حصاني . لقد حان الوقت!»

كان صباحًا باردًا ومشمسًا والجليدُ يغطي الأرض . وفي المساحة المفتوحة تحت

عَطفة الذّئاب وقف رجال ماتيس ورجال بوركا يحملون رماحهم ويشكّلون حلقةً حول الزعيمين. فهم لن يلبثوا أن يكتشفوا مَن الزعيم الأفضل.

على قمّةٍ صخرية بارزة جلس سكاليبر متدثّرًا بالفراء. بدا أشبه بغرابٍ مُسنّ ومزرٍ، بيد أنّ عينيه كانتا تشعّان والأملُ يتوهّج فيهما. وكان يتابع ما يحدثُ في الأسفل بحماسةٍ.

خلعَ البطلان كلّ ما يلبسانه ما عدا قميصيهما ووقفا يخبطانِ الأرض الجليدية بأقدامِهما الحافية. تحسّسا عضلات أذْرعهما وركلا بأقدامهما في مختلفِ الاتجاهات ليليّنا أوصالهما.

«يبدو أنفكَ ممتقعًا يا بوركا!» قال ماتيس، «لكنكَ ستشعر بالدفء قريبًا. أعدكَ بهذا!»

«وأنا أعدكَ بالشيء نفسِه،» طمأنه بوركا.

يُسمح في نِزال الوحوش الهجمي استخدامُ مختلف أنواع الحيلِ والألاعيب القذرة. في وسع المرء أن يكسرَ ويجوّف ويشقّ ويمزق ويعضّ ويخمش، يمكنه أيضًا أن يركلَ أينما يشاء بقدميه إنما ليس بين الفخذين. فهذا يعتبر خرقًا للقواعد، ومن يقدِم عليه يخسرُ المعركة حالًا.

أطلقَ فولوكس الإشارة التي كانا ينتظرانها. حان الوقت ليباشرا النِزال. وهكذا اندفعَ الرجلان نحو بعضهما وهما يُطلقان صيحات الحرب.

«يحزنني كثيرًا،» قال ماتيس وهو يقذفُ ذراعه الضخمةَ الهائلةَ حول جسم بوركا، «أنكَ شيطانٌ قذرٌ...» وهنا عصرَ، عصر بما يكفي ليجعل عرقَ بوركا يبدأ بالتصبّبِ قليلًا... «وإلا، لربما عيّنتكَ مساعدي الأول منذ زمنٍ بعيد...» ثم



أردف وهو يُحكمُ قبضته ، «ولا أُضطرّ إلى عصر كليتيكَ واستخراجهما . . .» وهنا سحق أضلاعَ بوركا إلى أن حشرجَ .

حالما استعادَ بوركا أنفاسه وكفَّ عن الحشرجةِ دفع جمجمته الصلبةَ بعزمٍ نحو أنفِ ماتيس فنفر منه الدّم .

«يحزنني كثيرًا ،» قال بوركا ، «أنني مضطرّ إلى تحطيمِ خرطومكَ . . .» وقام بهجومٍ آخر . . . «لأنك أبشع مما قد يتمناه أي مخلوقٍ . . .» وفي هذه اللحظة أمسكَ بقوةٍ إحدى أذني ماتيس وبدأ يشّدها . «أذنان! أتحتاج إلى أكثرِ من أذنٍ؟» سأل وهو يتمادى في الشدّ .

بينما كانت الأذنُ على وشك أن تُقتلعَ ، تراخَت قبضة بوركا لأن ماتيس ما انفكّ يدفعه بعيدًا إلى أن بطحَه أرضًا وبقبضةٍ حديدية جبّارة ضغطَ وجهه حتى كاد يتهيأ له أن رأس غريمه قد أصبحَ مسطحًا . «أنا في منتهى الأسفِ ،» قال ماتيس ، «لأنني مضطرّ إلى طحنكَ بحيث تبكي آنديس كلما رأتكَ في وضحِ النهار!» وضغطَ مجدّدًا ، لكن بوركا نجح في الوصول إلى راحةِ ماتيس ، فحشر بقعةً منها بين أسنانه وأخذ يعضّها .

ندّت عن ماتيس صرخةٌ وحاول انتزاعَ يده ، لكن بوركا بقي متمسكًا بها إلى أن كادَ يختنق ، ففتح فمَه ليأخذَ نفسًا وبصق قطعَ جلدٍ صغيرة في وجه ماتيس . «ها أنتَ ذا . . . خُذها معكَ إلى البيت من أجلِ الهرّة ،» قال وهو ينفخُ ويلهثُ بصعوبة ، لأن ماتيس في تلك اللحظة ربضَ بكامل ثقله فوقه . وسرعانَ ما اتضح أنه حتى لو امتلكَ بوركا أسنانًا حادّة ، فهو بالنسبة إلى ما يخصّ قواه الأخرى ليس ندًا لماتيس .

عندما انتهَت المعركة ، وقف ماتيس مزهوًا يعلنُ انتصاره بوجهٍ دام . وما تبقى من مزقِ قميصه يرفرفُ حوله . وذلك لم يهمّه لأنه في كلّ جزءٍ منه كان الزعيمَ الأوحد ، وعلى جميعِ اللصوص الإقرار بذلك ، حتى على الرغم من أنها كانت لحظةً مريرة لبعض الأشخاص ، خصوصًا بوركا .

تبيّن أن حالَ بوركا كانت أسوأ بكثير بالنسبة إلى ملبسه ، بغضّ النظرِ عن الدموع التي تكادُ تنفر من عينيه ، فرأى ماتيس أن يطيّبَ خاطره ببضع كلماتٍ مواسية .

«أخي بوركا . . . نعم ، من هذه اللحظةِ أنتَ أخي ،» قال . «ولكَ أن تحتفظ بلقبِ الزعامة طوال حياتكَ ، ويمكنكَ أن تستمرّ مع رجالكَ . لكن تذكّر أن ماتيس هو زعيم قطّاعِ الطرق الأقوى في الجبال والغابات كلّها ، وكلمتي تتفوّقُ على كلمتكَ من الآنَ فصاعدًا . . . وأنت تدركُ ذلك!»

اكتفى بوركا بهزّ رأسه ، فهو في تلك اللحظةِ لم يشعر أنه يرغبُ على وجه الخصوص في الثرثرةِ .

في المساء نفسه أقامَ ماتيس مأدبةَ احتفال في القاعةِ الحجرية لجميع لصوص قلعة ماتيس ؛ رجاله ورجال بوركا طبعًا . وليمةٌ فاخرة احتوت طعامًا وافرًا وكمياتٍ كبيرةً من الجِعة .

وبينما مضى المساء توثّقت عُرى الأخوّة بين ماتيس وبوركا . تارةً يضحكان وتارةً يصيحان ، جلسا جنبًا إلى جنب إلى المائدةِ العامرة واسترجعا ذكريات طفولتهما عندما كانا يتعقّبان الجرذانَ معًا في زريبة الخنازيرِ القديمة ، إضافةً إلى تذكّرهما أشياء أخرى متعدّدة ومُسلية قاما بها معًا . استمع إليهما اللصوص كلهم

باستمتاعٍ وهم يضجّون بالضحكِ ، وبيرك ورونيا اللذَين جلسا في النهاية الأخرى من الطاولةِ ، تمتعا بالاستماع أيضًا . وضحكهما دوّى عاليًا وواضحًا طاغيًا على أصواتِ اللصوص الخشنة ، وحمل سماع ضحكهما الفرحَ إلى ماتيس وبوركا . لمدّة طويلةٍ وعسيرةٍ لم يكن هناك لا رونيا ولا بيرك ليتعالى رنينُ ضحكهما في الأجواء ، وما زال ماتيس وبوركا يجدان صعوبةً في التأقلم مع فرحهما برجوعِ طفليهما . ولذلك كان ذلك الضحكُ مثل أحلى موسيقى في آذانهما ، وشجعهما على سردِ المزيد من ذكرياتِ طفولتهما .

وفجأةً قال ماتيس : «لا تبتئِس يا بوركا لأن النهايةَ جاءت على عكس ما تشتهي اليوم ، وقد تأتي على عشيرةِ بوركا أيامٌ أفضل . عندما لا نعود أنا وأنتَ هنا سيصبح ابنكَ زعيمَ قطّاع الطرق ، كما أعتقدُ . لأن ابنتي لا تريد أن تكونَ كذلك ، وعندما تقول لا ، فهذا يعني لا . ورثَت هذا عن أمّها!»

بدا بوركا في منتهى الانشراحِ لسماعه ما قاله ماتيس ، إلا أن رونيا صاحت من آخرِ الطاولة : «أتظنُّ أن بيرك يريد أن يصبحَ زعيم عصابةِ لصوصٍ؟»

«نعم ،» أجاب بوركا بصوتٍ واثق .

حينئذٍ نهض بيرك واجتازَ الأرضية إلى حيث يمكن أن يراه جميع الحضور . رفع يدَه اليمنى وأقسم يمينًا معظّمة أنه لن يصبح أبدًا لصًا مهما حصل .

هيمنَ على القاعةِ الحجرية صمتٌ كئيب . وقبع بوركا في مكانه ، يبكي حسرةً على الابن الذي خذله أيّما خذلان . وحاول ماتيس مواساته .

«جاهدتُ لأتأقلم مع الأمر ،» قال . «وعليكَ أن تحذوَ حذوي . لا يمكنكَ أن تفعل شيئًا مع أطفالِ هذه الأيام . يتصرّفون كما يحلو لهم . . . ما عليكَ إلا أن

تألفَ الفكرة ، مع أن هذا ليسَ سهلًا .»

جلس الزعيمان مدةً طويلة ، يحدّان النظرَ بكآبةٍ في مستقبلٍ لن تكون فيه حياة اللصوصية المجيدة التي عاشاها أكثرَ من أسطورةٍ .

ثم شيئًا فشيئًا عادا إلى ذكريات تصيّد الجرذان في زريبةِ الخنازير ، وقرّرا الاستمتاعَ بليلتهما على الرغم من طفليهما الجموحين . وتنافسَ رجالهما كلّ مع الآخر ليبدّدوا الكآبةَ بأناشيدَ مرحةٍ ورقصٍ محفّز . اندفعوا يدورون ويقفزون إلى أن صرّت ألواحُ الأرضية تحتهم . وانضمّ إليهم بيرك ورونيا في رقصهم ، وعلّمت رونيا بيرك الكثير من قفزاتِ اللصوص المرحة .

خلال هذا الوقت جلسَت لوفيز وآنديس في غرفةٍ منفصلة ، تأكلان وتشربان وتُدردشان . كانتا على طرفي نقيض في الأذواقِ ، ومُتباعدتين في الآراء وفي كلّ شيءٍ تقريبًا ، ماعدا أنهما معًا اتفقتا على أمرٍ واحدٍ : كم من الرائع بالفعل أن تتاحَ لهما الفرصة لتريحا آذانهما من وقتٍ لآخر ، ولا تُضطرّا إلى سماعِ ولا مطلق زفرةٍ من أي رجلٍ .

أمّا في القاعةِ الحجرية فاستمرّ الاحتفالُ ، إلى أن خرّ سكاليبر أرضًا فجأةً من الإنهاك . كان قد اختبر يومًا حافلاً بالسعادة والمرح على الرغم من كبرِ سنّه ، وفي النهاية ما عاد قادرًا على الصمودِ أكثر مما صمد . ساعدته رونيا ليذهبَ إلى غرفة نومه . وهناك ، وهو متعبٌ ومرتاحُ البال غرق في سريره ، ولفّت رونيا حوله دثار الفراء .

«يُرضي قلبيَ الهرمِ ،» بدأ سكاليبر ، «أن لا أنتِ ولا بيرك تريدان أن تصبحا من قطّاعِ الطرق . لا أُنكر مطلقًا أن هذا كان شيئًا يزاوله المرء بسعادةٍ في سالف





الأيام . . . أما الآن فالأحوال باتت قاسيةً ، ويمكن أن يُشنقَ المرء قبل أن يطرفَ له جفن .»

«صحيح ، والناس يستغيثون ويبكون عندما تسلبهم أغراضهم ،» قالت رونيا .

«لن أقدرَ أبدًا على تحمّل هذا .»

«لا يا صغيرتي ، لن تقدري أبدًا على تحمّل هذا ،» قال سكاليبر . «لكنني الآن أنوي إطلاعك على سرّ صغيرٍ جميل ، إذا وعدتني ألا تُعلمي مطلقَ روحٍ به إلا شخصًا واحدًا!»

ووعدَته رونيا .

حينئذٍ أمسك سكاليبر يديها الصغيرتين الدافئتين ليدفئ يديه اللتين كانتا بارِدَتين جدًا . «يا فَخري وفَرحي الصغير ،» قال ، «عندما كنتُ شابًا ودرجتُ على قضاء وقتي في الغابة ، كما تفعلين الآن ، حدثَ أنني في أحد الأيام أنقذتُ حياة قزم رمادي وقع في براثن خطّافةٍ ، انقضّت عليه وهمّت بتمزيقه إربًا . طبعًا تعرفين أنّ الأقزامَ الرمادية ليست إلا مجموعة من الأوباشِ ، لكن ذاك القزم كان مختلفًا نوعًا ما ، ولاحقًا أعربَ لي عن امتنانه الفائق لإنقاذه ، بحيث عانيتُ كثيرًا لأتخلّص منه . وفي النهاية أصرّ على منحي . . . أوه حسنًا ها قد جاءَ ماتيس ،» قال سكاليبر وهو يرى ماتيس يقف عند مدخل الباب متسائلًا عن سببِ غياب رونيا هذه الفترة الطويلة . كان الاحتفالُ قد انتهى وحان وقت أغنية الذئاب .

«أريد أولًا أن أسمع تتمةَ الحكاية ،» اعترضَت رونيا .

فوقف ماتيس بعنادٍ ينتظرها ، وبالتالي همس سكاليبر تتمةَ الحكاية في أذنها .

«عظيم ،» قالت رونيا بعد أن سمعتها كلّها .

***

أقبل الليل وسرعانَ ما هجعَت قلعة ماتيس بكلّ لصوصها المحتالين. أما ماتيس فاضطجع في السرير يئنُ ويتوجّعُ بمرارة. طبعًا دهنَت لوفيس جروحه وكدماته بالمرهم، وذلك لم يأت بنتيجةٍ. ففي الليل أصبح لديه متّسعٌ من الوقت ليتحسّسَ أوجاعه. آلمته جروحُه ألمًا فظيعًا، حتى لو حاول فقط أن يحرّك إصبع قدمِه الصغير. جفاهُ النوم، وزاد انزعاجُه أكثر لما رأى أن لوفيس المستلقية إلى جانبه تنامُ باطمئنان. وفي آخر المطاف أيقظها.

«أنا أعاني أوجاعًا فظيعةً،» همهمَ، «ولا أتمنى شيئًا إلا أن يكون ذلك التعيسُ بوركا مستلقيًا في فراشِه الآن وهو يعاني أسوأ مما أعاني!»

استدارت لوفيس نحو الجدار.

«يا للرجالِ!» غمغمَت ونامَت في الحال.

١٨

«الكبارُ في السنّ لا مصلحةَ لهم في الخروجِ والتجمّد من البرد حتى العظام ليحضروا نِزال الوحوش الهجمي ،» قالت لوفيس بلهجةٍ صارمة . وذلك عندما اتّضحَ في اليوم التالي أن سكاليبر يعاني من الأوجاعِ والقشعريرة في كافة أوصالهِ ، ورفض أن يغادرَ سريره . وحتى بعد أن فارقته الحمّى امتنعَ عن النهوض .

«لا فرقَ بين أن أبقى مستلقيًا وأنظر ، وبين أن أجلسَ وأنظر ،» قال .

قصد ماتيس غرفتَه يوميًا ليطلِعه على مجريات حياة قطّاع الطرق الجديدة . وكان السرور يبدو عليه لأن بوركا يبلي بلاءً حسنًا ، وليس ثرثارًا أيضًا ، كما قال . كان في الحقيقة يتوسّمُ فيه الخير . ومعًا صارا يستوليان على غنيمةٍ تلو غنيمة ، ونجحا في تضليل الجنود . . . ربّاه . . . يا له من مشهدٍ يسرّ العين! وقريبًا تتخلّص غابةُ ماتيس من أولئك الجنود البغيضين جملةً وتفصيلًا .

«تبجّح وأنتَ تمتطي حصانكَ عائدًا إلى البيت ،» غمغم سكاليبر . لكن ماتيس لم يبالِ كثيرًا بما قاله ، فهو في جميع الأحوال لم يملك الكثير من الوقت ليجالِس سكاليبر .

«أنتَ أيها الهزيل الهرم المرتعشُ ،» قال بحنان وهو يربّت سكاليبر قبل أن يغادر . «حاول أن ترمّمَ عظامكَ بشيء من اللحم بحيث تقوى بما يكفي لتدعمكَ!»

لوفيس بدورها بذلت جهدَها . أحضرت له حساءً ساخنًا مقويًا وأشياء أخرى يحبّها سكاليبر .

«أدخِل الحساء إلى جوفكَ ليدفئكَ ،» قالت . إنما ولا أسخن حساءٍ كان قادرًا على طرد القشعريرة من عظام سكاليبر ، وهذا أقلق لوفيس .

«يجدر بنا أن ننقلَه إلى القاعة الحجرية وندفئه ،» أخبرت ماتيس في مساء يومٍ ما . وهكذا غادر سكاليبر غرفةَ نومه المنعزلةَ محمولًا بين ذراعي ماتيس القويتين . وهناك كان عليه أن يشاركَ ماتيس السرير . وانتقلت لوفيس إلى جناحِ رونيا وشاركتها سريرها .

«أخيرًا ، ها أنا ذاكَ الشيخُ المسكين المقرور في طريقي إلى الذوبان ،» قال سكاليبر .

كان ماتيس دافئًا مثل جمرٍ متوهّج ، وزحف سكاليبر نحوه ليلتصق به كأنه طفل ينشدُ الدفء والراحةَ من أمّه .

«لا تهرسني ،» اعترضَ ماتيس ، لكن سكاليبر أمعنَ في اقترابه منه رغمًا عنه . وعندما جاء الصباح رفضَ أن يعود إلى غرفته . أعجبه السرير وأراد البقاء فيه . فهناك يمكنُ أن يستلقيَ ويراقب لوفيس تعمل بينما يمضي النهار ؛ وهناك يتحلّقُ اللصوص حوله ويحدثونه عما فعلوه عندما يعودون في المساء ، ورونيا أيضًا جاءت وحدّثته عن أوقاتها التي تقضيها مع بيرك في الغابةِ . كان سكاليبر سعيدًا بكلّ ذلك .

«هذا ما أُحبّه بينما أنا أنتظرُ ،» قال .

«ماذا تنتظر؟» سأله ماتيس .

«حسنًا ، ماذا تظنّ؟» أجابَ سكاليبر .

لم يستطع ماتيس أن يخمّنَ ، وفي الوقت نفسه لاحظَ أن سكاليبر يذوي شيئًا فشيئًا . وسأل لوفيس بلهفة : «ما مشكلته برأيكِ؟»

«التقدّمُ في السنّ ،» أجابت لوفيس .

عاينها ماتيس بنظرةٍ قلقة . «لكنه لن يموتَ من هذا ، أليس كذلك؟»

«بلى ، سيموت ،» ردّت لوفيس .

انفجر ماتيس بالبكاء . «لا ، لا ، اسكُتي!» صاح . «لن أقبلَ بهذا أبدًا!»

هزّت لوفيس رأسَها . «أنتَ تقرّر أمورًا كثيرةً يا ماتيس ، أما هذا فلن تستطيعَ أن تقرّره!»

رونيا أيضًا كانت قلقةً على سكاليبر ، وبينما أخذ في التلاشي يومًا إثر يوم ، قضت معه مزيدًا ومزيدًا من الوقت . وفي هذه الآونةِ بات يستلقي في الفراش مغمضَ العينين ، ولا يفتحهما إلا لمامًا لينظرَ إليها . وفي إحدى المرّات ابتسم لها وقال : «يا فرحي وسعادتي ، لن تنسي ما ساررتُكِ به ، أليس كذلك؟»

«لا ، ما عليّ إلا أن أهتديَ إلى الموقع الصحيح ،» قالت رونيا .

«لا بأس ، ستفعلين ،» طمأنها سكاليبر . «عندما يحين الوقت ستعثرين عليه .»

«نعم ، طبعًا!» أجابت رونيا .

مضت الأيام ، وازداد سكاليبر وهنًا وضعفًا . أخيرًا جاءت تلك الليلة التي

تحلّقوا فيها حوله يسهرون عليه بينما استلقى بلا حراكٍ وعيناه مغمضتان. تحرّى ماتيس بلوعةٍ أي علامةٍ تدلّ على الحياة فيه. كان السرير في الظلّ، وعلى الرغم من الضوء المنبعث من النار ومن الشمعة التي أشعلتها لوفيس، كان من المستحيل تمييز أي شيءٍ يدلّ على أنه ما زال حيًا، فجأر ماتيس فجأةً: «لقد مات!»

عندئذٍ فتح سكاليبر عينًا واحدة ووجّه إليه نظرة مؤنّبة. «لم أمُت بعد بالتأكيد! ألا تعتقد أنني أتحلّى بشيءٍ من الأخلاق لأودّعكم قبل أن أرحلَ؟»

ثم عاد وأغمض عينه فترةً طويلة، ووقف الآخرون يراقبونه صامتين، لا يسمعون منه إلا زفيرَ بضعة أنفاس قصيرةٍ.

«الآن،» قال سكاليبر وهو يفتحُ عينيه، «الآن يا رفاقي أغادركم! حان أجلي!» وحالما أنهى جملته ماتَ.

لم تر رونيا من قبل أحدًا يموت، وبكته كثيرًا، لكن على أي حالٍ كان في الآونة الأخيرة متعبًا جدًا، فكّرت، ولعلّه الآن يستطيعُ أن يرتاح... يرتاح في مكانٍ ما أجهله.

أما ماتيس فذرعَ القاعةَ الحجرية ذهابًا وإيابًا وهو يبكي بحرقةٍ ويصيح: «كان دائمًا هنا، والآن ما عادَ هنا!»

عندئذٍ قالت لوفيس: «أنتَ تدركُ يا ماتيس أن لا أحدَ يمكن أن يبقى هنا دائمًا. نحن نولدُ ونموتُ... هذه سنّةُ الحياة. فمن أي شيءٍ تتذمّر؟»

«أنا أفتقدُه،» صاح ماتيس. «أفتقدُه بشدّةٍ تجعل قلبي يتقطع!»

«أترغبُ في أن أضمّكَ قليلًا؟» سألته لوفيس.

«نعم، اِفعلي،» نشج ماتيس. «وأنتِ أيضًا يا رونيا.»

وهكذا جلس متكئًا أولًا على لوفيس، ثم على رونيا وأجهشَ بالبكاء منفّسًا عن لوعتهِ على فراق سكاليبر الذي كان حاضرًا طوالَ حياته وما عاد حاضرًا.

في اليوم التالي دفنوا سكاليبر على مقربةٍ من النهر. كان الشتاء قد أصبحَ على الأبواب، وبدأ الثلج يتساقطُ للمرة الأولى، حطّت الرقاقاتُ اللينة الرطبة على تابوتِ سكاليبر بينما حمله ماتيس ورجاله إلى مثواه الأخير. كان سكاليبر قد نحتَ تابوته بنفسه في أيام عزّه، واحتفظَ به في مخدعِ الملابس على مرّ السنين.

«قد يحتاج اللصُّ إلى تابوته عندما لا يتوقّع ذلك مطلقًا،» كان سكاليبر قد قال، وفي السنوات الأخيرة القليلةِ أبدى دهشتَه لأن الأمر استغرقَ زمنًا.

«هذا على أي حالٍ سيحدث عاجلًا أو آجلًا.» ما فتئ يقولُ.

وها قد حان وقته.

ألقى غيابُ سكاليبر ظلالًا ثقيلةً على القلعة. وحطّت الكآبة على ماتيس طوال فصلِ الشتاء، وكان اللصوص أيضًا مكسوري الخاطر، بما أن مزاجَ ماتيس هو ما يحدّدُ الحزنَ أو الفرحَ في القلعة.

احتمَت رونيا بالغابة مع بيرك، الغابة التي سادَها الشتاء، وتزلّجها على المنحدرات أنساها أجواءَ البيت. ثم عندما تعود تتذكّرها حالما ترى ماتيس جاثمًا مكتئبًا أمام النار.

«تَعالي وواسيني يا رونيا،» كان ماتيس يَستعطِفها. «خفّفي عني لوعتي.»

«قريبًا يحلّ الربيع. وحينذاك تشعرُ بالتحسّن.» اعتادَت رونيا أن تقول، لكن ماتيس لم يوافقها الرأي.

«لن يشهدَ سكاليبر أي ربيعٍ،» درج على أن يقولَ بوجهٍ متجهّمٍ، ورونيا لم

تستطع أن تفرّجَ همّه بالمجيء على ذكرِ الربيع .

لكن الشتاء ولّى وأقبلَ الربيع ، كما يحدثُ دائمًا ، بغضّ النظرِ عمّن ماتَ أو عاشَ . وبدأت أساريرُ ماتيس تنفرجُ كعادته كلما هلّت تباشيرُ الربيع ، فصفّر وغنّى وهو يمتطي حصانَه متجهًا إلى عَطفة الذئاب ، متقدّمًا عصابته من اللصوص .

كان بوركا ورجاله بانتظاره في الأسفل . مَرحى ، مَرحى بالربيع ، فحياة السلب والنهب ستعود بعد الشتاء الطويل! هذا أبهجَهم ، أبهجَ أولئك الذين ولدوا ليعيشوا حياة اللصوصية وقطع الطريق .

أما الطفلان فكانا أعقلَ منهم بكثير . أبهجتهما أشياءٌ أخرى مختلفة تمامًا ، مثل اختفاءِ الثلج ليستطيعا أن يمتطيا حصانيهما ثانية ، ومثل فكرة الانتقال في أقربِ وقتٍ إلى كهف الدِّببة .

«يُسعدني أنكَ لا تريدُ أن تصبحَ قاطع طريق أبدًا يا بيرك .» قالت رونيا .

ضحك بيرك . «لا ، طبعًا ، ألم أقسِم على ألا أفعل؟ لكنني الآن أتساءل كيف سنعيش ، أنا وأنتِ؟»

«أنا أعرف ،» أجابت رونيا . «سنصبح عمّال مناجم . . . ما قولكَ في هذا؟»

ثم روت له حكاية منجم فضّة سكاليبر ، المنجم الذي دلّه عليه القزم الرمادي منذ زمن بعيد إعرابًا عن امتنانه لأنه أنقذَ حياته .

«هناك كتل فضّةٍ بحجم الحصى ،» قالت رونيا . «ومن يدري لعلّها ليست مجرّد قصة خرافية! أقسم سكاليبر أنها حكاية حقيقية . ويمكن أن نقود حصانينا إلى هناك في أحدِ الأيام ونلقي نظرةً . أعرف أين هو المنجم .»

«لسنا في عجلةٍ من أمرنا ،» قال بيرك . «اِحرصي فقط على أن يبقى هذا سرًّا!

وإلا سيهرع اللصوصُ ليستخرجوا تلك الفضّة!»

ضحكَت رونيا. «حكمتكَ تُضاهي حكمةَ سكاليبر. اللصوصُ طمّاعون كالصقور الجارحة... هذا ما قاله سكاليبر... ولذلك طلبَ مني ألا أخبرَ أحدًا سواكِ!»



«في الوقت الحالي نحن على ما يرام بلا أي فضّة يا أختي ،» قال بيرك . «في كهف الدِّببة نحتاج إلى أشياءٍ أخرى غير الفضّة .»

أصبح جوّ الربيع أكثر روعة مع مرور الوقت ، وبدأ القلق يساورُ رونيا من ذلك اليوم الذي تخبر فيه ماتيس أنها تنوي الانتقال إلى كهف الدِّببة ثانيةً . لكن ماتيس كان رجلًا استثنائيًا ، ولا أحد يمكن أن يتكهّن ما الأمر التالي الذي قد يُقدِمُ عليه .

«كهفي القديم مكانٌ جيّد ،» قال . «لا مكانَ أفضل منه للسكن في مثل هذا الوقت من السنةِ . . . ألا ترين هذا يا لوفيس؟»

كانت لوفيس معتادةً على تقلّبات مزاجه الفجائية ، فلم يدهشها كثيرًا ما قاله . وهكذا قالت لرونيا : «اِنطلقي يا فتاة ما دام أبوكِ قد وافقَ ، لكنني سأفتقدكِ!»

«طبعًا عليكِ أن تعودي إلى البيت في الخريف كما تفعلين دائمًا ،» أردفَ ماتيس ، كما لو أن رونيا ما فتئَت تنتقلُ من وإلى القلعة على مدى سنواتٍ .

«نعم ، سأفعلُ هذا كما أفعل دائمًا ،» أكّدت له رونيا ، مسرورةً ومذهولةً لأن الأمر جرى في منتهى السهولة هذه المرّة . كانت تتوقّعُ الدموعَ والصياحَ ، وها هو ماتيس ، يبدو سعيدًا جدًا كشعوره بالسعادة وهو يتذكّرُ مسرّات طفولته في زريبةِ الخنازير القديمة .

«أوه ، نعم ، كان يمكن أن تكونَ الأمور أسوأ عندما أقمتُ في شبابي هناك ،» قال ماتيس . «وذاك الكهف هو في الواقع كهفي ، لا تنسي ذلك! وقد آتي وأزوركِ بين حين وآخر .» عندما روَت رونيا لبيرك ما جرى أجاب بتفاخرٍ : «بقدرِ ما

يعنيني الأمر هو على الرحبِ والسّعة .» ثم أضاف بعد برهةٍ ، «لكن ، من المريح ألا نرى رأسَه الأسود الأشعث ذاك يوميًا .»

***

إنه الصّباحُ الباكِر . جميلٌ كجمالِ أي صباحٍ في الدنيا! مضَى سَاكِنا كهف الدِّببة يقطعان غابتهُما بخطى حثيثةٍ ، ومن حولِهما في شتى الأنحاء تتجلّى عظمةُ الربيع . كلّ شجرةٍ ، وكلّ بقعة ماء وكلّ أجمةٍ خضراء تنبضُ بالحياة . هناك شقشقةٌ واندفاعٌ وأزيزٌ وغناءٌ وهمهمةٌ . وأغنيةُ الربيع الغضّةُ الجامحة تتردّدُ في الأجواء .

وصلا إلى كهفِهما ، بيتهما في البريةِ . وكلّ شيءٍ كان كالسابق ، آمِنًا ومألوفًا . النهرُ يندفع في الأسفلِ ، الغابةُ مشرقةٌ بضوء الصباح . . . كل شيء كما كان دائمًا وأبدًا . الربيعُ جديدٌ ، ومع ذلك هو الربيعُ نفسه منذ الأزلِ .

«لا تفزع يا بيرك ،» تقولُ رونيا . «فصَيحَتي الربيعية في طريقها إلى الخروجِ»!

وهكذا تطلقُ صيحتها ، حادّةً كصيحةِ عصفور ، صيحةَ فرحٍ يمكن سماعها من مسافةٍ بعيدةٍ في الغابةِ .








ISBN 978 91 87333 73 6

دار المنى